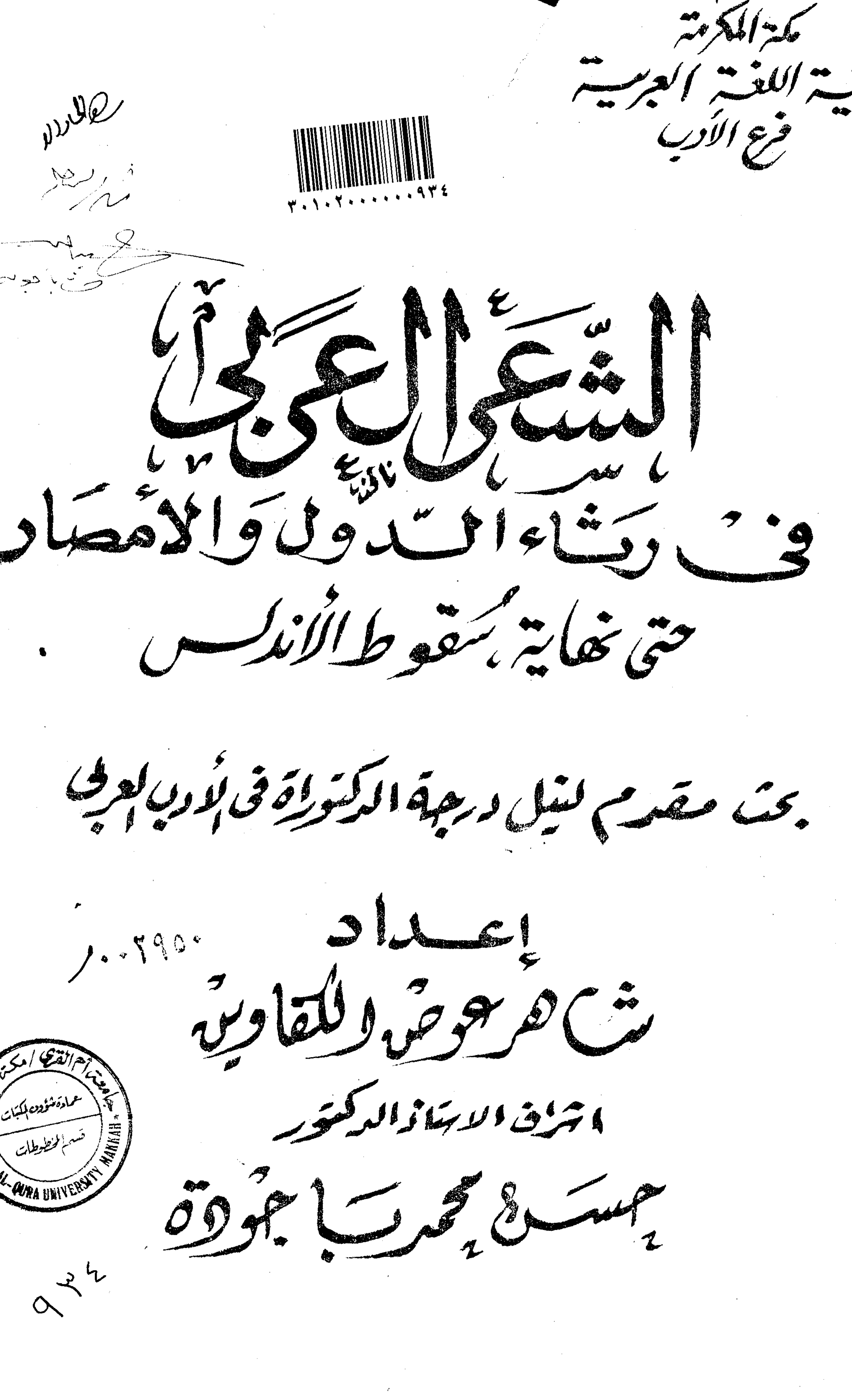


جامعة أم القرى
مكة المكرمة
كلية اللغة العربية
فرع الأدب

الشعر العربي
في رثاء الدول والأمصار
حتى نهاية سقوط الأندلس

بحث مقدم لنيل درجة الدكتوراة في الأدب العربي

إعداد
شاهر عوض الكفاوين
إشراف الأستاذ الدكتور
حسن محمد باجودة

١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م


بسم الله الرحمن الرحيم

شكـــر وتقديـــر

أحمدك اللهم وأشكرك على جزيل انعامك وعظيم فضلك . أنـت الموفق لكل خير ، والميسر لكل عسير . وأصلي وأسلم على نبيك محمد وعلى آله وصحبه وبعـد :

فعملا بالتوجيه النبوي الكريم القائل : (لا يشكر الله من لا يشكر الناس)[1] فانني أقدم خالص شكري وعظيم تقديري للقائمين على جامعة أم القرى الفتيّه ، الذين لا يدّخرون وسعا في العمل على الارتقاء بالجامعة وتطويرها من مختلف الجوانب .

واعترافا بالفضل لأهله ، ووفاء بالجميل لمن أسداه أزجي عظيم الشكر لأساتذتي الذين أفدت منهم ، وأخص أستاذي الدكتور/ حسن محمد باجوده رئيس قسم الدراسات العليا العربية بجامعة أم القرى ، والمشرف على هذه الرسالة . الذي واكب مسيرة هـذا البحث موجها ومرشدا ، ومنحني من وقته الثمين وعلمه الغزير ما أعانني على انجاز هذا البحث . فجزاه الله خير الجزاء وبارك فيه ونفع بعلمه .

كما أشكر جميع من بذل لي المساعدة العلميه أو أسدى الي نصيحة خالصة أو وجه نقدا بنّاء . ونسأل الله أن يوفق الجميع لما فيه الخير والرشاد ...

---

(1) الحديث في مسند أحمد : ٢٤٦/٣ ، سنن أبي داود : ٢٥٥/٢ .

مفتاح الرموز

ق : قسم

ع : عدد

مج : مجلد

ج : جزء

د.ت: دون تاريخ طبع

ط : مكان الطبع

المقدمـــــــة

الحمد لله الذى يرث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين ، كتب علـــى المخلوقات الفناء واستأثر بالبقاء . أحمده سبحانه وأشكره على انعامــــه وتوفيقه ، وأصلى وأسلم على سيدنا محمد خاتم النبيين ، أفصح من نطـــق ببيان ، وأعظم من جاهد لاحقاق الحق وقمع الطغيان ، وعلى آله وصحبه الذين هجروا الأوطان -على حبها - طمعا فى الجنان ومغفرة الرحمن .

أما بعد ، فان الشعر الذى يستحق الخلود والعناية ، ويقع الاعتزاز به فى كل أوان ، هو الذى يمثل وجدان الأمة فى التعبير عن أحاسيسهـــا وعواطفها وأفكارها فى خضم ملاحم البقاء وهو - أيضا - المرآة الدقيقـــة الصادقة التى تعكس أغوار النفس البشرية ومافيها من صور وانفعـــالات . أما الشعر التائه الذى لا يعرف له هدف ، ولا يدفعه الى الوجود ســـوى حب الظهور فسرعان مايسقط فى زاوية الاهمال والموت ، ذلك لأنه مجـــرد من الفكرة التى هى شريان حياته الرئيس ، وأى جناية على الأدب أكبر من سلبه رسالته بفصله عن غمار الحياة ، واتخاذه زينة وترفا وتحفا مزخرفـــة ان بعض أبناء العربية من الأدباء والنقاد المحدثين استهوتهم النظريـــة التى ابتدعها نقاد الغرب ، والتى تترجم بعبارة " الفن للفن " أى أن الشعر هدف فى ذاته ، يقول بودلير : "ليس للشعر غاية وراء نفسه ، فان اتجـــه الشاعر نحو غاية خلقية فقد أنقص من قوته الشعرية . "(١) ويقول برادلى : " فى الشعر الخالص تنمو القصيدة بشكلها ، ومحتواها معا بين يدى صاحبهـــا وتتم خلقا وابداعا ، فاذا سألت مامعناها ؟ قيل لك انها تعنى نفسهـــا "(٢) .

---

(١) احسان عباس ، فن الشعر : ١٧٢ .
(٢) المرجع نفسه : ١٧٥ .

ومن هذا يتضح أن قيمة الفن عند هؤلاء تنحصر في قدرته على اثارة اعجابنا بواسطة وسائله التعبيرية والأسلوبية بقطع النظر عن الأهداف والغايات .

واذا كان هذا الفريق من شعراء الغرب وأدبائه قد لجأوا الى هذا ردا على تنكر جمهورهم لهم ، وضياع أصواتهم وسط ضجيج الحضارة فأى مبرر لوجود هذه الفكرة في الأدب العربي الذي لم يواجه رجاله شيئا مما واجهه أضرابهم في الغرب ؟ : لا شك أنه التقليد غير المتروى الناتج عن الاعجاب بالجديد والغريب والا فأى قيمة للأدب في ذاته ، ان قيمته الحقيقية تكمن في مدى قدرته على تفسير الحياة والسمو بها عن طريق مزج القيمة الجمالية فيه بالقيم الأخرى السياسية والاجتماعية والخلقية ، واخراجها في ثوب واحد .

ان الالتزام في الشعر العربي قديم قدم الفن نفسه ، وبالنظر الى مختلف عصور الأدب يتضح ذلك جليا ، فشعراء القبائل في الجاهلية منذ أن أدركوا تميزهم على الباقين بسلاح الشعر شعروا بتبعة النضال الفني الذي يقع عليهم تجاه قضايا الجماعة ، فوقفوا أشعارهم على الفخر بأحساب تلك القبائل وشجاعتها ، وعلى ذكر حروبها الظافرة ، ثم مدح المقاتلين بصفات الحمية والبأس ورثاء من قتل منهم ، وظلوا ملتزمين بهذا النهج مدى حياتهم .

وربما التزم الشاعر بمسايرة وضع سائد ، وتأييد نظام مقرر على الناس الذين يعيش بينهم كأن يعجب بنظام سياسي أو اجتماعي ويرى فيه تحقيق ماتصبو اليه أمته ، فيصرف فنه الشعري الى بيان ذلك والدفاع عنه طائعا مدفوعا بحرصه على تحسس مايدفع بمجتمعه الى درجات الرقي . وآفة الالتزام في الشعر أن يتحول الى الزام ، بمعنى أن يفرض على الشاعر فرضا وتحت رقابة شديدة ممارسة فنه من خلال مبدأ معين أو مذهب يختار له ، والشعر الناتج في هذه الحالة - بلاشك - زيف لا يلبث أن يضمحل حين تخف الضرورات التي كانت سبب فرضه .

ولعل اللبس الذى يقع من عدم التفريق بين الالتزام والالزام هو السبب فى نفور الكثيرين من الأدب الملتزم حيث ينظرون اليه على أنه مقيد ضمن دائرة ضيقة من المعانى والأفكار وما هو كذلك .

وايمانا منى بضرورة الالتزام فى الشعر ، فقد جعلت موضوع رسالتى للدكتوراه فى جانب من جوانب هذا الشعر هو رثاء الدول والأمصار (١) . وقد دفعنى الى الكتابة فى هذا الموضوع سببان هما :-

أولا : عزوف الباحثين فى الأدب العربى عن التعرض لهذا الفن الأصيل بالدراسة أو التحليل أو القيام بجمع نصوصه الشعرية المتناثرة فى بطون أسفار التأريخ وكتب الرحلات ، ومعاجم البلدان ولست أدرى سبب هذا العزوف ، أهو النسيان ؟ أم الزهد على اعتبار أن هذا الشعر يمثل الجانب السلبى فى حياة الأمة عبر القرون ؟ : لعل السبب الأخير هو الأرجح ، لأننا نلاحظ أن مؤرخى الأدب - وخاصة أدب الأندلس - عندما يؤرخون لعصور الأدب هناك ويصلون الى هذا الفن الجديد الذى أذكته المحن والنكبات المتوالية ، يقفون عنده وقفة قصيرة مشيرين الى قصيدة أبى البقاء الرندى ، وبعض قصائد المعتمد بن عباد ثم ينصرفون بسرعة ليسهبوا فى وصف شعر الطبيعة والورود والأزهار ثم شعر الخمريات والغراميات ، ثم الموشحات ومجالس الغناء . حتى انطبعت هذه الصورة المشوهة بالميوعة عن طبيعة الأدب الأندلسى

---

(١) المصر : كل كورة تقام فيها الحدود ويقسم فيها الفئ والصدقات من غير مؤامرة للخليفة .

والمصران كانت تطلق على الكوفة والبصرة ./ انظر اللسان مادة (مصر) .

والحياة الأندلسية في أذهان الكثير من الدارسين والباحثين ناهيك عن الجمهور العام . وقد أردت بتناول هذا الموضوع سدّ تلك الثغرة بابراز جانب مشرق من جوانب الشعر العربي تظهر فيه الصورة الصادقة الدافقة للواقع الذي كان يسود المجتمعات بعيدا عن البهرجة والزخرف أما القول بسلبية هذا الشعر ، فيمكن أن يطلق على القصائد التي تقتصر على البكاء والندب ، وتشيع جوا من اليأس والتشاؤم الانهزامي في نفوس الناس ، والتي يكون شعراؤها بعيدين عن الانفعال الحقيقي والتأثر الوجداني ، وهذا اللون من القصائد قليل جدا في هذا البحث . أما غالبية القصائد ففيها الاحساس الصادق الناتج عن تجربة ومعاناة فكثير من الشعراء الذين رثوا مدنهم عندما سقطت كانوا من المواكبين لحركة الجهاد والمشاركين فيها بشعرهم ، فألهبوا الحماس وتغنوا بالبطولات ، ثم رفعوا أصواتهم مستغيثين بمن حولهم من المسلمين في ساعات الشدة والحصار ، ثم جاء الرثاء من تلك النفوس الثائرة في نهاية المطاف .

ثانيا : ان الناظر في الوضع الذي تعيشه الأمة الاسلامية في الوقت الحاضر يرى أن هذا البحث قد جاء في أوانه ، فالضعف الشديد والفرقة القاتلة ، والتطاحن المدمر والتغاضي عن أصوات الحق المخلصة التي تنبعث من هنا وهناك .... هذه الأمور التي تسود دول العالم الاسلامي الآن تذكرنا بالفترات التاريخية المشابهة لها التي مرّت بنا في هذا البحث ، ونتج عنها أوخم العواقب وخير مثال على ذلك عصر ملوك الطوائف في الأندلس ، حيث انقسمت البلاد الى ممالك كثيرة فكل مدينة فيها أمير المؤمنين ومنبر ، وسرعان ماتلبدت سماء تلك الممالك

بغيوم المنافسة والعداوة نتيجة للأطماع والرغبة فى السيطرة فاستمرت الحروب بينها ، فوجد بذلك العدو النصرانى فرصته فأخذ يبتلعها الواحدة تلو الأخرى ، فكان ذلك العصر المشؤوم أول خطوة فى سلّم ذهاب الأندلس كلها . ونحن هنا لا نريد أن نحفر قبورا لآمال الأمة التى تسعى جاهدة فى تحقيقها ، ولكن لعل الاطلاع على شعر الرثاء والنكبات التى قيل فيها يعتبر من أبلغ أساليب التنبيه ، ولفت النظر الى الأوضاع المتردية التى قد تؤدى الى ماأدت اليه مثيلاتها فى السابق فالتاريخ يعيد نفسه .

وقد اقتضت طبيعة البحث أن يكون فى ثلاثة أبواب مسبوقة بتمهيد ومختومة بخاتمة .

مهدت لهذا البحث بذكر الأوطان ومكانتها فى نفوس الشعراء باعتبارهم أقوى الناس شعورا بالصلة التى تربطهم بها ، وأكثرهم احساسا بالوحشة والشوق عند مفارقتها ، حتى أصبح الحنين الى الأوطان غرضا شعريا مستقلا فى أدبنا العربى ، وبينه وبين الرثاء صلة وثيقة ، فكلاهما يصدر عن تجربة صادقة وعاطفة متأججة اضافة الى التشابه فى المعجم الشعرى الى حد كبير .

الباب الأول : رثاء الدول والأمصار فى المشرق .

ويتألف هذا الباب من أربعة فصول تسير وفق تسلسل زمنى : تحدثت فى الفصل الأول عن رثاء الممالك فى الجاهلية ، وأوردت عدة قصائد ومقطوعات فى رثاء القصور والحصون الحِمْيَرية والكسروية التى كان الشعراء آنذاك ينظرون اليها بعين العظمة والاجلال بالاضافة الى طائفة من الشعر الداعى الى أخذ العبرة من تقلب الدنيا بأهلها .

أما الفصل الثانى فكان فى رثاء الدولة الأموية ، وقد ذكرت بايجـــاز ملابسات سقوطها على يد العباسيين ، ثم وقفت عند القصائد التى قيلت فى رثائها ومن أهمها سينيتان لأبى العباس الأعمى وأبى عدى العبلى يمكـــن أن نعتبرهما نواة للقصائد السينية الرثائية التى جاءت بعدهما حيث تجلت فيهما قوة العاطفة التى غذاها حب هذين الشاعرين لتلك الدولة وولاؤهمـا لها حتى بعد زوالها وجعلت الفصل الثالث لرثاء الدول والأمصار حتى عصـر السلاجقة . وقد اشتمل على ثلاثة مباحث الأول : فى رثاء المدن الـــتى دمرت بسبب الثورات والفتن الداخلية فى الدولة العباسية .

وأهم تلك الفتن ، فتنة الأمين والمأمون ، وصراعهما على الحكم ، والـتى نتج عنها تدمير بغداد وازهاق آلاف الأرواح البريئه . هال الشعراء هذا الأمر فراحوا يفرغون انفعالاتهم شعرا باكيا حينا ، وعنيفا ساخطا حينا آخـر ويذكر فى هذا المجال أبو يعقوب الخزيمى ورائيته الطويلة التى تنضـــح بالصدق ، وتكشف عن معاناة صاحبها الذى كان يضخ آلامه بعيدا عـــن بلاطات الحكام . ومن الثورات التى حصلت فى هذا العهد - أيضا - ثـــورة الزنج ، نسبة للزنوج الذين قاموا بها وهى ثورة عارمة استمرت سنين طويلـــة ونتج عنها دمار كثير من المناطق ونهبها ، وعلى رأس تلك المناطق مدينـــة البصرة التى اجتاحوها اجتياحا صاعقا ودمروها تدميرا شنيعا وحرقـــوا جامعها بمن فيه ، وقد بكاها ابن الرومى بلوعة صادقة تحسها من خـــلال التكرار المتفجع الذى ظل يعيش فى دوامته طيلة القصيدة ، كما رثاها شاعـــر آخر من أهلها يعرف بالسدوسى بقصيدة جيدة يغلفها الحزن والألم النفســى لفداحة الخطب وتشرد الناس .

أما المبحث الثاني فقد خصصته برثاء الدولة الطولونية والفاطمية ، وقد أوضحت بنبذة تاريخية موجزة عن كيفية قيام كل منهما ، ثم عرضت لضعفهما وسحقهما نهائيا ، وقد كان بلاط ابن طولون فى مصر مرتعا خصبا للشعراء ولذلك نجد فى رثاء دولته وخاصة قصره المسمى بالميدان شعرا كثيرا ، وما هذا الذى وصلنا منه الا جزء يسير مما ذهب . أما الدولة الفاطمية فمراثيها قليلة بالنظر الى ضخامة سلطانها وربما يعود ذلك لطبيعتها المذهبية ، فلا نجد فى رثائها الا قصيدة شاعرها المخلص عمارة اليمنى الذى ظل يعمل لارجاع سلطان الفاطميين عن طريق التحريض والمؤمرات حتى ظفر به وأعدم .

وجعلت المبحث الثالث لرثاء بيت المقدس عندما سقط بيد الصليبيين فى نهاية القرن الخامس الهجرى . وقد كان لسقوطه رنة حزن عميقة فى أرجاء العالم الاسلامى نظرا لقدسيته ، ولبشاعة الجرائم التى ارتكبها الصليبيون فيه ، فقد أفرغوا نار حقدهم على أهله فقتلوا منهم مايفوق الحصر ، كما قاموا بتدنيس المسجد الأقصى بكل وسيلة ، تماما كما يفعل اليهود فى هذه الأيام ووقف العالم الاسلامى آنذاك مكتوف الأيدى مشغولا بنزاعاته وتفاهاته كما يقف اليوم دون انصات لنداء الجهاد والكرامة الذى يطلقه المخلصون .

وقد تجاوبت أصداء أصوات الشعراء فى مختلف البقاع ، فجاء صوت أبى المظفر الأبيوردى من بغداد يصرخ داعيا للجهاد ، وناعيا على الأمة تفريطها فى هذا المعلم الاسلامى ، ومصورا غضب الرسول -صلى الله عليه وسلم- لانتهاك مسراه . ثم جاءت قصائد مجهولة القائل من هنا وهناك ترثى حال المستضعفين الذين عذبوا وشردوا وتدعوا الى افتكاك أسرهم .

الفصل الرابع : تناولت فيه تدمير بغداد والشام على يد التتار ورثاء الشعراء لهما ، وقد أوضحت سبب زحفتهم الماحقة وتدميرهم الدولة الخوارزمية ، ثم زحفهم على بغداد وسحقها سحقا وحشيا جعلها أطلالا وقد كثر الباكون على هذه المدينة نظرا لكونها مقر الخلافة ومنار العلم والأدب ولكن الملاحظ على تلك القصائد اسرافها فى الصنعة البلاغية تمشيا مع أسلوب العصر .

ثم عرضت لتوجههم الى الشام وتدميرهم بعض مدنها ثم تقدمهم الى مصر حيث رجعوا خائبين بعد هزيمتهم فى عين جالوت على يد المماليك . ولكنهم عاودوا الكرة ثانية على الشام فى أوائل القرن التاسع الهجرى فدمروا مدنها وأهلكوا الحرث والنسل ، وسلطوا النصارى على المسلمين فسامومهم سوء العذاب وقد أذكت هذه الفجائع جمرة الشعر فانطلق يصور واقع الأمة المؤلم ويشارك فى تخليد المعالم والمقدسات التى دمرها الأعداء .

الباب الثانى : رثاء الدول والأمصار فى الأندلس والغرب .

وتحت هذا الباب تندرج أربعة فصول مسبوقة بتوطئة أوضحت فيها أن الأندلس بحكم موقعها كانت ثغرا حربيا مجاورا للعدو النصرانى المتربص ، فهى بحاجة الى قوة واستعداد دائم للدفاع والهجوم وقد حدث هذا فعلا فى عصورها الأولى أيام عبد الرحمن الداخل ومن تبعه حتى غدت الأندلس من القوة بمكان جعل كل الدول التى حولها تسعى لكسب رضاها ، ثم يحل القرن الخامس الهجرى ويبدأ معه عصر ملوك الطوائف وتدخل الأندلس فى طور جديد من الضعف والتفكك ، وتبدأ نذر السقوط تلوح فى الأفق .

الفصل الأول : رثاء المدن : وأول المدن المدمرة فى آواخر حكم الدولة العامرية هى مدينة قرطبة حيث نشبت فتنة بين بقايا الأمويين وأبناء الأسرة

العامرية واستعان الطرفان بطوائف من البربر الذين دخلوا المدينة واستباحوها وطمسوا كل معالمها الحضارية ، وقد رثاها ابن شهيد الأندلس بقصيدة طويلة تقليدية ، كما رثاها عدد من الشعراء المجاهيل محذرين من عواقب الاختلاف والفرقه ناسجين على منوال الوعظ والارشاد .

ثم تأتى أول النكبات بسقوط بربشتر بيد النصارى ، ولما كان هذا أول انتصار لهم فقد فعلوا بالمدينة وأهلها أفعالا مروّعه تحدثت عن بعضها بايجاز ، وقد رثاها الفقيه ابن العسال بقصيدة انهال فيها على ملوك الطوائف ووصمهم بالجبن ، ثم ثنى بالناس موبخا اياهم على فعل المعاصى التى جرت عليهم البلاء ، وقد استشعر أهل الأندلس الخطر بعد سقوط هذه المدينة فقام الفقهاء بدور الوساطة لجمع الكلمة وتوحيد الصف ، ولكن هيهات أن يسمع الانتهازيون نداء المصلحة العامة ، فسقطت طليلة التى كانت حلما يراود النصارى من مئات السنين ، وعلى الفور حولت الى مدينة نصرانية واتخذت عاصمة لهم لمناعتها وجودة أرضها . وقد رثيت بقصيدة طويلة لمجهول بكى فيها محنة الاسلام وأظهر انعدام الثقة من قبل الأمة بحكامها وتشوّفها الى حاكم يكون قائد معركة وبطل انتصار .

وبعد ذلك تدخل الأندلس عهدا جديدا من الأمن والمنعة فى ظلال سيوف المرابطين والموحدين حتى أوائل القرن السابع الهجرى اذ أخذت تتغير الأحوال وخاصة بعد معركة العقاب التى تحطمت فيها قوة الموحدين وبدأ نجمهم فى الأفول . عندئذ تحرك النصارى بخطة جديدة لاقتسام الأندلس ، فتحرك ملك أراجوان نحو بلنسية وحاصرها طويلا ، ولم يستطع اقتحامها لصمود أهلها ، وتم الأمر فى النهاية على تسليمها صلحا حين نضبت أقواتها ولم تصلها النجدات . ولقد كانت بلنسية أما لكثير من الشعراء أمثال ابن الأبّار وابن

عميرة المخزومى وغيرهما فلا عجب أن تحظى بحظة وافرة من المراثى الشعرية والنثرية التى تفيض مرارة ولوعة .

وفى المقابل تحرك ملك قشتاله صوب اشبيلية بجيش لجب ، وأمده البابا بنجدات متوالية لأن المدينة كانت من المنعة والتحصين بمكان مكين ، فضرب النصارى حولها حصارا خانقا مدة خمسة عشر شهرا حتى اضطرت الى التسليم فى النهاية ، وقد فعل بها القشتاليون أفاعيل شنيعة صورها الشعر أصدق تصوير .

وقد ختمت هذا الفصل بالحديث عن رثاء صقلية ومدن المغرب . وخير من رثى صقلية بعد سقوطها بيد النورمان ورحيل الاسلام عنها بعد أن عمرها قرنين ونصف ، شاعرها ابن حمديس بأسلوب يتدفق حماسة وقوة ، ويشف عن ألم نفسى شديد يكوى فؤاده لما لاقاه من الخذلان لدى من راح يستغيث بهم .

وأما المدن المغربية فأشهرها القيروان التى دمرت ونهبت على يد القبائل الهلالية التى زحفت اليها من الصعيد المصرى فى القرن الخامس الهجرى وقد كانت آنذاك فى أوج عزها الحضارى والعلمى والأدبى ، وكانت حلقة وصل بين المشرق والأندلس .

وقد رثيت بقصائد كثيرة لشعرائها المشهورين الذين شردوا منها فيما بعد كابن رشيق ، وابن شرف والحصرى القيروانى وغيرهم ، وشعرهم يمتاز بالصدق وحرارة العاطفة ، وشكوى الغربة ، والحنين الدائم الى القيروان ، - على الرغم مما وجده بعضهم من الحظوة فى البلاد التى نزح اليها .

ونجد - أيضا - قصيدة للسان الدين ابن الخطيب فى رثاء مراكش عاصمة المرابطين والموحدين من بعدهم ، وذلك أنه عندما تغلب المرينيون على

الموحدين وثلوا عرشهم انتقلوا عن مراكش الى فاس فأصاب الأولى الخراب وطواها الاهمال فاعتبر ابن الخطيب بهذا الانقلاب والتحول ، وأطلق زفرته على تلك الأطلال .

الفصل الثاني : تحدثت فيه عن شعر الاستصراخ الذى ظهر فى الأندلس ابّان تحرك النصارى لمحاصرة المدن الاسلامية التى ذكرناها فى الفصل السابق . وقد أدى الشعراء دورا ايجابيا فى سبيل الدفاع عن بلادهم فنظموا القصائد الحماسية التى تحث على الجهاد ، وتذكر بوجوب نصرة المسلمين وانقاذ بلادهم ، وتوجهوا الى المغرب وقاموا بحركة استنفار عامة ، وكللت مساعيهم بالنجاح فى أغلب الأحيان ، وقد ظل شعر الاستصراخ مستمرا بعد سقوط الأندلس حيث كان المسلمون الذين يواجهون التنصير يرسلون صريخهم الى السلطان العثمانى والمملوكى . وقد تميزت قصائد الاستصراخ بطولها وتخلصها من المقدمات ، والاكثار من الاستشهاد بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية المناسبه .

الفصل الثالث : عقدت هذا الفصل لرثاء الممالك أو الامارات التى أنشأها ملوك الطوائف فى الأندلس ، وقوض أركانها المرابطون ضمن خطتهم لتوحيد الأندلس وشحنها بالجنود لتكون جبهة قوية تقف فى وجه النصارى ومن أهم تلك الامارات : امارة بنى عباد فى اشبيلية ، وامارة بنى الأفطس فى بطليوس ، وامارة آل صمادح فى المرية . وقد كان التنافس بين هذه الامارات على أشده فى مجال تزيين البلاط بفطاحل الشعراء والكتاب ، فكانت تغدق عليهم الصلات وتقرر لهم الأرزاق ، ومما زاد الاهتمام فى هذا الأمر ، كون بعض أولئك الحكام من الشعراء الفحول أو الخطباء والنقاد الكبار ، ويكفى أن يقف الدارس عند سيرة المعتمد بن عباد ليتبين مقدار اتساع سلطان الأدب فى

عهده . ولهذا ما أن انتهت دولته وسيق أسيرا حتى ارتفعت أصوات الشعراء بالبكاء وتهويل الخطب بوصف المآثر العظيمة التى احتوتها القيود وكبلها الذل ووصف بنيات ابن عباد بالجوع والخوف والانكسار الأمر الذى جعلهم يكسبون عطف التاريخ على قضية ابن عباد ، فراح كثير من المؤرخين والأدباء يكيلون التهم والسباب للمرابطين تحت تأثير سحر ذلك الشعر وقد ناقشت هذه القضية وحاولت وضعها فى الاطار الصحيح .

أما آل الأفطس فقد رثاهم وزيرهم ابن عبدون بقصيدته المشهورة بالبسامة ، والتى بدأها بمقدمة تاريخية طويلة عن الأمم العظيمة التى هلكت فى الدهر منذ أقدم العصور وحتى عصره ثم أفاض فى ذكر مآثر قومه ، وأبرز عظمتهم فى كل جوانب الحياة .

ورثى أبو الحسن بن الحاج بنى صمادح بمخمسة ذكر فيها أمجادهم ، وتأسف على فراقهم ، وانقطاع معروفهم عنه .

الفصل الرابع : أوردت فى هذا الفصل القصائد التى قيلت فى رثاء الأندلس بصفة عامة وقد قسمت هذه القصائد الى قسمين : القسم الأول يشمل القصائد التى قيلت على أثر سقوط قواعد الأندلس الهامة كقرطبة وبلنسية واشبيلية ، وكأن شعراء هذه القصائد يستشفون من هذا السقوط المتسلسل النتيجة الحتمية للأندلس كلها ، فراحوا يبكونها ، ويندبون معالم الاسلام فيها ، وأشهر قصيدة فى هذا الجانب نونية أبى البقاء الرندى .

أما القسم الثانى فيشمل القصائد التى قيلت بعد غروب شمس الأندلس نهائيا بسقوط غرناطة فى آخر القرن التاسع الهجرى وأهمها قصيدة طويلة لشاعر مجهول صور بها محنة الأندلس أصدق تصوير ، وبكاها أحر البكاء منتقلا من مدينة الى أخرى واصفا ما حل بها من الويلات ، ومحللا للأحداث وأسبابها .

الباب الثالث : دراسة تفصيلية لشعر رثاء الدول والأمصار .

ويحتوى على ثلاثة فصول : الفصل الأول رثاء الدول والأمصار بين التأثير والتأثير . عرضت فيه لأقوال الباحثين بنشوء هذا الفن في الأندلس ، ثم تأثر المشرق به بعد ذلك كما عرضت للآراء التي تصف رثاء المشرق بضعف العاطفة أو انعدامها . وبينت اجحافها ، وقد توصلت الى أن القول بسبق الأندلس في هذا المجال يحتاج الى اعادة نظر ، لأن دواعي هذه المراثي موجودة في كل زمان ومن غير الممكن تحديد مكان نشأتها الأولى .

الفصل الثاني : دراسة لشكل قصيدة الرثاء ، ويشمل أربعة مباحث .

المبحث الأول : مقدمة القصيدة ، فقد تنوعت المقدمات حسب حالة الشاعر الانفعالية وقوة شاعريته ، فبعضهم تقليدى يبدأ بالوقوف على الأطلال ، وآخر يفتتح قصيدته بذكر الأجل المحتوم أو بذكر القضاء والقدر أو بوصف حالته وما داخله من حزن وغم ، وثالث يدخل في موضوع الرثاء مباشرة .

المبحث الثاني : الألفاظ ، بينت فيه دور الألفاظ المتناسقة في اشاعة الجو الذى يريد الشاعر أن يبثه في نفوس السامعين ، كما لاحظت اختيار الشعراء للألفاظ المشبعة بالحركة والجرس والتي توحى بمعان كلية متداخلة تفهم بمجرد سماع اللفظ وتتعذر تجزأتها .

المبحث الثالث : الأوزان والقوافي : تبينت من خلال دراستي لأوزان - الشعر الذى مر في هذا البحث أن شعراء الرثاء نظموا في معظم البحور تقريبا ، ولكن الملاحظ كثرة دوران البحور ذات التفاعيل الكثيرة كالطويل والبسيط ثم الكامل والوافر .... وقد ذكرت تعليلا لهذه الظاهرة أما القوافي فقد برزت القافية المطلقة التي تلائم مد الصوت بالصراخ والتفجع

كمابرز أيضا الروى المكسور الذى تؤدى كسرته دور النائحه .

المبحث الرابع : الاقتباس والتضمين ، فقد أكثر شعراء الرثاء كثرة ملحوظه من الاستشهاد بالآيات والأحاديث ، كما ضمنوا قصائدهم كثيرا من أبيات الشعر المشهورة ، وهذا غير كونه وسيلة لاظهار الثقافة يعطى القصيدة قوة تزيد من تأثيرها فى نفوس السامعين .

الفصل الثالث : دراسة لمضمون قصيدة الرثاء . ويشمل أربعة مباحث أيضا .

المبحث الأول : الواقعية ، فالشاعر فى مجال رثاء دولته أو مدينته يصدر عن واقع يعيشه ويصف أحداثا تجرى أمامه ، فلايجد مجالا للخيال المجنح ، وليس معنى هذا أن يقف الشاعر دائما عند حدود النقل المباشر للحوادث فيكون سطحيا ، لكنه يرسم صورا ملونة بمشاعره وعواطفه تؤثر فى السامع ولا تخرج عن الواقع ، وهذه هى الواقعية الروعية التى يعنى بها الشعراء .

المبحث الثانى : التكرار ، وهذه الظاهرة تلاحظ فى معظم القصائد التى وردت فى هذا البحث فنجد الشاعر يكرر بيتا أو شطرا أو عبارة وما الى ذلك ، ولعل هذا التكرار وسيلة من وسائل التنفيس عن نفس الشاعر التى تتمزق بفعل جيشان الانفعالات ، أو لعله أثر من آثار الألم النفسى الشديد الذى يجعل الشاعر فى حالة هذيان ، وبخاصة عندما يكرر اسم المدينة المرثية . وللتكرار أيضا دوره فى تقوية موسيقى القصيدة وتناسقها ، ويمكن ملاحظة ذلك فى الجناس ورد العجز على الصدر .

المبحث الثالث : الروح الجماعية : فالشاعر ابن بيئته ووليد مجتمعه ، يعيش وسط جمهور تربطه به علاقات ووشائج ، فهو يحس بمايحسون ، ويتلمس همومهم وآلامهم ليعبر عنها ، فهو لسان حالهم ، ففى مابين أيدينا من مراث

نجد الشعراء يصبون اهتمامهم على بيان ماحلّ بالناس من قتل وتشريد وهتك ويأخذون في تحليل النفسيات المحطمة ، وبخاصة عند النساء والأطفال والعاجزين ومن جانب آخر فان بكاء الشعراء على المساجد والمحاريب والمنابر المدمرة أو المغيرة هو نوع من الروح الجماعية ، فتلك المعالم المقدسة ينغرس حبها في نفس كل فرد في المجتمع الاسلامي .

المبحث الرابع : أسباب النكبات ، تطالعنا في شعر رثاء الدول والأمصار ظاهرة تلمس الشعراء للأسباب التي أدت الى حدوث الكوارث ، ولكن الأسباب التي يوردونها لا تمثل جوهر الحقيقة الا نادرا فهم يلجأون الى ذكر العين الحاسده ، وذنوب الأمة ، وحكم القدر المحتوم مع علمهم أن السبب الحقيقي يكمن في ضعف الحاكم وجبنه وخيانته ولكنهم يكتمون ذلك خوفا من سياط العذاب التي تصب على كل منتقد أو معارض .

وفي الخاتمة ذكرت بعض النتائج الهامة التي توصلت اليها من دراستي لشعر رثاء الدول والأمصار . هذا وقد جعلت من منهجي في هذا البحث الوقوف عند النصوص ودراستها من داخلها بعد الاحاطة بالظروف التاريخية التي تلقي ضوءا على ملابسات الحادث الذي هزّ الشاعر ودفعه الى القول ، وقد حرصت على ايراد ماأمكن من النصوص الهامة التي تدعم هذا الفن محاولا وضعها في متناول القارئ بعد أن كانت في طي النسيان . وقد يلاحظ المتتبع لفصول هذه الرسالة وبخاصة القسم الأندلسي منها شيئا من التكرار في المادة التاريخية ، وهذا أمر لا يستطيع الباحث تفاديه لتداخل الأحداث وتشابكها ، وقد حاولت التخفيف من ذلك مااستطعت . ولا أدعي أنني بلغت الكمال في هذا البحث ، فذلك بعيد من عمل الانسان ولكني أرجو أن أكون قد أضفت شيئا جديدا لأدبنا العربي .

والله الموفق والهادي الى سواء السبيل ،،،

شاهر الكفاوين
غرة جمادى الآخرة - ١٤٠٤هـ .

التمهيد : الأوطان ومكانتها فى نفوس الشعراء .

لقد أودع الله ـ تعالى ـ فى النفس البشرية مجموعة من العواطف تمكنها من تحديد تعاطيها مع الأشياء المحيطة بها ، وتتشكل هذه العواطف عند الانسان ـ فى العادة ـ من جراء تعاطيه مع الأشياء وتكرار اتصاله بها وردود الفعل الناتجة عن ذلك . ويأتى على رأس العواطف الانسانية عاطفتان رئيستان هما : عاطفة الحب وعاطفة الكره . فاذا كانت الردود الانفعالية الناتجة عن الاحتكاك بشئ ماسارة تكونت عاطفة الحب والا كان العكس .

ومادام الأمر كذلك ، فأى شئ أقرب وأحب الى نفس الانسان من موطنه الذى ضمه بين أحضانه منذ أن رأى النور لأول مرة على ظهر هذه الأرض ثم ثم درج على تربه ، وتنفس هواءه ، وشرب ماءه ، حتى أصبح جزءا من نفسه لا يمكن أن يستغنى عنه أو يفارقه بسهولة . بل ان الشوق والحنين تبدأ لواعجه تعصف بالنفس منذ اللحظة الأولى التى تختفى فيها معالم ذلك الوطن عن عيني المغترب أو المهاجر .

وقد ذكر الله ـ عز وجل ـ فى كتابه الكريم مقدار حب الانسان لوطنه وتعلقه به فقال : (ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم مافعلوه الا قليل منهم .....)(١) .

فقرن الخروج من الديار ومفارقتها بقتل النفس ومفارقة الروح لجسدها ، ولا شئ أشق على الانسان من قتل نفسه ، ولذلك عقب فى الآية بقوله :

---

(١) سورة النساء ، الآيه ٦٦ .

(مافعلوه الا قليل منهم) وقال أيضا : (قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم ، وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره ......) (١) .

فقد عدد فى الآية كل مايحبه الانسان ومايتعلق به فى هذه الحياة ، كالأقارب والعشيرة ، والأموال والتجارات ثم عطف عليها المساكن التى هى جزء من الوطن الكبير .

وحب الوطن والحنين اليه غير قاصر على أمة من الأمم أو ملة من الملل ، بل ان هذا موجود عند بعض أصناف الحيوانات ، ويروى عن الأصمعى أنه قال : " قالت الهند ثلاث خصال فى ثلاثة أصناف من الحيوان : الابل تحن الى أوطانها وان كان عهدها بعيدا ، والطير الى وكره وان كان موضعه مجدبا ، والانسان الى وطنه وان كان غيره أكثر له نفعا " (٢) .

ولعل المشاهد والمعروف عن أكثر الحيوانات أنها تدافع عن مأواها اذا هوجم حتى الموت . أما حب الوطن عند غير العرب فهو يدعو الى الدهشة حقا ، فقد بلغوا فيه مبلغا عظيما ، فهو عند اليونان يولد مع الانسان ، يقول بعض فلاسفتهم : " فطرة الرجل معجونة بحب الوطن " (٣) ويروى عن جالينوس طبيبهم وحكيمهم قوله : " يتروح العليل بنسيم أرضه كما تنبت الحبة ببل القطر " (٤) .

أما الهنود (٥) فقالوا : " حنين الرجل الى وطنه من علامات الرشد " وقالوا أيضا : " حرمة بلدك عليك مثل حرمة أبويك لأن غذاءك منهما وغذاءهما منه " (٦) .

---

(١) سورة التوبة ، الآية ٢٤ .
(٢) السخاوى ، المقاصد الحسنة : ١٨٣ .
(٣) الراغب الأصفهانى ، محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء : ٤/ ٦٢٠ .
(٤) رسائل الجاحظ : ٢/ ٣٨٧ .
(٥) العسكرى ، ديوان المعانى : ٢/ ١٨٧ .
(٦) رسائل الجاحظ : ٢/ ٣٨٥ .

ويروى أن سابور ملك الفرس أسر في إحدى معاركه ببلاد الروم واعتل هناك فقالت له بنت الملك ـ وقد عشقته ـ ماتشتهي ؟ فقال : شربة من ماء دجلة وشمة من تراب اصطخر ، فحملا اليه فبرأ . (١)

وبغض النظر عن صحة هذه الرواية أو عدمها الا أنها تدل على مايكنه ذلك الملك لوطنه من عظيم الحب والتقدير ، فهو لم يطلب أهلا ولا مالا وانما شربة من ماء وحفنة تراب من ثرى وطنه ليشمه ، فيشعر بارتباطه القوي بهذا التراب الذي التصق به زمنا ، وكان مهدا لتطوراته النفسية والفكرية .

وهذا الأسكندر المقدوني الذي جال في البلدان وخرّب الأقاليم ، وأباد الخلق ، مرض بحضرة بابل فلما أشفى على الموت أوصى وزراءه وحكماءه أن يحملوا جثته في تابوت من ذهب الى بلده ليترمل بتراب وطنه . (٢) وهكذا لو استمررنا في استقصاء الأمم القديمة لوجدنا نماذج رائعة لحب الوطن ومكانته في نفوس أبنائه ، ولكن المجال لا يتسع لذلك .

أما العرب فهم أمة شاعرة تميزت برهافة الحس وتدفق العاطفة ، كما عرف عنهم الحب الشديد للوطن والشوق والحنين اليه في حالات البعد والفراق ولا أدل على ذلك من افتتاحهم لقصائدهم بذكر الديار الغابرة التي قطنوها في يوم من الأيام .

فالشاعر الذي يضطر الى ترك وطنه والخروج عن داره ، تزدحم في نفسه أمواج الشوق والحنين والحزن ، ولكنه لا يسكبها دمعا كغيره ، وإنما يترجمها الى عمل فني صادق ينبع من قرارة وجدانه فتحس حرارته حين تسمعه أو حين تقرؤه ولو بعد مئات السنين .

---

(١) الأصفهاني ، المصدر السابق : ٤/ ١٢١ . وسابور هو التاسع من ملوك الفرس الساسانية . انظر : الطبري : ٢/ ٦٢ .

(٢) رسائل الجاحظ : ٢/ ٤٠٤ .

انظر الى قول الأعرابي يحن الى وطنه منعج :(١)

ألم تعلمي يادار ملحاء أنـــه * اذا أجدبت أو كان خصبا جنابهـا .

أحب بلاد الله مابين منعـــج * الىّ وسلمى أن يصوب سحابهـا .

بلاد بها حل الشباب تميمـتي * وأول أرض مسّ جلـدي ترابهـا .

وهذا الحب للوطن الأول ، الذي كان مهدا لذكريات الطفولة والشباب صاغه أبو تمام :(٢)

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى * ما الحب الا للحبيـب الأول .

كم منزل في الأرض يعشقه الفتى * وحنينـه أبـدا لأول مـنزل .

ولعل قائلا يقول : كيف نمت عاطفة الحنين الى الأوطان ، واشتدت في البادية العربية مع أنه لم يكن هناك للقبائل العربية مايمكن أن نطلق عليه وطنا بمعنى السكن والاقامة الدائمة ؟ فالعرب ـ كما هو معلوم ـ كانوا رحّلا ينتجعون مناطق عديدة سعيا وراء الماء والكلأ . ولكنهم كانوا يقطنون في بعض المواضع حقبة من الزمن فيكون هذا المكان هو وطنهم ، ثم يضطرون الى تركه ، وقد خلفوا فيه ذكريات خالدة وأياما جميلة ، تثير في أنفسهم الحنين اليه كلما مروا به ، وخاصة عندما تطمس الآثار التي عهدوها فيه وتصبح رسوما وأطلالا ومن هنا جاءت سنة الوقوف بالأطلال وبكاء الرسوم ، والدعاء لها بالسقيا التي استمرت منهجا للشعر العربي قرونا طوالا .

وقد أشار الى هذا ابن رشيق بقوله عن العرب :(٣) " وكانوا أصحاب خيام ينتقلون من موضع الى آخر ، فلذلك أول ماتبدأ أشعارهم بذكر الديار ، فتلك ديارهم .

---

(١) ياقوت الحموي ، معجم البلدان : مادة (منعج) ومنعج واد لبني أسد ، ومن أيام العرب يسمى يوم منعج وهو لبني يربوع بن حنظلة بن تميم على كلاب .

(٢) ديوانه : ١٥٧/٣ .

(٣) العمدة : ١٨٨/١ .

"كما أشار اليه ـ أيضا ـ الدكتور شوقي ضيف بقوله (١) :

" ومابكاء الديار والأطلال الا الصورة الثابتة لهذا الحنين الذى نما معهم (أى العرب) على مرّ الزمن واختلاف المنازل والأمكنة . "

واذا كان الشاعر البدوى يحن الى أطلاله ورسومه فان الشاعر الحضرى أشد حنينا لكونه ألف واستقر وعرف قيمة الوطن . فلدينا شعراء من أهل الحضر ـ فى العصر الجاهلى ـ لهم شعر رقيق فى الحنين لأوطانهم التى أرغموا على مغادرتها . يقول عمرو بن الحارث بن مضاض الأصغر فى الحنين الى مكة (٢) :

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا * أنيس ولم يسمر بمكة سامر .

ولم يتربع واسطا فجنوبه * الى السر من وادى الأراكة حاضر .

بلى نحن كنا أهلها فأبادنا * صروف الليالى والجدود العواثر .

وكنا ولاة البيت من بعد نابت * نطوف بباب البيت والخير ظاهر .

فان تنثنى الدنيا علينا بحالها * فان لها حالا وفيها التشاجر .

فأخرجنا منها المليك بقدرة * كذلك ياللناس تجرى المقادر .

الى أن يقول : فساحت دموع العين تبكى لبلدة * بها حرم آمن وفيها المشاعر .

وتظهر لوعة الشاعر وحنينه الى أيامه السابقة التى أمضاها فى ربوع وطنه من خلال استرجاعه لسجل حياته الماضية ، ومقارنته بما آل اليه الآن من الغربة والتشرد . فبينما كان فى وطنه من السادة المجاورين لبيت الله بمكة اذا به فى دار غربة جائعا يتهدده العدو فحق له أن تسح دموعه ، ويخفق قلبه عند الذكرى .

---

(١) دراسات فى الشعر العربى المعاصر : ٢٦٣ .

(٢) محمد ابراهيم حوّر ، الحنين الى الوطن فى الأدب العربى : ١٤٦ .

ثم يأتي الاسلام فيؤكد هذه العاطفة ، ويجعل حب الوطن من الايمان ، كما يجعل الدفاع عنه فرض عين على المسلم في بعض الأحوال .

ولقد كان المسلمون يحملون في قلوبهم حبا عظيما لوطنهم الأول مكة ، على الرغم مما نالهم فيها من العذاب بأيدي المشركين فمجرد أن هاجروا منها ووصلوا الى المدينة ، حتى بلغ منهم الشوق كل مبلغ . فعن عائشة رضي الله عنها ـ قالت : (1) (لما قدم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ المدينة وعك أبو بكر وبلال ، فدخلت عليهما فقلت : ياأبت كيف تجدك ؟ ويابلال كيف تجدك ؟ قالت : فكان أبو بكر اذا أخذته الحمى يقول :

كل امرئ مصبح في أهله * والموت أدنى من شراك نعله .

وكان بلال اذا أقلعت عنه الحمى يرفع عقيرته ويقول :

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة * بواد وحولي إذْخِرٌ وجليل (٢)

وهل أردن يوما مياه مجنة * وهل يبدون لي شامة وطفيل (٣)

قالت عائشة ، فجئت رسول الله فأخبرته فقال : اللهم حبب الينا المدينة كحبنا مكة أو أشد وصححها ، وبارك لنا في صاعها ومدّها ، وانقل حماها فاجعلها في الجحفة) .

فمن هذين البيتين نلاحظ مدى حب الوطن والارتباط به مهما نال الانسان فيه من العنت فبلال رضي الله عنه ـ تكون أمنيته الأخيرة أن يبيت ليلة في بطاح مكة ليشم رائحة اذخرها الذكيه ، ويشاهد معالمها الخالدة . والرسول عليه الصلاة والسلام ـ كان لا يقل عن أصحابه حنينا الى مكة ولولا أن أهلها

---

(١) صحيح البخاري : ٥/ ٨٤ ، ابن كثير ، البداية والنهاية : ٣/ ٢٢١ .

(٢) الاذخر حشيشة طيبة الرائحة ، الجليل : نبات قصير لا يطول . انظر : ابن الأثير ، النهاية في غريب الحديث : ١/ ٣٣ .

(٣) مجنة : موضع بأسفل مكة ، شامة وطفيل : جبلان . انظر معجم البلدان ، المواد ، (مجنة) (شامة) ، (طفيل) .

أخرجوه منها ماخرج ، وفي الحديث : (وفد أصيل الغفاري[1] على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قبل أن يضرب الحجاب ، فقالت له عائشة : كيف تركت مكة ؟ قال : تركتها وقد أخضرت جنباتها ، وأبيضت بطحاؤها ، وأعذق اذخرها ، وانتشر سلمها ، فقال النبي ويها يا أصيل دع القلوب تقر .) وفي رواية أخرى أنه قال : حسبك يا أصيل لا تحزني .

واذا ماانتقلنا الى حنين الشعراء نجد أنه يتخذ طابعا مميزا من حيث رهافة الشعور ودقة الاحساس ، فالشاعر عندما يعصف به الشوق يدفعه الى تصوير ذلك الوطن بصورة تجعل منه جنة تحوي جميع الخيرات ومعاني الجمال ، فتربته مسك وكافور وماؤه شهد أو خمر الى غير ذلك مما يجعله يتمنى أن يستنشق هواءه ، ويشرب ماءه ويكتحل بترابه . يقول الشاعر نبهان العبشمي[2] :

يقر بعيني أن أرى من مكانه * ذرى عقدات[3] الأبرق المتقاود .
وأن أرد الماء الذي شربت به * سليمى وقد ملّ السرى كل واخد[4] .
وألصق أحشائي ببرد ترابها * وان كان مخلوطا بسم الأساود .

فقرة عين هذا الشاعر أن يلصق أحشاءه بتراب وطنه ليشفي غلته بذلك الاحتضان ولو كان فيه الهلاك .

وهذا الشاعر أبو قطيفة[5] الأموي كان يعيش في المدينة المنورة ، متقلبا

---

(١) العجلوني ، كشف الخفا ومزيل الألباس : ١/٤١٤ .

(٢) المبرد ، الكامل : ٣١ .

(٣) العقد : المتراكم من الرمل ، اللسان (عقد) ، المتقاود : المستطيل على وجه الأرض . المصدر نفسه (قود) .

(٤) الوخد سرعة السير للابل / انظر ، القالي ، الأمالي : ١/٦٣ .

(٥) هو عمرو بن الوليد بن عقبة بن أبي معيط القرشي ، شاعر رقيق الشعر جليّ المعاني عاش في المدينة ، ومات قريبا من سنة سبعين للهجرة / الأغاني : ١/٩ ومابعدها . ابن قتيبة : عيون الأخبار : ١/٢٣٠ .

فى نعمائها ثم يأمر ابن الزبير بنفيه الى الشام مع من نفى عندما أعلن الخروج على بنى أمية ، وخلع طاعة يزيد بن معاوية ، فشق الأمر على الشاعر ومزقه الشوق ، فقال فى ذلك عدة مقطوعات تذوب رقة وصبابة ، كانت احداها من المائه صوت التى أختارها صاحب الأغانى وذلك قوله :

(١)
القصر والنخل فالجماء بينهما * أشهى الى القلب من أبواب جيرون .

ومما قاله فى الحنين الى المدينة :

(٢)
ألا ليت شعرى هل تغير بعدنا * جبوب المصلى أم كعهدى القرائن ؟
(٣)
وهل أدؤر حول البلاط عوامر * من الحى أم هل بالمدينة ساكن ؟
اذا برقت نحو الحجاز سحابة * دعا الشوق منى برقها المتيامن .
فلم أتركها رغبة عن بلادها * ولكنه ماقدر الله كائن .
أحن الى تلك الوجوه صبابة * كأنى أسير فى السلاسل راهن .

وله أيضا :

ألا ليت شعرى هل تغير بعدنا * قباء وهل زال العقيق وحاضره ؟
وهل برحت بطحاء قبر محمد * أراهط غرّ من قريش تباكره ؟
لهم منتهى حبى وصفو مودتى * ومحض الهوى منى وللناس سائره .

ان هذه الأبيات تصدر عن عاطفة شفها الوجد ، ونفس أضناها الحنين فالشاعر كلما طال مقامه فى الشام زاد اشتياقه للمدينة ، فتراه يسبح فى

---

(١) الأغانى : ٨/١ ، القصر والنخل : مواضع بالمدينة لسعيد بن العاص واليها من قبل معاوية ، جيرون : من أبواب دمشق / معجم البلدان (جيرون) .

(٢) القرائن : دور متلاصقة لسعيد بن العاص ، سميت بالقرائن لا قترانها معجم البلدان : (القرائن) .

(٣) البلاط : موضع بالمدينة مبلّط بالحجارة بين المسجد النبوى وسوق المدينة / معجم البلدان "بلاط" .

شبه أحلام يقظة يناجي نفسه ويسائلها عن تلك المعالم التي كان يرتادها كقباء والعقيق والقرائن وغيرها ، وعن تلك الرفقة القرشية التي منحها خلاصة حبه ، هل هم كما كانوا أم تغير كل شيء بعده . ان البرق الخافق من صوب الحجاز يثير شجنه ويحرك فؤاده ، فيئن أنين الأسير من القيود والسلاسل .

ويقول أيضا :

(١)

ليت شعري وأين مني ليت * أطل المهدين يلبن فبرام ؟

أم كعهدي العقيق أم غيرته * بعدي الحادثات والأيام ؟

وبأهلي بدلت عكا ولخما * وجذاما ، وأين مني جذام ؟

وتبدلت من مساكن قومي * والقصور التي بها الآطام .

(٢)

كل قصر مشيد ذي أواس * يتغنى على ذراه الحمام .

اقر مني السلام ان جئت قومي * وقليل لهم لدي السلام .

ان الشاعر يعيش حالة من الاضطراب والقلق النفسي ، فكل شيء يألفه قد ذهب ، فيبدل بأهله أقواما لاعهد له بصحبتهم من قبائل عك وجذام أنصار معاوية من أهل الشام ومساكنه بدل قصورا شامخة ، ولكنه يحاول أن ينسى هذا الواقع ويتجه بمشاعره نحو مغانيه الأولى جبال المدينة ووديانها ، وكأني بالشاعر قد يئس من العودة اليها ثانية ، ولهذا فهو يفتتح جميع مقطوعاته التي مرت بنا بالتمني المشرب باليأس (ليت شعري) ، ثم نراه يرسل بسلامة من بعيد كوداع أخير لا لقاء بعده .

---

(١) يلبن : جبل أو غدير قرب المدينة / معجم البلدان (يلبن)
برام : جبل في ديار بني سليم عند الحرة من ناحية البقيع / المصدر نفسه (برام) .

(٢) أواس : جمع آسية وهي الأساس أو الأصل . انظر : ابن واصل : تجريد الأغاني : ١/ ٢٢ .

ويروى أن ابن الزبير عندما سمع هذه الأبيات قال (١) : " حن والله أبو قطيفة ، وعليه السلام ورحمة الله ، من لقيه فليخبره أنه آمن فليرجع . " وماكاد الخبر يطرق سمع شاعرنا حتى أغذ السير من فوره الى المدينة ليطفئ جمرة وجده ، ولكنه توفى قبل أن يصل اليها .

وهذا الامام الشافعى ـ رحمه الله ـ يحن الى مسقط رأسه مدينة غزة " على الرغم من أنه غادرها صغيرا ، وجال فى أقطار كثيرة وأصبح علما من أعلام الفقه الاسلامى ، ومع ذلك بقى حبه لوطنه الأول مشتعلا لا يستطيع كتمانه . يقول (٢) :

وانى لمشتاق الى أرض غزة * وان خاننى بعد التفرق كتمانى .

سقى الله أرضا لو ظفرت بتربها * كحلت به من شدة الشوق أجفانى .

ويقول ابن الرومى (٣) :

ولى وطن آليت أن لا أبيعه * وأن لا أرى غيرى له الدهر مالكا .

فقد ألفته النفس حتى كأنه * لها جسد ان بان غودرت هالكا .

وحبب أوطان الرجال اليهم * مآرب قضاها الشباب هنالكا .

اذا ذكروا أوطانهم ذكرتهم * عهود الصبا فيها فحنّوا لذلكا .

فهذه صورة جميلة لتعلق الشاعر بوطنه ، فهو ينظر اليه على أنه جسد يحتضن روحه ، فالعلاقة علاقة عطف وامتزاج لا يمكن معه الانفكاك ، وكيف لا ، والوطن سجل لحياة الشاعر منذ بدايتها ، ينظر فى مغانيه فيذكره عهود الصبا ومآرب الشباب .

---

(١) الأغانى : ١/ ٣٠ .

(٢) معجم البلدان / (غزة) ، وغزة مدينة بفلسطين المحتلة تقع على البحر المتوسط ، تشتهر بخصبها وكثرة مزارعها ، وفيها قبر هاشم بن عبد مناف / الحميرى ، الروض المعطار / (غزه) .

(٣) أسامة بن منقذ ، المنازل والديار : ٢/ ٧ .

أما ابن أبي الجنوب (١) فيقول في حنينه الى نجد وقد كان ببغداد (٢) :

سقى الله نجدا والسلام على نجد ويا حبذا نجد على النأى والبعد

نظرت الى نجد وبغداد دونها لعلى أرى نجدا وهيهات من نجد

ونجد بها قوم هواهم زيارتي ولا شئ أحلى من زيارتهم عندى

والأبيات ـ كما هو ملاحظ ـ طافحة بالشوق العارم ، فالشاعر يكرر اسم وطنه (نجد) في كل بيت مرة أو مرتين في وله يشبه هذيان المحموم .

وربما رحل بعض أهل البادية الى الحضر وأقام ماشاء هناك ورأى البيئة الحضارية تختلف رقتها وتوفر متطلبات العيش الرغيد فيها عن خشونة البادية وشظف عيشها ، ولكن لا يستهويه ذلك ولا ينسيه منازله في البادية فيقول (٣) :ـ

لعمرى لنور الأقحوان بحائل * ونور الخزامى في ألاء وعرفج .

أحب الينا يا حميد بن مالك * من الورد والخيرى ودهن البنفسج .

وأكل يرابيع وضب وأرنب * أحب الينا من سمانى ودرج .

ونص القلاص الصهب تدمى أنوفها * يجبن بنا مابين قوّ ومنعج .

أحب الينا من سفين بدجلة * ودرب متى مايظلم الليل يرتج .

---

(١) هو أبو السمط مروان بن يحيى بن مروان بن أبي حفصة ، ويعرف بمروان الأصغر تمييزا له عن جده الشاعر المشهور . كان أبو السمط ينادم الخليفة المتوكل ويتقرب اليه بالطعن على العلويين ، ويقال أن جده كان يهوديا وأسلم على يد عثمان رضي الله عنه ـ وهو من الشعراء المشاهير الذين مدحوا عددا من الخلفاء العباسيين ، توفي سنة ٢٤٠ هـ .

انظر : / ابن قتيبه ، ٢/٧٦٣ ، طبقات ابن المعتز : ٣٩٢ .

(٢) الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك : ١١/ ٦٨ .

(٣) معجم البلدان : (قو) ، وقو ، ومنعج أسماء أماكن بين اليمامة وهجر .

فالعيش مهما طابت لذاذاته ، وتقلب الانسان فيه كيف ماشاء في غير وطنه لا بد أن يتذكر أنه في غريب الدار بعيد عن الأحباب فيأخذه الحنين والشوق ورحم الله شوقي حين قال : (١)

وطني لو شغلت بالخلد عنـــه * نازعتني اليه في الخلد نفســي

فانظر الى هذه الوطنية الصادقة ، والحب الكبير للوطن الذي يصدر من قلب شاعر بعيد عن وطنه في المنفى ، ولكن البعد لا ينسى بل يزيد العاطفة اشتعالا حتى انه لو كان في جنان الخلد - التي هي أعز أمل ومطلب - لاشتاقت نفسه الى تراب وطنه .

وهذا عبد الرحمن الداخل - صقر قريش - الذي فر من أعدائه العباسيين وحيدا طريدا ثم عبر البحر الى الأندلس واستطاع بدهائه وحسن سياسته أن يجند الأجناد ويمصر الأمصار ويقيم دولة ذات حضارة عظيمة تضاهي حضارة المشرق ان لم تفقها ، رأى يوما نخلة فريدة في منية الرصافة بقرطبة أول نزوله بها أميرا ، فهاجت شجنه وتذكر بلده في المشرق فنفث بهذه الأبيات : - (٢)

تبدت لنا وسط الرصافة نخلــة * تناءت بأرض الغرب عن وطن النخل

فقلت : شبيهي في التغرب والنوى وطول التنائي عن بني وعن أهلي

نشأت بأرض أنت فيها غريبــة * فمثلك في الاقصاء والمنتأى مثلي

سقتك غوادي المزن من صوبها الذي يسح ويستمري السماكين بالوبل

فالأمير الداخل رغم عزه ومجده وتربعه على كرسي الملك بالأندلس أهاجت وجده نخلة لأنه رأى فيها مايشبه حالته لأن الأندلس ليس ببلاد

---

(١) انظر الشوقيات : ٢/ ٤٦ .

(٢) ابن الأبار ، الحلة السيراء : ١/ ٣٧ ، وأنظر أخبار الداخل في : ابن عذارى ، البيان المغرب : ٢/ ٤٠ .

نخل لذلك نراه يحنو عليها ويدعو لها بالسقيا ، وهكذا الشاعر ذو العاطفة الرقيقة يحس بتفاعله مع أجزاء الكون ويصبغ عليها صفات الأحياء لأنه يحس أنها تشاركه حزنه وحنينه ، فاذا طلعت الشمس ـ مثلا ـ أعتبرها تحية أزجاها وطنه البعيد اليه ، واذا هبت الريح نقلت اليه أخبار بلده وأهله واذا لمع البرق وخفق خفق قلبه لأنه يشعر بأن البرق اشارة من وطنه تدعوه للعودة .

وهكذا كان حال الشاعر أبى عبد الله التلمسانى[1] الذى فارق وطنه تلمسان فى بلاد المغرب الى غرناطة فى الأندلس يقول :ـ

سل الريح ان لم تسعد السفن أنواء * فعند صباها من تلمسان أنباء .

وفى خفقان البرق منها اشارة * اليك بما تنمى اليها وايماء .

تمر الليالى ليلة بعد ليلة * وللأذن اصغاء وللعين اكلاء[2] .

وأهدى اليها كل يوم تحية * وفى رد اهداء التحية اهداء .

وأستجلب النوم الغرار ومضجعى * قتاد كما شاءت نواها وسلاء[3] .

لعل خيالا من لدنها يمر بى * ففى مرّه بى من جوى الشوق ابراء .

وانى لمشتاق اليها ومنبىء * ببعض اشتياقى لو تمكن انباء .

---

(١) هو محمد بن عمر بن خميس التلمسانى الحجرى . كان يسبح وحده زهدا وانقباضا وأدبا ، عالما بالمعارف القديمة طبقة الوقت في الشعر وأقدر الناس على اجتلاب الغريب . كان كاتبا لبنى زيان ملوك تلمسان ثم قعد لاقراء العربية بحضرة غرناطة وكان كثير التجوال ، توفى قتيلا بغرناطة سنة ٧٠٨ هـ . أنظر : ابن الخطيب : الاحاطة فى أخبار غرناطة : ٥٢٨/٢ ، المقرى : نفح الطيب : ٣٦٢/٥ ، درة الحجال : ٢٧/٢ ، الدرر الكامنة : ١١٣/٤ .

(٢) الاكلاء : ترديد البصر

(٣) السلاء : الشوك / انظر لسان العرب ، مادة (كلأ) ، ومادة (سلأ) .

ان الشاعر قد برّح به الشوق وكأنى به قد يئس من رؤية بلده ثانية فلجأ الى طريقه أخرى هى استجلاب النوم أو التناوم ولو فى ذلك المضجع المقلق الذى كأن مهاده الشوك . يفعل هذا لعل طيف بلاده يمر به فى هذه السنه فيخفف مرآة مابه من جوى الشوق وشدة الوجد . ولعل هذه الصورة البديعة تذكر ببيت مجنون ليلى : -

وانى لأستغشى ومابى نعسة * لعل خيالا منك يلقى خياليا .[1]

ولعله من الجدير بالذكر هنا القول بأن حنين الأندلسيين جاء قويا وصادقا ومتميزا . ولا أريد أن أقارن بينهم وبين المشارقة فى هذا المقام لان لكل عاطفته ومؤثراته النفسية والبيئيه . والذى يبدو أن الذى عمّق احساسهم بالحنين والشوق هو كثرة رحيلهم وتجوالهم داخل الأندلس نفسها أو خارجها الى بلاد بعيدة وراء الرزق والعيش الأفضل ، ولربما لمجرد الرحلة والاستجمام ، فهم فى حنين دائم الى حياة جميلة فارقوها ولذات متعددة عاشوها ، وقوم يهفو القلب ويتوق لمجالسهم والحديث معهم ، وأهم من ذلك طبيعة الأندلس الجميلة التى تأسر القلوب ، فهى كما قال الشاعر :-[2]

أنهارها فضة والمسك تربتها * والخز روضتها ، والدّرر حصباء .

وللهواء بها لطف يرق به * من لا يرق وتبدو منه أهواء .

ليس النسيم الذى يهفو بها سحرا * ولا انتشار لآلى الطلّ أنداء .

وانما أرج النّد استثار بها * فى ماء ورد فطابت منه أرجاء .

وأين يبلغ منها ما أصفه * وكيف يحوى الذى حازته احصاء .

قد ميزت من وجهات الأرض حين بدت * فريدة وتولى ميزها الماء .

دارت عليها نطاقا أبحر خفقت * وجدا بها اذ تبدت وهى حسناء .

---

(١) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء : ٢/ ٥٧٣ .

(٢) الأبيات فى النفح : ١/ ٢١٠ . والشاعر هو ابن سفر المرينى ولم أعثر له على ترجمه .

لذاك يبسم فيها الزهر من طرب * والطير يشدو والأغصان اصغاء .

فيها خلعت عذاري مابها عوض * فهي الرياض وكل الأرض صحراء .

فهي اذن جنة الدنيا حتى ان الهواء بها له تأثير على طبائع البشر فيجعل من قسى قلبه يرق وتبدو صابته فماذا يستطيع الشاعر المتيم بحبها اذن أن يحصى من مناقبها التى فاقت كل حصر ووصف ، انه لا يملك الا أن يفضلها على جميع بقاع الدنيا ولا يرضى عنها بديلا أبدا وكيف يستبدل بالجنات القفار والصحارى ؟ .

والملاحظ على شعر الأندلسيين أنهم يذكرون محاسن الأندلس كبلد واحد وليس على شكل مدن وأمصار وهناك وصف آخر لجمال الأندلس وروعتها لشاعر الوصف المشهور فى الأندلس ابن خفاجه (١) حيث يقول :ـ

ان للجنة بالأندلس * مجتلى مرأى وريا نفس

فسنا صبحتها من شنب * ودجى ظلمتها من لعس

فاذا ماهبت الريح صبا * صحت وأشواقى الى الأندلس

وهذا المعتمد بن عباد أشهر ملوك الطوائف بالأندلس كان عاملا على مدينة شلب (٢) أيام حكم أبيه المعتضد وهى مدينة جميلة فسيحة على مرمى البصر

---

(١) النفح : ١/ ١٧٠ ، ١١٠ ، شكيب أرسلان ، الحلل السندسيه : ١/ ٢٤٣ .

(٢) شلب : مدينة أندلسيه تقع جنوب مدينة باجه لها بسائط فسيحة وبطائح عريضة ولها جبل عظيم كثير المياه أكثر نباته شجر التفاح العجيب . يتضوع منه روائح العود اذا أحرق ، والبحر منها فى الغرب على بعد ثلاثة أميال وهى مدينة حسنة الهيئة بديعة البناء مرتبة الأسواق وأهلها عرب من اليمن وهم فصحاء يقولون الشعر ، انظر : الروض المعطار ومعجم البلدان : (شلب) .

من المحيط الأطلنطى وكان قصر الشراجيب (١) من معالمها وكانت للمعتمد فيها خلوات ولهوات فهى مهد شبابه وملتقى أحبابه ؛ ولما تولى الملك بعد أبيه عام واحد وستين وأربعمائة اختص بها أحب شعرائه اليه آنذاك أبا بكر بن عمار عاملا عليها متفقدا لأحوالها فلما ودّ عه أهاجته الذكرى وظبه الشوق فأرسل التحية الى شلب مع واليها الجديد (٢) يقول :

ألا حي أوطانى بشلب أبا بكـر * وسلهن : هل عهد الوصال كما أدرى ؟
وسلم على قصر الشراجيب من فتى * له أبدا شوق الى ذلك القصر .
منازل آساد وبيض نواعـم * فناهيك من غيل وناهيك من خدر .
ليال بسد النهر لهوا قطعتها * بذات سوار مثل منعطف البدر .

فرغم أن المعتمد أصبح ملك اشبيلية التى هى أجل المدن الأندلسيه وأهمها فانه لم ينس المدينه التى جرت فيها أفراس صباه وماخلف فيها من ذكريات جادة ولاهيه فبعث اليها أحب الرجال اليه حبا لها ووفاء بعهدها .

ومايثير العجب حقا من مقدار مايبلغ الشوق والحنين بالانسان ذى الشعور الشفاف ، مايرويه ابن بشكوال عن الشيخ أبى بكر بن سعاده أنه دخل مدينة طليطله مع أخيه على الشيخ الأستاذ أبى بكر المخزومى قال : فسألنا من آين فقلنا : من قرطبه ، فقال : متى عهدكما بها ؟ فقلنا : الآن وصلنا

---

(١) يقول فيه الفتح بن خاقان : وقصر الشراجيب هذا متناه فى البهاء والاشراق مباه لزوراء العراق ركضت فيه جياد راحاته وأومضت بروق أمانيه فى ساحاته .... الخ قلائد العقيان : ٣٦ .

(٢) عنان ، تراجم اسلامية : ٢٨٣ ، الطاهر أحمد مكى ، دراسات أندلسية : ٢٣٢ - ٢٣٣ ، بلنثيا ، تاريخ الفكر الأندلسى : ٩٠ .

منها ، فقال : قربا الى أشم نسيم قرطابه ، فقربنا منه ، فشم رأسى وقبّلـــه ، وقال لى اكتب :- (١)

أقرطبة الغراء هل لى آيبــــة * اليك وهل يدنو لنا ذلك العهد .

سقى الجانب الغربى منك غمامة * وقعقع فى ساحات دوحاتك الرعد .

ليالیك أسحار وأرضك روضـــة * وتربك فى استنشاقها عنبر ورد .

ومن شاقه الحنين الى قرطبة أيضا أبو الوليد ابن زيدون فقد نشأ لهـــا محبا لما ناله فيها من سعادة ومكانة فقد كان وزيرا لأبى الحزم ابن جهـــور فعاش فى رغد وخفض وقد كان على علاقة حب وغرام مع ولادة بنت المستكفـــى الأدبية المشهورة فى تاريخ الأندلس ، وكانت هذه الحبيبة مصدر الهامـــه الشعرى مما جعله ينفث بغرر القصائد ، ولكن سرعان ما قلب الدهر له ظهـــر المجن بدسائس الوشاه فاتهم بتآمره على أميره مما أضطره الى الهـروب الـــى اشبيلية ، وفى الطريق صادق حلول عيد الأضحى "فثاربه الوجد بين كـــنان يألفه والغرام ، وترائت لعينيه تلك الظباء الاوانس والآرام " ، فذكر أعيـاده بها ومتقلب نزهاته ، فمضى يسترجعها مهبطا وراء آخر قائلا : (٢)

خليلى لا فطر يسرّ ولا أضحـــى * فما حال من أمسى مشوقا كما أضحى .

لئن شاقنى شرق العقاب فلم أزل * أخص بمخصوص الهوى ذلك السفحـــا .

وما انفك جوفى الرصافة مشعـــرى * دواعى بث تعقب الأسف البرحـــا .

ويهتاج قصر الفارسي صبابــــة * لقلبى لا يألو زناد الآسى قدحــــا .

وأيام وصل بالعقيق اقتضيتـــه * فان لم يكن ميعاده العيد فالفصحا .

---

(١) المراكشى ، الذيل والتكمله : ١/١١٦ .

(٢) ابن بسام ، الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، القسم الأول ، ، الجزء الأول : ٤٢٣ .

معاهد لذات وأوطان صبـــوة * أجلت المعلى فى الآمانى بها قدحـا

الاهل الى الزهراء أوبة نــازح * تقضى تنائيها مدامعـــه نزحـــا

مقاصير ملك أشرقت جنباتهـــا * فخلنا العشايا الجون أثناءها صبحـا

محل ارتياح يذكر الخلد طيبه * اذا عزّ أن يصدى الفتى فيه أو يضحى

انها دمعة محزون ونفثة مصدور من نفس أرقها الشوق الى الوطن (قرطبه) ومايتبعها من أماكن كان له فيها أيام وصل وأيام عز أثناء تظبه فى مقاصـــير الملك ، ويتساءل فى شئ من الارتياب هل من الممكن أن تكون هناك أوبـــة الى ذلك البلد الذى يذكره بجنة الخلد ، حيث كان لا يظمأ فيها ولا يضحى .

ولعلنا نلاحظ فى هذا المجال نزعة الغلو عند الشعراء فكل منهـــــم يحاول أن يجعل من بلده أو وطنه مثلا أعلى للجمال والحسن ، فهـــــم يشبهونه بالجنة ، وترابه بالمسك والعنبر وأنهاره بالفضة وغير ذلك كمـــا أن الشاعر عند مقارنة وطنه بالبلاد الأخرى يجعل بلاده رياضا ونعيما بينمـــا البلاد الأخرى صحراء جرداء ، وهو فى هذا انما يصدر عن العاطفة المشبوبـــه المفعمه بحب الوطن ، وهذا موجود عند الأندلسيين والمشارقة الا أنه عنـــد الأندلسيين أقوى وأظهر .

انظر الى قول البهاء زهير (١) فى حبه لموطنه مصر (٢) :

---

(١) ولد سنة ٥٨١ هـ بمكة المكرمه ولكنه غادرها صبيا الى قوص حيث نشـــأ وتعلم على علمائها ومكث فترة فى خدمة أميرها ثم رحل الى القاهـــرة حيث التحق بخدمة الملك مسعود بن الكامل ثم بالصالح نجم الديـــن وتولى له ديوان الانشاء وكان يحب مصر حبا جما توفى ســــنة ٦٥٦ هـ . أنظر ديوانه : ١٨٨ .

(٢) المصدر نفسه ، محمد زغلول سلام ، الأدب فى العصر الأيوبى : ٣٥٢ .

وكم رأت عيني بلادا كثيرة * فلم أر فيها مايَسُرّ ومايرضى .

ولم أر مصرا مثل مصر تروقني * ولا مثل مافيها من العيش والخفض .

وبعد بلادى ، فالبلاد جميعها * سواء فلا أختار بعضا على بعض .

ويقول أيضا (١) :

سقى واديا بين العريش وبرقة * من الغيث هطال الشآبيب هتان

وحيا النسيم الرطب عنى اذا سرى * هنالك أوطانا اذا قيل أوطان

بلاد متى ماجئتها جئت جنة * لعينك منها كل ماشئت رضوان

تمثل لى الأشواق أن ترابها * وحصباءها مسك يفوح وعقبان

فياساكنى مصرا تراكم علمتم * بأنى مالى عنكم الدهر سلوان

ومافى فؤادى موضع لسواكم * ومن أين فيه وهو بالشوق ملآن

عسى الله يطوى شقة البعد بيننا * فتهدأ أحشاء وترقأ أجفان

علىّ بذاك اليوم صوم نذرته * وعندى على رأى التصوف شكران

ورغم الذى ذكره وتغنى به البهاء زهير من جمال مصر وتفضيله اياها على كثير من البلدان التى رآها ولم يجد فيها مايرضى ولا يسر فان ابن سعيد الأندلسى (٢) عندما رحل اليها ـ وكان قد سمع عنها الشئ الكثير ـ لم يجد فيها

---

(١) الديوان : ٣٤٦ .

(٢) هو على بن موسى بن عبد الملك بن سعيد ، صاحب كتاب " المغرب فى حلى المغرب " أديب ومؤرخ مشهور عرف بكثرة الترحال وسعة الأفق توفى سنة ٦٨٥ هـ .

انظر : المغرب : ٢/١٧٢ - ١٧٣ ، الاحاطة : ٢/٢٨٣ .

بغيته ولم ترقه فاشتاق الى الأندلس وأيامه بها فقال (١) :

هذه مصر ، فأين المغرب * مذ نأى عنى دموعى تسكب

فارقته النفس جهلا انما * يعرف الشئ اذا ماذهب

أين حمص (٢) ؟ أين أيامى بها * بعدها لم ألق شيئا يعجب

كم تقضى لى بها من لذة * حيث للنهر خرير مطرب

وحمام الأيك تشدو حولنا * والمثانى فى ذراها تصخب

أى عيش قد قطعناه بها * ذكره من كل نعمى أطيب

ولكم بالمرج لى من لذة * بعدها ما العيش عندى يعذب

والنواعير التى تذكارها * بالنوى عن مهجتى لا يسكب

بلدة طابت درب غافر * ليتنى مازلت فيها أذنب

أين حسن النيل من نهر بها * كل نغمات لديه تطرب

الى أن يقول :

هذه حالى وأما حالتى * فى ذرى مصر ففكر متعب

أسمعت أذنى محالا ليتها * لم تصدق ويحها من يكذب

وكذا الشئ اذا غاب انتهوا * فيه وصفا كى يميل الغيب

ها أنا فيها فريد مهمل * وكلامى ولسانى معرب

وأرى الألحاظ تنبو عندما * أكتب الطرس ، أفيه عقرب ؟

فابن سعيد فى هذه الأبيات يعرض لنا حياته السابقة فى الأندلس حيث الطبيعة الجذابة من مروج تشدو أطيارها وطاح تجرى أنهارها ، تلك الأنهار التى يطربه خريرها وشتان بينها وبين نيل مصر فهو لا يكاد يذكر اذا ماذكرت لجمالها ورقتها ، أما حالته فى مصر فيرثى لها فهو فيها مهمل لا يؤبه له

---

(١) بلنيثا ، تاريخ الفكر الأندلسى : ١٢٦ - ١٢٧ .
(٢) حمص : قصد بها اشبيلية ، لأنها كانت تسمى بذلك من أيام بنى أمية .

بالرغم كونه مزين الكلام واللسان فهو أديب شاعر وكاتب تاريخ مشهور ، وربما ظن أن ينال شهرة عريضة فى مصر ، ولكن لكونه غريبا لم يقبل عليه أحد أو يأخذ عنه ، حتى تمنى أنه لم يرحل عن بلده وان كانت ذنوبه تزداد كل يوم لأنه فى "بلدة طيبة ورب غفور" وهناك كاتب وشاعر أندلسى آخر مر بنفس التجربة حيث ارتحل الى الشرق فجال فى العراق وأقام فى حلب بالشام ، وذلك عندما نبت به بلده قرطبة عند تقلب دولها وتحول ملوكها ، وذلك فى عصر ملوك الطوائف فى القرن الخامس الهجرى والشاعر هو : أبو بكر محمد بن القاسم الملقب "اشكنهاده" (١) يقول :

أين أقصى الغرب من أرض حلب * أمل فى الغرب موصول التعب
حن من شوق الى أوطانه * من جفاه صبره لما اغترب
جال فى الأرض لحاجا حائرا * بين شوق وعناء ونصب
كل من يلقاه لا يعرفه * مستفيشا بين عجم وعرب
لهف نفسى أين هاتيك العلا * وأضياعاه وياغبن الحسب
والذى قد كان ذخرا وبه * أرتجى المال وادراك الرتب
صار لى أبخس ماأعددته * بين قوم مادروا طعم الأدب
ياأحبائى اسمعوا بعض الذى * يتلقاه الطريد المغترب
مايكن زجرا لكم عن غربة * يرجع الرأس لديها كالذنب

---

(١) من أهل وادى الحجارة يعرف باشكنهاده وهى تعنى بلسان أهل الأندلس "ماهذا" جال فى الشرق ثم رجع الى الأندلس وحل بحضرة دانيه عند ملكها مجاهد العامرى ونال من بلوغ الآمال ماليس عليه مزيد . انظر النفح : ٢/ ٢٩٨ ، تحقيق محى الدين عبد الحميد ، ابن سعيد ، المغرب فى حلى المغرب : ٢/ ٣١ ، الذخيرة : القسم الأول ، ج ١ ، ص ٢٣٠ .

ان القارئ لهذه الأبيات يشعر فعلا بالمراره التى كانت تطلق نفس الشاعر الغريب فهو يمشى فى الأرض مستوحشا حائرا فاقد الصبر من شدة الغربة وشدة الشوق الى الوطن فهو يعيش بين هاتين النارين ، وسبب ذلك أنه ضاع قدره فى هذا المجتمع الذى لا يعرفه وكسدت بضاعته من شعر ونثر تلك البضاعة التى جاء يعرضها فى الشرق ليكسب فيها الأموال وادراك الرتب لذا نراه يوجه نصيحة لأحبائه من الأندلسيين بأن لا يفكروا فى الغربة التى تضيع الحسب والكرامة وهذا كقول القائل : "عسرك فى دارك أعز لك من يسرك فى غربتك" (١) .

وقد يطرد بعض الناس من أوطانهم لسبب من الأسباب فيبتسم له الحظ ويجد راحة واكراما وأمنا ـ وخاصة اذا كان ملكا أو أميرا ـ ولكن هذه النعم التى يتقلب فيها لا يشعر بطعمها ، وهى لا تساوى عنده جلسة واحدة فى ذرى وطنه ومع أحبابه . وهذا ماحصل مع الأمير الغرناطى ابن الأحمر (٢) حين أخرجه بنو عمه من ملوك بنى الأحمر النصريين خوفا على سلطانهم منه "وذلك لأجل واش مردود ومتملق بذلك غير ودود ، يظهر لهم النصيحة حاليه ويخوفهم ماوقع فى الأيام الخاليه ...." فيخرج الى بر العدوة عند

---

(١) البيهقى ، المحاسن والمساوئ : ١/ ٤٩٠ .

(٢) هو اسماعيل بن يوسف بن محمد بن أبى سعيد المدعو بالأحمر ، ولد بغرناطة سنة ٧٢٥هـ ، وكان الفرع الذى ينتمى اليه هذا الأمير قد اضطرب بسبب الخلاف حول الملك فاصطدم اسماعيل بن فرج (خامس ملوك بنى الأحمر) بهذا المذكور ووالده وأخيه ففروا الى فاس بالمغرب انظر ترجمته : ابن القاضى المكناسى ، جذوة الاقتباس : ١/ ١٦٦ ، محمد بن مخلوف ، شجرة النور الذكية : ٢٣٨ ، ابن القاضى ، درة الحجال : ١/ ٢١٣ .

ملوك المغرب وقد أمطروا علينا سحائب كرمهم ، وحسنت الأحوال ، وذهبت الأهوال ، وطاب المقام ، ونجم الأمن واستقام ومع ذلك اشتاق الى وطنه (١) فقال :

فؤادي يشتكي داء دفينا * لبعدي عن مزار الظاعنينا
وأكبادي من الأشواق ذابت * ووجدي بعدهم ألف الشجونا
ورب البيت لا أنس هواهم * وكيف ؟ وهم بقلبي ساكنونا
لعمري ما النوى الا عذاب * وأني قد بليت به سنينا
يهيج زفرتي تذكار أرضي * ويفجعني ويستهفي الجنونا
حنيني ما حييت لها عظيم * وما بسوى محبتها بلينا
فما صبر وان بعدت بباق * كذا سنن الكرام الماجدينا
وما بمراد نفسي كان عنها * بعادي ، لا ورب العالمينا

وبعد هذا قال " فلولا أن هدر الملوك بنوعي بوطني دمي لسرت اليه على رأسي لا على قدمي " (٢) ، وبعد ، فمن خلال هذه الأمثلة التي قدمناها ـ وما هي الا قطرة من بحر شعر الحنين الى الأوطان ـ يتضح لنا مدى ما للوطن من عظيم حب في نفوس أبنائه ولا سيما الشعراء منهم فهم اللسان الناطق المعبر عن العاطفة الجياشة بالحب والحنين لتراب الوطن ، وقد يتغنى الشاعر بوصف بلاده ويمجدها أشد التمجيد ، الا أنه عندما يغترب عنها يزيد حبها بشدة في نفسه وتستهويه مغانيها ويبدأ بتذكر أيام الشباب والطفولة السعيدة فتثور نفسه وتشرئب فتجود قريحته عندئذ بقصائد في منتهى الرقة والجمال تقطر بالأسى وصدق العاطفة بعيدة عن التكلف وتعمد الزخرفة

---

(١) اسماعيل ابن الأحمر ، نثير الجمان في شعر من نظمني واياه الزمان : ٢٥ .

(٢) المصدر نفسه : ٢٦ .

اللفظية والمحسنات المعنوية لأن المجال لا يسمح بذلك فالشاعر في حالـــة أشواق ثائرة وحنين مطلق وهو يحاول أن ينفس عما يجده عن طريق الشعـــر ، كما ينفس المحزون عن نفسه بالبكاء والسرور عن فرحه بالضحك ... وهكذا .

واذا كان الشاعر يفعل هذا اذا كان في غربة قد تطول مدتها وقـــد تقصر فيعود الى وطنه وتهدأ نفسه وتطمئن ، فما بالك بالشاعر ذى العاطفة الرقيقة الذى يكون شاهدا على نكبة بلده واحتلالها من قبل الأعـــداء وتدمير حضارتها ، وآمال أهلها . لاشك أن النكبة ستملك عليه نفســـه وجوانحه وتؤثر عليه سلبا وايجابا فينطلق بقصائد أقوى عاطفة وتأثيرا فـــى السامعين من شعر الحنين . وهذا مانراه في الفصول التاليه ان شـــاء الله تعالـــى ....

البـــــاب الأول

رشـا الدول والأمصار في المشرق

الفصـــل الأول

رثاء الدول والأمصار فى العصر الجاهلــى

الرثاء فن من الفنون الشعرية الجميلة ، يجمع بين روعة الخيال وعمــــق العاطفة وحرارة المشاعر ممزوجة بجلال الحقيقة وصدق الواقع . فالشاعــــر المبدع عندما يعيش تجربة الحزن والأسى ، تتحول دموعه ولوعته الى صـــــور بيانية ذات روعة شجية تنطبع فى نفس السامع أو القارئ تاركة أثرا عميقا .

ولعل صدق المشاعر هذا ، وانتفاء أى غرض أو منفعة من وراء القصيــــدة هو الذى جعل الرثاء أشرف أغراض الشعر عند العرب .

واذا كان رثاء الأشخاص بشكل عام يحتل هذه المنزلة الرفيعة ـ لأنـــــه هو الغالب ـ فما بالك برثاء أعظم وأشمل ، ذلك هو رثاء الدول والأوطــــان التى عاشت حينا من الدهر وازدهرت ، ونعم أهلها فى ظلالها ، ثـــــم طرقتها يد الحدثان ، فأودت بها بشكل أو بآخر .

لا شك أن العواطف ستتدفق وتنتج شعرا فياضا بالأسف والحزن يعــــبر عن مشاعر الجماهير المصابة وينطق بلسانها . فهل كان فى العصر الجاهلى الذى لم يعرف العرب فيه الاستقرار فى الحواضر شيئا من هذا الشعر ؟ هذا ماسنعرفه فى هذا الفصل ان شاء الله .

ان أول نص نجده فى العهد الجاهلى هو قصيدة لشاعر يعرف بذى جدن (١)

---

(١) لم أجد له ترجمة تفصيلية ، ولكن السهيلى يذكر أنه لقب بذى جـــدن لحسن صوته ، والجدن الصوت بلغتهم ، وهو أول من غنّى فى اليمــن انظر : الروض الأنف : ١/٢٢٨ .

الحميري يرثي فيها دولة قومه الحميريين في اليمن والتي دمرت على يد الأحباش وهدّمت حصونها وقصورها التي لم يكن في الناس مثلها كغمدان وسلحين وغيرها[1] يقول :

هونك ليس يردّ الدمع مافاتا * لا تهلكي أسفا في ذكر من ماتا
أبعد بينون لا عين ولا أثر * وبعد سلحين[2] يبني الناس أبياتا

ويقول أيضا :

دعيني لا أبالك لن تطيقي * لحاك الله قد أنزفت ريقي
لدى عزق القيان اذا انتشينا * واذ نسقى من الخمر الرحيق
وشرب الخمر ليس عليّ عارا * اذا لم يشكني فيها رفيقي
فان الموت لا ينهاه ناه * ولو شرب الشفاء مع النشوق[3]
ولا مترهب في أسطوان * يناطح جدره بيض الأنوق[4]

---

(١) تم ذلك عندما أغار ذو نواس ملك حمير ـ وكان يهوديا ـ على أهل نجران ـ النصارى ـ وقتل منهم مقتلة عظيمة لعدم قبولهم اليهودية ، وأفلت منهم رجل يقال له " دوس ثعلبان " وذهب الى قيصر الروم يستنجد به لكن قيصر لم يستطع امداده بالجنود لبعد الشقة ، فكتب الى ملك الحبشة بذلك ، وكان نصرانيا ، فبعث هذا سبعين ألف مقاتل من الأحباش بقيادة أرياط ، وأمره أن يقتل ثلث رجال حمير ، ويخرب ثلث بلادهم ، ويسبي ثلث نسائهم وأبنائهم ، ففعل ذلك وأكثر ولم يطق ذو نواس ذلك فانتحر بالقاء نفسه في البحر / انظر ، الطبري : ٢/١٢٦ .

(٢) بينون وسلحين : من حصون اليمن العظيمة للملوك التبابعة / معجم البلدان : (بينون) ، (سلحين) .

(٣) النشوق : مايشم عن طريق الأنف / اللسان (نشق) .

(٤) الأنوق : الرخم ، ويقال في المثل لما لا يوجد : أعز من بيض الأنوق .

(١)
وغمدان الذى حدثت عنــــه * بنوه ممسكا فى رأس نيـــق
(٢)
بمنهمة وأسفــــله جــروب * وحر الموحل اللثق الزليـــق
مصابيح السليط تلوح فيــــه * اذا يمسى كتومــاض البـــروق
ونخلته التى غرست اليــــه * يكاد البسر يهصر بالعـــذوق
فأصبح بعد جدته رمــــادا * وغير حسـنه لهب الحريـــق
وأسلم ذو نواس مستميتـــــا * وحذر قومه ضنك المضـــيق

والشاعر يبدأ قصيدته على نسق عمود الشعر القديم حيث يزجر صاحبتـــه التى أفرطت فى لومه على تهالكه على شرب الخمر وسماع القيان ، ليمهـــد بذلك لذكر الفناء الذى يلحق كل شئ على هذه الأرض مهما بلغ من القـــوة والمنعة ، فهذا قصر غمدان مقر ملوك اليمن العظام ، الذى كان مضرب المثل فى الجلال ومتانة البناء يهوى صريعا بفعل الهدم والحرق ويفر عنـــه صاحبه ذو نواس الى غير رجعة ، ويسلم رعيته للقتل والأسر .

والقصيدة لا يبدو فيها احساس أو تأثير بالحدث نفسه الذى أودى بالدولة وان كانت لا تخلو من نغمة أسى لاستشعارها الفناء الشامل الأكيد .

---

(١) غمدان : قصر باليمن بنى على أربعة ألوان ، وله سبعة سقوف بـــين كل سقفين منها أربعون ذراعا وفى أعلاه مجلس مبنى بالرخام الملـــون وعلى كل ركن من أركانه تمثال أسد ، وكانت تسرج فيه المصابيح ليـــلا فيلمع من ظاهره كالبرق ، هدم آخر الأمر أيام عثمان بن عفان رضى اللـــه عنه وقيل : ان سليمان عليه السلام - أمر الشياطين فبنوا فى صنعـــاء - لبلقيس - ثلاثة قصور هى غمدان وبينون وسلحين / معجم البلدان / (غمدان) .

(٢) اللثق الزليق : اختلاط التراب بالماء ، المنهمة : موضع الرهبـــان ، جروب : حجارة سوداء / انظر القصيدة ومعانيها فى : ابن هشـــام ، السيرة النبوية : ١/ ٣١ - ٣٣ .

ومن رثى دولة حمير ـ أيضا ـ حين دمرها الأحباش الشاعر المسمى بابن الذئبة (١) يقول :

لعمرك ماللفتى من مفر * مع الموت يلحقه والكبر .

لعمرك ماللفتى صحرة * لعمرك ماان له من وزر . (٢)

أبعد قبائل من حمير * أتوا ذا صباح بذات العبر .

بألف ألوف وحرابة * كمثل السماء قبيل المطر .

يصم صياحهم المقربات * وينفون من قاتلوا بالزمر . (٣)

سعالى كمثل عديد الترا * ب ييبس منهم رطاب الشجر .

وفى هذه الأبيات نجد تقريبا ـ المعانى نفسها التى مرت فى القصيدة السابقة الا أنها أكثر تفصيلا للحادثه ، وأشد عاطفة ، فبعد أن يؤكد الشاعر على النهاية الحتمية لكل حى عن طريق التكرار الذى ينبىء عن جو حزين يعيشه الشاعر ويريد اشاعته بعد ذلك يصف لنا الآلاف المؤلفه من جيش الأحباش التى انهالت على الحميريين ويرسم لهم صورة مرعبة يستشف منها النتيجة التى حصلت بالفعل . فهم سعالى يزحفون على الأخضر واليابس ولهم عجيج وضجيج يصم الآذان .

---

(١) هو ربيعة بن عبد ياليل بن سالم بن جشم بن قسى ، والذئبة اسم أمه / انظر : السيرة النبوية : ١/ ٣١ ، البكرى ، سمط اللآلى ٢/ ٧٦٢ .

(٢) صحرة : متسع ، الصحاح (صحر)
وزر : ملجأ ، المصدر نفسه (وزر) .

(٣) المقربات : الخيل العتاق التى تربط قريبا من البيوت ، وتكون معدة للحرب . الصحاح (قرب) .
الزمر : الجماعات / اللسان (زمر) .

ويقول الأعشى فى رثاء قصر ريمان الفخم الذى بناه تبع اليمن وزخرفه ثم دمر على يد الأحباش والفرس الذين تعاقبوا على اليمن قبل الاسلام : (١)

يامن يرى ريمان أمـ * ـسى خاويا خربا كعابه
أمسى الثعالب أهله * بعد الذين هم مآبه
من سوقة حكم ، ومن * ملك يعد له ثوابه
بكرت عليه الفرس بعـ * ـد الحبش حتى هدّ بابه
فتراه مهدوم الأعا * لى ، وهو مسحول ترابه
ولقد أراه بغبطة * فى العيش مخضرا جنابه
فخوى وما من ذى شبا * ب دائم أبدا شبابه

فالأعشى يرثى قصرا لم يعش فى فنائه ولم تربطه به روابط وثيقة وذكريات قديمة وانما قد يكون عاج عليه لغرض من أغراض الشعراء ، ثم زاره تارة أخرى فرأى ما حل به من التدمير ، أو ربما سمع عن خرابه فقال فى رثائه تلك الأبيات ولهذا لا نرى عاطفة قوية مشبوبة بالحزن ، وانما الأبيات تجرى مجرى الحكمة والدعوة الى التدبر فى تقلبات الأيام ، فهذا القصر الشامخ أمسى أطلالا لا تسكنه الثعالب بعد أن غدا مهدوم الأعالى والأسافل ، ويختم أبياته بتلك الحكمة التى تشير الى سنة الحياة فى التغيير الدائم لكل ناطيها .

ومن الشعر الذى يرثى القصور والمنازل بصفة عامة قول رجل من كندة : (٢)

أو لم ترى ريدان أسلم أهله * وأتى الحوادث رأس قلة ممنق . (٣)
وبدأن عادا ثم عدن عليهم * وثمود أجساد بهضبة أغلق .

---

(١) ديوانه : ٢١ - ٢٢ .

(٢) القصيدة بتمامها في : البحترى ، الحماسة : ١١٥ - ١١٦ .

(٣) ريدان : بلد باليمن وهو قصر مملكة ظفار / الحميرى ، الروض المعطار : (ريدان) .

فأري المشقر كان يحرس بابــه * ألف وألف من يرمه يغلــق . (١)

ثبت اذا طاف العدو ببابــه * نصلت معاوله وليس بمرتقــى .

وأصبن أبرهــة الذى سجدت له * صم الفيول صوامتا لم تنطــق .

والأسد ممسكة على أبوابــه * فاذا الملوك تحزبوا لم يفــرق .

وأصبن كسرى وابن كسرى بعده * والمرء قيصر وأنتحين لمــورق . (٢)

وأصبن نوحا بعدما بلغت بــه * أفق البلاد سفينة لم تغــرق .

ويقول عدى (٣) بن زيد العبادى فى رثاء (٤) الممالك الزائله :

أيها الشامت المعير بالدهـ * ـر أأنت المبرأ الموفـــور .

أم لديك العهد الوثيق من الـ * أيام أم أنت جاهل مغــرور .

من رأيت المنون خلدن أم مـن * ذا عليه من أن يضام خفير .

أين كسرى كسرى الملوك أبو سا * سان أم أين قبلة سابــور .

وبنو الأصفر الكرام ملوك الـ * ـروم لم يبق منهم مذكــور ..

---

(١) المشقر : قصر عظيم بالبحرين ، وقيل هى مدينة عظيمة فى وسطهـــا قلعة / المصدر نفسه (المشقر) .

(٢) مورق : موضع ببلاد فارس . / المصدر السابق (مورق) .

(٣) هو عدى بن يزيد بن حماد التميمى العبادى ، من أهل الحيرة ، ـ شاعر مجيد ، وكان يحسن العربية والفارسية وهو أول من كتب بالعربية فى ديوان كسرى أنو شروان . توفى مقتولا سنة ٣٥ قبل الهجره علـــى يد النعمان بن المنذر انظر / ابن الأثير : اللباب : ٢/ ٣١١ ، الأغانى ٢/ ٩٧ .

(٤) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء : ٢٢٥ ـ ٢٢٦ .

وأخو الحضر اذ بناه واذ رجـ * ـلة تجبى اليه والخابـور . (١)

شاده مرمرا وجلله كلـ * ـسا فللطير فى ذراه وكـور .

وتبين رب الخورنق اذ أشـ * ـرف يوما وللهدى تفكـير . (٢)

سره حاله وكثرة مايمـ * ـلك والبحر معرضا والسدير . (٣)

فارعوى قلبه فقال : وماغبـ * ـطة حى الى الممات يصير .

ثم بعد الفلاح والملك والـ * ـامة وارتهم هناك قبـور . (٤)

ثم أضحوا كأنهم ورق جـف * ـف فألوت بها الصبا والدبور .

ان هاتين القصيدتين تسيران على نمط واحد هو الحديث عن عصف الدهر ، واطاحته بالأمم منذ عهد نوح -عليه السلام- مرورا بقوم عاد ثم ثمود أهل القوة والمنعة ثم الأحباش والفرس والروم .... الخ وكيف أصبح جميعهم أحاديث وعبر ويضرب لنا الشاعر العبادى مثلا لهوان الدنيا بالملك النعمان بن المنذر صاحب قصر الخورنق المشهور ، اذ أنه لما اجتمعت لذات الدنيا لديه أنعم فيها النظر ببصيره فرآها زائلة لا دوام لها ، ولا تأتى سعادة الا ويعقبها نكد وشقاء ، فترك القصور ، وخلع حلل الملك ، ولبس مسوح الرهبان والزهاد ، وساح فى الأرض . (٥)

---

(١) أخو الحضر : صاحبه ، والحضر مدينة بناها الساطرون الجرمقى على نهر الثرثار بين دجلة والزاب انظر / الروض المعطار (حضر) .
الخابور : نهر شرقى دجلة يصل بينه وبين الرقه / المصدر نفسه (الخابور) .

(٢) الخورنق : قصر للنعمان بن المنذر بالحيرة .

(٣) السدير : قصر قريب من الخورنق ، وقيل نهر بناحية الحيره / انظر حماسة البحترى : ١٢٢ .

(٤) الامة بكسر الهمزة : النعمة وغضارة العيش / الصحاح . (أمم) .

(٥) المقدسى ، البدء والتاريخ : ٣/١٩٩ .

ولعله من الملاحظ اكثار العبادى من الحديث عن الفرس وحلفائهم المناذره بشكل خاص وذلك لعيشه فى الحيرة ومخالطته لهم عن قرب .

والواقع أن لدينا قصائد كثيرة تسير على هذا النهج (١) فتذكر الفرس والروم ومن دار فى فلكهم وتشيد بعزهم وسلطانهم ، بينما لا نجد ذكرا لقبائل العرب الا على ندرة شديدة (٢) والسبب يتضح من الفرق الشاسع فى الحضارة والعمران والملك بين الأمم المذكورة والعرب ، ولا أدل على ذلك من ايوان كسرى المشهور الذى ظل الشعراء العرب يذكرونه ويتخذونه مثلا أعلى لعزة الملك والسلطان حتى فى العصور الاسلامية الزاهرة .

وربما كان السبب فى تشابه هذه القصائد هو التقليد والاتباع ، لأننا نجد تأثيرها فى النفس قليلا ، فأما أن يكون الشعراء قد وجدوا فى هذا الفن لونا جديدا طريفا ينظمون فيه الشعر ، واما أن يكون الغرض من ذلك اظهار الحكمة والحنكة من خلال مرور الحوادث على نفس الشاعر ، وذلك لما كان للانسان المجرب ـ وخاصة الشاعر ـ من قيمة فى أوساط قبيلته . وربما يكون أقرب الأدلة على هذا ، الشاعر المشهور الأعشى ميمون بن قيس الذى كان مولعا بالخمر الى درجة كبيرة ، حتى انه صده عن اعتناق الاسلام فيما يروى (٣) . ومع ذلك نجد له عدة قصائد فى رثاء الممالك وتقلب الدهر ، ومخاطبة السامعين بالعظة والعبرة مذكرا بالموت والفناء موصيا بالحذر من الدنيا والتقلل منها .

---

(١) انظر حماسة البحترى : ١٢٨ قصائد الأعشى ، وقصائد لبيد فى المصدر نفسه : ١١٨ - ١١٩ .

(٢) انظر قصيدة الأسود بن يعفر النهشلى فى المفضليات : ٤٤٥ - ٤٥١ وهو شاعر جاهلى فحل كان ينادم النعمان بن المنذر / انظر ترجمته : ابن سلام ، طبقات فحول الشعراء : ٣٢ - ٣٤ .

(٣) البكرى ، سمط اللآلى : ١/ ٢٢١ .

وفى السنة الثانية عشرة للهجرة النبوية نجد قصيدة فى رثاء الحيرة (١) لأحد أبنائها يدعى ابن بقيلة (٢)، وذلك عندما غزاها خالد بن الوليد ـ رضى الله عنه ـ وقت منصرفه من حروب الردة فى اليمامة وبعد القضاء على مسيلمة الكذاب زعيم المرتدين، وعندما وصل خالد اليها طلب رجلا من عقلاء أهلها ليفاوضه، ويعرض عليه الاسلام أو الجزية أو الحرب. فخرج اليه ابن بقيلة هذا وكان آنذاك كبير السن، وعندما تكلم أعجب خالد بحكمته وحسن جوابه وانتهى الأمر بالصلح مقابل دفع الجزيه.

وعندما دخل المسلمون المدينة أخذ الحزن نفس الرجل فقال (٣) :ـ

أبعد المنذرين أرى سواما ✱ تروّح بالخورنق والسدير.

وبعد فوارس النعمان أرعى ✱ قلوصا بين مرة والحفير. (٤)

تحاماه فوارس كلّ قوم ✱ مخافة ضيغم عالى الزئير.

فصرنا بعد هلك أبى قبيس (٥) ✱ كجرب المعز فى اليوم المطير.

---

(١) هى مدينة صغيرة جاهلية حسنة البناء طيبة الثرى، على ثلاثة أميال من الكوفة وبها منازل ملوك ـ بنى لخم ونصر وهم آل النعمان بن المنذر الروض المعطار: (حيره).

(٢) هو عبد المسيح بن عمرو بن قيس، وبقيلة اسمه ثعلبه أو الحارث، وسمى بذلك لأنه خرج فى بردين أخضرين على قومه فقالوا له: ماأنت الا بقيلة فسمى بذلك. وقد أدرك ابن بقيلة الاسلام ولكنه بقى على نصرانيته وعمّر طويلا / انظر: أمالى المرتضى: ١/ ٢٦٢، تاريخ الطبرى ٣/ ٣٤٥.

(٣) الأبيات فى معجم البلدان / تحت كلمة (خورنق) و(سدير).

(٤) مرة أو مريرة: ماء لبنى عمرو بن كلاب / المصدر السابق (المريره).
الحفير: ماء لباهله بينه وبين البصرة أربعة أميال / المصدر نفسه (الحفير).

(٥) هو أبو قابوس، أحد ملوك الحيرة المشهورين من المناذره / انظر تاريخ اليعقوبى: ١/ ٢١١.
ولعله شبهه هنا بجبل أبى قبيس بمكة المكرمه لعزته ومنعة دولته.

تقسمنا القبائل من معـــد * علانية كأيســـار الجــزور .

وكنا لا يرام لنا حريـــــم * فنحن كضرة الضرع الفخـور . (١)

نؤدى الخرج بعد خراج كسرى وخرج من قريظـة والنضير .

كذاك الدهر دولته سجـــال * فيوم من مساة أو ســـرور .

وهذه القصيدة كما يبدو أوفر حظا من حيث العاطفة وصدق الشعـــور مما سبقها من القصائد وذلك لأنه يتحدث عن تجربة واقعية مر بها ، فالمدينـة مدينته ، وأهلها قومه . ورغم أن المدينة لم تدمر ولم تصب بأذى الا أنه أعتبر دفع الجزية مقابل دفاع المسلمين عنها نوعا من ضربات الدهر القاصمه ، فـراح يتذكر ملوكها العظام أرباب الخورنق والسدير ، الذين هلكوا فأصبح النـاس بعدهم نهبا للقبائل قد مسهم الذل ولا يجدون ملجأ فهم (كجرب المعـــز فى اليوم المطير) وهذه الصورة تدل على الحزن والكلم النفسى الذى يعانيـه الشاعر . لكنه يستسلم لحكم الدهر لأن دولته سجال ومن سره زمن ساءتـــه أزمان .

وقد وضعت هذه القصيدة ضمن العصر الجاهلى رغم أنها قيلت بعـــد مجىء الاسلام لأن قائلها جاهلى رفض الاسلام ، ولأنها تسير على النمـــط الجاهلى فى الرثاء الذى مر سابقا .

---

(١) ناقة فخور : هى العظيمة الضرع الضيقة الأحاليل فلا يخرج لبنهـــا الا بصعوبة / الصحاح : (فخر) وقد قصد فى البيت القوة والهيبـــة وشدة المحافظـة .

الفصـل الثانـــى

رثـاء الدولـة الأمويــــة

اذا أنتقلنا من العصر الجاهلى الى العصر الاسلامى ، نلاحظ أنـــه فى بداية هذا العصر ـ أى فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفـاء الراشدين ـ لا يوجد شعر فى رثاء الدول أو المدن وذلك لأن هذا العهـد كان عهد قوة ، وفتح للأقاليم المعادية للاسلام لتحطيم رؤوس الكفر وطواغيتـه وليفسح المجال أمام الشعوب لتدخل فى دين الله مختاره ، بعد أن أزيلت من طريقها الحواجز وبالرغم من حصول كثير من الفتن فى هذه الفترة ، وبخاصة فترة خلافة الامام على ـ كرم الله وجهـه ـ وحروبه مع معاويه ـ رضى الله عنه ـ وسيطرة أحد الفريقين على بعض ما بأيدى الفريق الآخر من الأرض والمـدن فى بعض الأحيان ، فانه وجد خلال ذلك شعر فى رثاء الأشخاص وتمجيـد بطولاتهم وشجاعتهم ، ولم يوجد رثاء مدن لأن الأمر لا يتعدى تغيير وال بآخر مع حاشيته وكلهم يدينون بالاسلام فلا تتغير معالم المدينه ، ولا يرحل عنهـا أهلها ولا يستباحون الا فى النادر .

تمخضت الأحداث السالفة الذكر عن ولادة الدولة الأموية برئاسة معاويـة ابن أبى سفيان ثم أفضت بعده الى ابنه يزيد وهكذا أصبحت ملكا وراثيـا وكان هذا أول انحراف عن سنن الراشدين ، ولعل هذا الأمر هو الـذى عجل بانقراض دولة بنى أمية اذ أن قانون الوراثة هذا جعل الخلافة من حـق ولى العهد مهما كان صبيا صغيرا ، أو ماجنا عابثا ، فانغمس هؤلاء فـى الترف وتركوا أمور البلاد الشاسعة ، والترف ـ كما هو معروف ـ داء الـدول العضال الذى لا يبدأ الا بالانقراض والزوال . ومما زاد الطين بلّه التنـازع الشديد الذى كان يقوم داخل البيت الأموى الحاكم نفسه على السلطة فكـل

يحاول أن يستأثر بها دون الآخرين ويحتكرها فى أولاده دون اخوانــــه وأقاربه . وهذا ماصوره الشاعر الأموى أبو عدى العبلى (١) فى قصيدة يحذر فيها بنى أمية من الخلاف وتجريد السيوف فى وجوه بعضهم وقصيدته هذه تجمع بين التحذير والتعنيف والبكاء يقول (٢) :

مابال عينك جائلا أقذاؤها * شرقت بعبرتها فطال بكاؤها

واعتادها ذكر العشيرة بالأسى * فصلاحها ناب بها ومساؤها

شركوا العدا فى أمرهم فتفاقمت * منها الفتون ومزقت أهواؤها

ظلت هناك ومايعاتب بعضها * بعضا فينفع ذا الرجاء رجاؤها

الا بمرهفة الظبات كأنها * شهب تقل ـ اذا هوت ـ أخطاؤها

ومسل زرق يكون خضابها * علق النحور اذا تفيض دماؤها

فبذاكم أمست تعاتب بينها * فلقد خشيت بأن يحم فناؤها

ان الشاعر وان كان لا يرضى عن تصرفات بنى قومه الأمويين كسب على ـ رضى الله عنه ـ وآله ومعاملتهم تلك المعاملة القاسية التى فيها كثير من الاهانة ناهيك عن القتل والتشريد . رغم ذلك فانه يحزن عليهم ويجذبه الرحم وهتاف العشيرة فيقف باكيا وراثيا وداعيا لهم بالرشاد :

---

(١) هو عبد الله بن عمر بن على بن عدى ، يكنى أبا عدى . شاعر مجيد من شعراء قريش ومن مخضرمى الدولتين الأموية والعباسية ، كان فى أيام بنى أمية يميل الى بنى هاشم ، ويذم قومه بنى أمية ، فلم يكن منهم اليه صنيع جميل فسلم بذلك أيام العباسيين ، ثم خرج على أبى جعفر المنصور مع محمد بن عبد الله بن الحسن المعروف بالنفس الزكية ، ووضعه واليا على الطائف ، ثم هرب الى اليمن بعد القضاء على الثورة ولعله مات هناك / انظر الأغانى : ١١/٢٩٤ ، مصطفى الشكعة ، رحلة الشعر من الأموية الى العباسية : ٢١٤ .

(٢) الأغانى : ١١/٣٠٧-٣٠٨ .

ماذا أؤمل ان أمية ودعت * وبقاء سكان البلاد بقاؤها .

غيث البلاد هم وهم أمراؤها * سرج يضوء دجى الظلام ضياؤها .

فلئن أمية ودعت وتتابعت * لغواية حميت لها خلفاؤها .

ليودعن من البرية عزها * ومن البلاد جمالها وبهاؤها .

ومن البلية أن بقيت خلافهم * فردا تهيجك دورهم وخلاؤها .

هلا نهى تنهى الغوى عن التى * يخشى على سلطانها غوغاؤها .

وتقى وأحلام لها مضروبة * فيها اذا تدمى القلوب دواؤها .

وبعد هذا الزجر وتذكيرهم بتقوى الله ثم تحكيم العقل فى أمر المصلحة العامة ، وردع السفيه الباغى ، لا يجد الشاعر ملجأ الا الله فيتوجه اليه متضرعا بأن يصلح ذات البين :-

لما رأيت الحرب توقد بينها * ويشب نار وقودها أذكاؤها

نوهت بالملك المهيمن دعوة * ورواح نفسى فى البلاد دعاؤها .

ليرد ألفتها ويجمع شملها * بخيارها فخيارها رحماؤها .

فبنو أمية خير من وطئ الثرى * شرفا وأفضل ساسة أمراؤها .

والذى يبدو أن هذه القصيدة بالرغم من جودتها الأسلوبية وسبكها المحكم ، وتلمسها لحساسيات النفوس ، فانها لم تجد أذنا صاغيه ، فلم يكف القوم عما هم فيه فازدادت الأوضاع ترديا واضطرابا ، وانتهز العباسيون الفرصة السانحة فى مثل هذه الظروف وقام محمد بن على بن عبد الله بن عباس بالدعوة لآل البيت وان الخلافة حق من حقوقهم المغتصبة وبث رسله فى خراسان ليكون أبعد عن مركز الخلافة الأموية بدمشق . وكانت الدعوة سرية والاعتماد فيها على غير العرب من الفرس وغيرهم ، وربما كان هذا لعدم معرفة العجم للعربية فيكون اطلاعهم على الأمر لا يكشف سرا ، وثانيا عاطفتهم الدينية

القوية بحب آل البيت والميل اليهم وبخاصة أن دعاة العباسيين ماكانوا لا يدعون لامام بعينه بل للرضا من آل محمد - صلى الله عليه وسلم - ولم يلبث محمد بن على هذا أن مات وكان قد عهد بالامامة بعده الى ابنه ابراهيم فاتخذ هذا له مقرا بالحميمة وهى منطقة فى جنوب الأردن على طريق الحاج واصطنع الرجال والموالى وكان من أشهرهم أبو مسلم الخرسانى الداهيه الذى أستطاع أن يفرق رسله فى كور خراسان وأصبح لديه من القوة والأتباع ماأشعر والى الأمويين بخراسان نصر بن سيار بالخطر الداهم ، فكتب الى الخليفة مروان بن محمد يخبره بالأمر :- (١)

أرى خلل الرماد وميض جمر * فيوشك أن يكون لها ضرام .

فان النار بالعودين تذكى * وان الحرب أولها الكلام .

فان لم تطفئوها تجن حربا * مشمرة يشيب لها الغلام .

فقلت من التعجب ليت شعرى * أأيقاظ أمية أم نيام .

فان كانوا لحينهم نياما * فقل قوموا فقد حان القيام .

ففرى عن رحالك ثم قولى * على الاسلام والعرب السلام .

فكتب اليه مروان : " ان الشاهد يرى مالا يرى الغائب فاحسم الثؤلول فقال نصر عند ماوصله كتاب مروان مخاطبا من حوله : " أما صاحبكم فقد أعلمكم ألا نصرة عنده . وعندئذ وجه نصر بن سيار همه لجمع وحدة الصف واخماد الفتن التى كانت ثائره بين المضرية واليمانية فى خراسان ومرو وغيرها ويحذرهم من العدو الداخل اليهم قائلا : (٣)

---

(١) الأزدى ، تاريخ الموصل : ١٠٦-١٠٧ ، ابن عبد ربه ، العقد الفريد : ٤٧٨/٤ .

(٢) تاريخ الموصل : ١٠٧ .

(٣) تاريخ الطبرى : ٣٧/٢ .

أبلغ ربيعة فى مرو واخوتهم * فليغضبوا قبل أن لا ينفع الغضب .
ولينصبوا الحرب ان القوم قد نصبوا حربا يحرق فى حافاتها الحطب .
مابالكم تلحقون الحرب بينكم * كأن أهل الحجا عن فعلكم غيب .
وتتركون عدوا قد أظلكم * مما تأشب لا دين ولا حسب .
قدما يدينون دينا ماسمعت به * عن الرسول ولم تنزل به الكتب .
فمن يكن سائلا عن أصل دينهم * فان دينهم أن تقتل العرب .

فالشاعر هنا يحاول لفت انتباه القبائل الى العدو المشترك ثم هو يكشف عن حقيقة هذا العدو - وهو يعنى أبا مسلم ومن تبعه من قومه الفرس - فهم قوم ذوو حقد دفين على العرب ، فالدولة الأموية - كما هو معروف - كانت دولة عربية صرفة لم يبلغ الأعاجم فيها أى مرتبة حساسه ، فاستغل هؤلاء - أيضا - اعتماد الامام ابراهيم بن محمد عليهم وابعاده للعرب ، فأظهروا ما بأنفسهم ، فيروى عن أبى مسلم بعد تمكنه أنه لم يترك طبقة من طبقات المجتمع الا قتل منها بادئا بالقادة والوزراء ثم القضاة والعلماء والخبر ... (١) ... الخ .

كما تروى عن ابراهيم فى هذا الشأن روايات منها مايرويه ابن عساكر قال : (٢)

"كان أبو مسلم يكاتب ابراهيم فقدم على ابراهيم رسول أبى مسلم ، فسأله فاذا هو رجل من عرب خراسان ، فصيح ، ففهم ذلك . فكتب الى أبى مسلم ألم أنهك عن أن يكون رسولك عربيا . يطلع مثل هذا على أمرك ، فاذا أتاك فاقتله ...." وتضيف الرواية أن الرسول قرأ الكتاب فأتى به مروان بن محمد فأرسل من جنده الى ابراهيم فجاءوا به فحبس ثم قتل فى سجنه سنه اثنستين وثلاثين ومائه .

---

(١) انظر : المقدسى ، البدء والتاريخ : ٦/ ٩٣ .
(٢) تهذيب تاريخ دمشق الكبير : ٢/ ٣٦٤ ، ومابعدها .

ويروى الطبرى أيضا : " .... وكان ابراهيم بن محمد كتب الى أبـــو مسلم ـ فيما قالوا ـ الا يدع بخراسان أحدا يتكلم العربية الا قتلـه " (١) .

وربما كان فى هذه الروايات شئ من المبالغة أو الزيادة ولكنها ذات دلالة على فقدان ثقته فى العرب ، وتخوفه من موالاتهم لحكامهم من بنى أميـــة الذين لا تأخذهم رحمة ، ولا هوادة فيمن ظنوا به سوءا .

ومهما يكن الأمر فقد اشتد أمر أبى مسلم حتى استولى على خراســـان كلها وهرب نصر بن سيار وولده حتى مات بساوة بين الرى وهمـــذان ثم أقبلت الجيوش من خراسان رافعة السواد شعار العباسيين ، وبدأت شمس الدولة الأموية بالأفول ، وكانت النهاية المحتومة حين قتل مروان بـــن محمد آخر الخلفاء الأمويين بعد معركة الزاب الكبير وقامت دولة بنى العباس ، وبويع أبو العباس السفاح أول خليفة . وممن بكى الدولة الغاربة شعـــرا الشاعر الأموى الآنف الذكر أبو عدى العبلى حيث قال : (٢)

تقول أمامة لمـــا رأت * نشوزى عن المضجع الأنفـــس
وقلة نومى على مضجعى * لدى هجعة الأعين النعـــس .
أبى ، ماعراك؟ فقلت الهموم * عرون أباك فلا تبلســـى .(٣)
عرون أباك فحبســـنه * من الذل فى شر ما محبس .
لفقد العشيرة اذ نالهـــا * سهام من الحدث المبئـــس .
رمتها المنون بلا نصـــل * ولا طائشات ولا نكـــس . (٤)
بأسهمها الخالسات النفوس * متى ماأقتضت مهجة تخلـــس .

---

(١) تاريخ الطبرى : ٣٧/٢ .

(٢) الأغانى : ٢٩٨/١١ - ٢٩٩ ، رحلة الشعر : ٤٢٢ .

(٣) تبلسى : من الابلاس وهو الحيرة واليأس وقطع الرجاء من رحمة الله . اللسان مادة (بلس) .

(٤) النكس : سهم نكس : انكسر فوقه فجعل أعلاه أسفله . الزمخشرى ، أساس البلاغة مادة (نكس) .

ان عاطفة الحزن تصبغ هذه الأبيات وتظللها ، فالمصيبة قد عمت بفقد عشيرة الشاعر ذات المجد العريق ، لذلك فهو مهموم ومضطرب لم يبق له سند من الناس بعد أن رمت المنون دولة قومه بأسهمها المصميات فبدلت عزهم ذلا ونعيمهم بؤسا ، ويبلغ الشاعر ذروة تأثيره الحزين عندما يتكلم عن البلاء الذى حل بقومه بشئ من التفصيل :-

فصرعاهم فى نواحى البلاد * تلقى بأرض ولم ترمس . (١)

كريم أصيب وأثوابه * من العار والذام لم تدنس .

وآخر قد طار خوف الردى * وكان الهمام فلم يحبس .

ان العباسيين عند قيام دولتهم تتبعوا الأمويين فى كل مكان يقتلونهم أينما وجدوهم حتى الذين أعطوهم الأمان كسليمان بن هشام بن عبد الملك ورهط معه من بنى قومه ، رجعوا فقتلوهم صبرا . ويروى أن شاعرا كان يحقد (٢) على بنى أمية ويؤلب عليهم ، دخل يوما على أبى العباس السفاح فرأى فى (٣) مجلسه قوما ممن بقى من بنى أمية فصاح على الفور مخاطبا الخليفة السفاح :

---

(١) ترمس : تدفن / اللسان مادة (رمس) .

(٢) الشاعر هو سديف بن ميمون . مولى بنى العباس وشاعرهم . كان مولى لامرأة من خزاعة ، وكان زوجها من اللهبيين فادعى سديف بذلك ولاء بنى هاشم . وكان أديبا بارعا ، وخطيبا مصقعا . تشيع لبنى على الخارجين على المنصور ، فظفر به عامل المنصور على مكة وقتله سنة ١٤٦هـ انظر ، ابن قتيبه ، الشعر والشعراء : ٤٧٩ ، تهذيب ابن عساكر : ٦٨/٦ .

(٣) طبقات ابن المعتز : ٤٠ .

لا يغرنك ماترى من رجــــال * ان تحت الضلوع داء دويــــا .

فضع السيف وارفع السوط حتى * لا ترى فوق ظهرها أمويــــا .

فألهبت هذه الأبيات غضب الخليفة ، وأثارت كوامن حقده ، فأمـــر بضرب كل من حضر من الأمويين ، وقيل أنه بسط الانطاع عليهم وأمر بغدائه فتناوله فوقهم وان بعضهم لا يزال يتحرك أو يئن . واذا كان الأمر مرعبـــا ومفزعا الى هذا الحد فما حال من بقى بعد قتل الرجال ؟ يجيب العبلى :

فكم غادروا من بواكى العيو * ن مرضى ومن صبية بـؤس .

اذا ماذكرنهم لم تنــم * لحرّ الهموم ولم تجلـــس .

يرجعن مثل بكاء الحمــا * م فى مأتم قلق المجلـــس .

فذاك الذى غالنى فاعلمــى * ولا تسألينى فتستنحســـى .

وأشياء قد ضفتنى بالبـــلاد * ولست لهن بمستحلـــس . (١)

ان نفس الشاعر يعتصرها الألم والحزن لحالة الأطفال والنساء الذيـــن أصبحوا يعيشون فى مأتم دائم وحزن متواصل لفقد العائل . وبعد ذلـــك يذهب العبلى ليعدد الأماكن التى قتل فيها بنو أمية ، وهى كثيرة ومتعددة فيزيد تفجعه لبيان شمول النكبة وكأنه يقول ، لا أدرى لمن أبكى ؟ ألهؤلاء ، أم لاولئك ؟ .

أفاض المدامع قتلى كُـــدىً * وقتلى بكثوة لم ترمـــس . (٢)

وقتلى بوج وباللابتـــين * من يثرب خير ماأنفـــس . (٣)

---

(١) المستحلس : المقيم الذى لا يبرح / اللسان : ماده (حلس) .

(٢) كدى : موضع بأسفل مكه وهو الذى دخل منه الرسول ـ صلى الله عليـــه وسلم ـ يوم فتح مكه / البكرى ، معجم ماستعجم ١١١٧/٤ ، كثـــوة : موضع بعينه لم تحدده المعاجم / معجم البلدان (كثوه) .

(٣) وج : هو الطائف ، أو واد بها / الروض المعطار : (وج) .

وبالزابيين نفوس ثــــوت * وقتلى بنهر أبى فطــــرس . (١)
أولئك قوم تداعت بهـــــم * نوائب من زمـــن متعس .
أذلت قيادى لمن رامـــنى * وألزقت الرغم بالمعطس .
فما أنس لا أنس قتلاهـــم * ولا عاش بعدهم من نسى .

وبعد ، فالشاعر وفق كل التوفيق فى رسم صورة حزينة بائسة لفناء قومــــه وزوال ملكهم ومجدهم ، وقد أشرك نفسه معهم فى الصوره ، غير أنهم ذهبوا أعزاء وبقى هو على آثارهم يقاسى الأسى والذل راغم الأنف . وقد كانت عاطفة الشاعر من الصدق بمكان ، فابتعد عن التكلف والزخرفة اللفظية والمعنويــة بل كان شعره ينساب سهلا بشكل حوار حزين ينفعل فيه الشاعر وتعتــــروه الهموم السوداء وتملك عليه نفسه .

وقد جاء روى القصيدة ـ السين المكسورة ـ مناسبا كل المناسبة لهـــذه القصيدة فالسين حرف هامس يناسب النفس الحزينة التى هدّها النبأ الفاجـع .

ولعل هذه القصيدة تفتح بابا جديدا من أبواب الشعر العربى الاسلامى وهو باب رثاء الدول ، وذلك لأن هذه القصيدة من أوائل القصائد التى قيلت فى هذا الموضوع ان لم تكن هى الأولى . ولعل القصائد السينية التى ستمـــر بنا فى هذا الموضوع تأثرت أو احتذت هذه القصيدة ، فكأنها أصبحت نموذجـا

---

(١) الزابيان أو الزابان : نهران أسفل الفرات ، هما الزاب الأعلـــى ، والأسفل يأتيان من بلاد أرمينيه ويصبان فى دجله ، ومدينة الـــزاب بينهما / المصدر السابق (الزاب) .
نهر أبى فطرس : اسم نهر قرب الرملة بفلسطين / معجم البلدان (فطرس) .

للرثاء الصادق لما توفر فيها من جودة البناء والسبك . ومن الشعراء الذين رثوا دولة بنى أمية الشاعر أبو العباس الأعمى (١) الذى كان يوالى بنى أمية أشد الولاء ويحبهم حبا جما ولا يشرك معهم أحدا فى هذا الحب حتى انه كان يعادى آل بيت النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لمناوأتهم للأمويين ، فعندما يشتد الخطب على الدولة الأموية وتبدأ بالانهيار التدريجى ، يجد الأعمى من واجبه أن يذهب الى الشام ليقف على منازل الأحباب عند مروان بن محمد الذى كانت الأرض قد ضاقت عليه بما رحبت لما يرى من تناقص أطراف مملكته يوما بعد يوم فينشده الأعمى :ـ

ليت شعرى أفاح رائحة المسـ * ـك وما ان اخال بالخيف انسى .

حين غابت بنو أمية عنـه * والبهاليل من بنى عبد شمس .

خطباء على المنابر فرسا * ن عليها وقالة غير خرس .

لا يعابون صامتين وان قا * لوا أصابوا ولم يقولوا بلبس .

بحلوم اذا الحلوم تقضت * ووجوه مثل الدنانير ملس (٢) .

ومن عجيب المصادفة أن يلتقى شاعرنا بأبى جعفر المنصور وهو فى طريقه الى الشام ويخبره بوجهته وينشده هذه الأبيات التى هى رثاء مشوب بالمدح

---

(١) هو السائب بن فروخ المكى . مولى لبنى جذيمة بن عدى ، كان هجاء خبيثا فاسقا مبغضا لآل الرسول مائلا الى بنى أمية ، أكثر شعره فى هجاء آل الزبير غير مصعب لأنه كان يحسن اليه ، سمع عبد الله بن عمرو وروى عنه عطاء ، وعمرو بن دينار ، ووثقه أحمد ، وروى له البخارى ومسلم وأصحاب السنن مات مابين ١٣٦ ـ ١٤٠ هـ .

انظر : ترجمة : الصفدى ، نكت الهميان : ١٥٤ ، الأعلام : ٣/١١٠ .

(٢) الأغانى : ١٦/٢٩٩ ـ ٣٠٠ ، ط دار الكتب .

والثناء على الأمويين ، فهم الفرسان وأهل الفصاحة والعقول الراجحة ..... الخ ، وماهى الا فترة زمنية بسيطة حتى تسقط دولة الأمويين وتقوم دولة العباسيين ويتولى أبو جعفر المنصور الخلافة بعد السفاح ويخرج حاجا فى احدى سنوات خلافته فيصر بالأعمى واقترب منه ، وقال له : أنا رفيقك وأنت تريد الشام أيام مروان ، فيتنهد أبو العباس وينشد بألم وحسرة :- (١)

آمت نساء بنى أمية منهم * وبناتهم بمضيعة أيتام .

نامت جدودهم وأسقط نجمهم * والنجم يسقط والجدود تنام .

خلت المنابر والأسرة منهم * فعليهم حتى الممات سلام .

ان الخليفة العباسى قد قصد من كلامه مع الأعمى اختيار ولائه لمواليه الأول وهل كان حبه لهم للعطاء فقط ؟ وماموقفه من الدولة الجديدة ؟ فيكون جواب الشاعر هذه الأبيات التى تقطر حزنا وأسى لفقد أولئك القوم عندما خانهم الحظ وفارقهم السعد ، ثم يثبت الشاعر أنه لا يزال وفيا لهم حتى بعد موتهم ، وسيبقى كذلك حتى الممات . الأمر الذى جعل المنصور يسأله متعجبا : "كم كان مروان أعطاك بأبى أنت" ؟ فيقول : أغنانى أن أسأل أحدا بعده فيغتاظ المنصور ويهم بضرب عنقه غير أنه يتذكر حق الصحبة فيمسك عنه ويغيب الشاعر عن الخليفة زمنا ثم يطلبه فلا يعثر له على أثر ، وكأنما البيداء بادت به .

ان أبيات أبى العباس - رغم قلتها - تدل على شاعرية فذه ، وشكيمة قوية وقد تميز أسلوبه بالسلاسة مع الفخامة وقوة الجرس .

وقال عثمان بن الوليد بن عماره القرشى ، يذكر فعل الدهر ببنى أميه : (٢)

---

(١) الأبيات والأخبار الوارده معها فى المصدر نفسه ص ٣٠٠ .

(٢) حماسة البحترى : ص ١٢٦ .

من يأمن الدهر ممساة ومصبحه * فى كل يوم له من معشر جزر .
بعد ابن مروان أودى بعد مقدرة * دانت لهيبتها الأمصار والكور .
ثم الوليد فسل عنه منازله * بالشام والشام معمول له خضر .
تجبى اليه بلاد الله قاطبة * أخلافها ثرة لا مسره درر (١) .
وفى سليمان آيات وموعظة * وفى هشام لأهل العقل معتبر .
واذكر أبا خالد ولى بمهجته * ريب المنون وولى قبله عمر .
وفى الوليد أبى العباس موعظة * لكل من ينفع التجريب والفكر .
دانت له الأرض طرا وهى داخرة * لا يدفع الذل من أقطارها قطر .
بينا له الملك مافى صفوة كدر * اذ عاد رنقا وفيه الشوب والكدر (٢) .
كانوا ملوكا يجرون الجيوش بما * يقل فى جانبيه الشوك والشجر .
فأصبحوا لا تُرى إلا مساكنهم * قفوا سوى الذكر والآثار ان ذكروا .

ان الشاعر القرشى فى هذه الأبيات يضرب المثل لفعل الدهر وصنيعه بالأمم ببنى أمية أولئك الذين ملكوا الدنيا ، وأطاعتهم أقطار الأرض طوعا وكرها فبنوا القصور العظيمة بالشام وغيرها وتربعوا على سدة الحكم ملوكا لا يرام حماهم ، ومكثوا على هذه الحالة شطرا من الدهر حتى رماهم بقواصمه فبادوا كأن لم يكونوا شيئا يذكر .

والشاعر هنا يختلف عن سبقه من الشعراء الذين مرّ ذكرهم من حيث العاطفة والأسلوب فهو هنا يقصد الى الاعتبار بالموت المؤكد لكل انسان مهما بلغ شأنه فى هذه الحياة . وعباراته دالة على ذلك كقوله : "وفى هشام لأهل العقل معتبر ، "لكل من ينفع التجريب والفكر" .

---

(١) الأخلاف : جمع خلف وهو الضرع ، ثرّة : غزيرة / لسان العرب : (خلف) (ثرر) .

(٢) الرنق : الكدر ومايكون فى الماء من الطين اللسان : مادة (رنق) .

أما عاطفته فهى حزينة ولا شك ولكنها غائمة اتسعت الذكر عدد غير قليل من الخلفاء الأمويين وذكر عزهم ومجدهم ثم ماآلوا اليه من الهلاك والفناء ، ولم تنصب عاطفته بحرارة على الحدث الأهم أو الرئيس فى رثاء الدول وهو الكارثة التى أودت بالدولة فقضت على الحكام وكل من كان من بنى قومهم وخربت البيوت والقصور وهتكت الحرمات وسيقت النساء المترفات الناعمات أسيرات سبايا ، والأطفال ذاقوا مرارة اليتم وما الى ذلك من الأجزاء المهمة التى عندما تجتمع تكون الصورة الحزينة التى توشح قصيدة الرثاء . ولعل هذا الصدق فى العاطفة هو الذى يميز بين قصيدة وأخرى من حيث التأثير فى نفوس السامعين أو القراء وهذا ماجعل شعر العبلى وأبى العباس الأعمى فى غاية الجوده والتأثير فالأول أموى يبكى عشيرته والثانى مخلص محب يسرى الوفاء لهم دينا عليه حتى يوارى فى رمسه .

الفصـــل الثالـث

زثـاء الدول والأمصار حتى عصر السلاجقـــه

المبحث الأول : الثورات والفتن الداخلية فى الدولة العباسية :

بعد أن قضى العباسيون على دولة بنى أميه وتتبعوا كل من يمت اليهـــم بولاء ، اتجهوا الى تثبيت أركان دولتهم والعناية بشئونها السياسية والادارية والاقتصادية والعلمية ، فجندوا الجيوش العظيمة لحماية البلاد من غـــارات الروم وللغزو والجهاد فى سبيل الله وفتح البلدان ، وكانت موارد الدولـــة عظيمة الحجم ، فعاش الناس فى رخاء ونعيم واتجهوا تبعا لذلك الـــــى العمران والترف وكثرت الجوارى والمغنيات من الرقيق المجلوب حتى كان لهـن سوق خاصة فازدهر الغناء ازدهارا كبيرا وشجع ذلك كثرة الشعراء الذيــن ينظمون للقيان ماشئن من الشعر ذى الأوزان والبحور الغنائيه ، كما بلـــغ العلم والعلماء مرتبة عظيمة فى الدولة العباسية وممازاد فى نموه كون الخلفـــاء أنفسهم من العلماء والأدباء كالمنصور والرشيد والمأمون وغيرهم وكانوا يجزلـون الهبات للعلماء والشعراء بالاضافة الى ظهور الترجمة ونقل علوم الأمم الأخـــرى الى اللغة العربية نتيجة امتزاج الشعوب ببعضها فى المجتمع العباسى الـــذى أصبح يحوى أجناسا مختلفة من البشر وخاصة الجنس الفارسى، وقد ازدهـــرت بغداد عاصمة الخلافة ازدهارا عظيما ، وذاع صيتها فى الشرق والغرب ،وأصبحت قبلة العلماء والأدباء والشعراء يغدون عليها من أقصى البقاع ليجد كـــــل بغيته فيها .

واستمر الحال هذا مده قرن من الزمان تقريبا حتى توفى هارون الرشـــيد سنة ثلاث وتسعين وماثه حينئذ أطلت الفتنة المظلمة بقرنيها ، أعنى بها الفتنة

التى وقعت بين الشقيقين الأمين والمأمون ومزقت البلاد ودمرت عاصمة الخلافة بغداد وأصابها من أمر الله ما أصابها .

وترجع البداية الأولى لهذه الفتنة الى عهد الرشيد نفسه ، اذ أنه لما حج البيت فى عام ستة وثمانين ومائة (١) أخذ البيعة لابنه محمد ولقبه بالأمين ليكون وليا لعهده ثم بايع لابنه عبد الله ولقبه بالمأمون ليكون وليا لعهد الأمين . وكتب بذلك كتابا وأشهد فيه أكابر أهل الاسلام ووجوه الكتاب والقواد وسائر أركان الدولة وعلقه فى الكعبه . وشرط عليهما فيه ان هو جاءه الأجل المحتوم أن تكون بغداد ، والعراق ، والحجاز واليمن ، والجبال وفارس تحت حكم الأمين ويكون هو الخليفة ، وأن تكون الرى ، وطبرستان وخراسان ، والترك تحت حكم المأمون ويكون ولى عهد المسلمين .

ومما يذكر هنا أن المأمون كان أكبر سنا وأرجح عقلا وأكثر حنكة من الأمين ، وانما قدم الأمين اكراما لأمه زبيده بنت جعفر بن المنصور بنت عم هارون الرشيد . (٢)

وقد كان الناس بين متفائل ومتشائم وكان من المتشائمين شاعر حصيف قال عندما سمع النبأ : لقد ألقى بأسهم بينهم ، وأنشد :- (٣)

رأى الملك المهذب شر رأى * بقسمته الخلافة والبلادا .
رأى مالو تعقبه بعلم * لبيض من مفارقه السوادا .
أراد به ليقطع عن بنيه * خلافهم ويبتذلوا السوادا .

---

(١) انظر الطبرى : ٨/ ٢٧٧ ومابعدها ، وقد أورد نص الكتاب الذى كتبه الرشيد وعلقه فى الكعبة .

(٢) ابن العمرانى ، الانباء فى تاريخ الخلفاء : ٧٦ .

(٣) تاريخ الطبرى : ٨/ ٢٧٧ .

فقد غرس العداوة غير آل * وأورث شمل ألفتهم بددا .
وألقح بينهم حربا عوانا * وسلس لاجتثاثهم القيادا .
فويل للرعية ، عن قليل * لقد أهدى لها الكرب الشدادا .
ستجرى من دمائهم بحور * زواخر لا يرون لها نفادا .
فسوزر بلائهم أبد عليه * أغيا كان ذلك أم رشادا .

ولقد كان احساس الشاعر صادقا ، فلقد حصل ماتوقعه وأكثر ، فمنذ أن توفى الرشيد وبويع الأمين بالخلافة أخذ يسعى فى خلع المأمون من ولاية العهد وجعل ولده موسى مكانه .

وكان يزين له هذا الأمر اثنان من أكابر قواده ومستشاريه وهما : الفضل بن الربيع ، وعيسى بن ماهان . وبالفعل أمر الأمين بقطع الدعاء للمأمون والدعاء لابنه الطفل موسى الذى لقبه بالناطق بالحق ، وطلب من المأمون أن يخلع نفسه ويأتيه فى بغداد فلما سمع المأمون بذلك رفض الأمر وأسقط اسم الأمين من الطراز ، وقطع عنه البريد (١) .

فاعتبر الأمين ذلك خروجا عن الطاعة ، وأرسل للمأمون جيشا كبيرا بقيادة عيسى بن ماهان فندب المأمون لمحاربته طاهر بن الحسين الذى سار بجيشه حتى التقى بجيش عيسى بالرى فاقتتلوا قتالا شديدا كان النصر فيها حليف طاهر فقتل عيسى بن ماهان واحتز رأسه ، واستباح عسكره . وبعد ذلك أمره المأمون بالتوجه الى بغداد فتوجه اليها بجيشه حتى أحاط بها ونزل ببساتينها وفرت أمامه جيوش الأمين وعساكره واستطاع طاهر أن يستميلهم اليه باعطائهم الأمان والهبات الكبيرة ، فتبعه منهم كثيرون عنئذ شدد طاهر الحصار على بغداد ونصب المجانيق التى تقذف الحجارة فى كل الاتجاهات ـ

---

(١) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ : ٦/٢٢٧ .

ولا يبالى رماتها من أصابت وفى ذلك يقول الوراق :- (١)

يارماة المنجنيــق * كلكـم غير شفيــق ٠

ماتبالون صديقـــا * كان أوغير صديـق ٠

ويلكم تدرون ماتـــر * مون مرار الطريـــق ٠

كما استعمل أيضا من آلات الدمار العرادات والسفن البحرية الـــتى تقذف النفط والنيران ٠ واستعملت هذه الالات أيضا من قبل جيش الأمـــين المحاصر الأمر الذى جعل الأرباض والمنازل والأسواق هى ميدان المعركـــه ومواقع الجند ، فكثر القتل والتدمير والخراب حتى درست محاسن بغـــداد والتهمتها النيران وفى هذا يقول الوراق أيضا : (٢)

من ذا أصابك يابغداد بالعـــين * ألم تكونى زمانا قرة العـــين ٠

ألم يكن فيك قوم كان مسكنهـــــم * وكان قربهم زينا من الزيـــن ٠

صاح الغراب بهم بالبين فافترقـــوا * ماذا لقيت بهم من لوعة البين ٠

أستودع الله قوما ماذكرتهـــــم * الا تحدر ماء العين من عينى ٠

كانوا ففرقهم دهر وصدعهـــــم * والدهر يصدع مابين الفريقين ٠

ان الشاعر هنا يرجع سبب البلاء الذى حل ببغداد الى العين أو الحسد ففرق أهلها شيعا بعد أن كانوا ينعمون فيها بجمعهم والشاعر واحد منهـــم فهو يتذكر تلك الأيام ويسكب الدمع توجعا لفراق أولئك القوم ٠

---

(١) هو عمرو بن عبد الملك العترى أصله من البصره شاعر ماجن ، اشتهـــر فى أيام الرشيد له شعر كثير ، توفى نحو ٢٠٠ هـ / المرزبانى ، معجم الشعراء : ٢١٨ ٠

(٢) تاريخ الطبرى : ٨/٤٤٧ ٠

ونلاحظ هنا أن الشاعر قد شغل نفسه بالزخرفة اللفظية كالجناس الذى عم معظم الأبيات ، والذى صرف الشاعر عن قوة التأثير فى السامعين ، وصرفه أيضا عن تفصل الحادثة ومالاقته بغداد من الدمار ، فكأنه هنا يقف على أطلال باليه يخاطبها لا على مدينة عظيمة هى حاضرة العالم فى ذلك الزمان .

وتستمر هذه الحال مدة من الزمان لم يعد الناس يحتملونها ، ولا يطيقون معها صبرا فكان لابد لهم من ترك بغداد والنزوح عنها ، فخرجوا منها زرافات ووحدانا ، حتى أوحشت بغداد وخاف الناس أن تبقى خرابا . وفى ذلك يقول الخليع :- (١)

أتسرع الرحلة أغذاذا * عن جانبى بغداد أم ماذا ؟

ألم تر الفتنة قد ألفت * الى أولى الفتنة شذاذا

وانتقضت بغداد عمرانها * عن رأى لاذاك ولا هذا

هدما وحرقا قد أبيد أهلها * عقوبة لاذت بمن لاذا

ان الشاعر مندهش لشدة الهول الذى لحق بالناس فجعلهم يسرعون فى الرحيل عن بغداد ويتركونها نهبا لأولى الفتنة من الحثالات والشذاذ يسلبون وينهبون ويفتكون ، ...... فمن وجد سبيلا الى الهرب ناجيا بنفسه فعل

---

(١) هو الحسين بن الضحاك بن ياسر المعروف بالخليع ، مولى بأهله ، وأصله من خراسان ولكنه ولد بالبصرة سنة ١٦٢ ونشأ فيها . وهو شاعر ماجن له مع أبى نواس أخبار معروفة ، ورد بغداد وأقام فيها دهرا ينادم الخلفاء وبخاصة الأمين حتى اذا قتل فر الى البصرة حتى أفضت الخلافة الى المعتصم عاد فمدحه ومدح الواثق من بعده . وهو شاعر مطبوع ، حسن الافتنان فى ضروب الشعر / انظر الأغانى : ١٤٧/٧ - ٢٢٨ ، الوفيات ، ١٦٤/٢ ، تاريخ بغداد : ٥٤/٨ ، والأبيات فى الطبرى : ٤٤٧/٨ .

حتى لم يبق فى دار السلام الا العاجزون أو المجرمون . يقول الوراق فــــى ذلك :ـ (١)

لم يبق فى بغداد الا امــرؤ * حالفه الفقر كثير العيـــال .
لا أم تحمى عن حماهلـــا ولا * خال له يحمى ولا غير خـــال .
ليس له مال سوى مطـــــرد * مطرده فى كفه رأس مـــال .
هان على الله فأجرى علـــى * كفيه للشقوة قتل الرجـــال .
ان صار ذا الأمر الى واحــد * صار الى القتل على كل حال .

ومادام الأمر قد وصل الى ماوصل اليه من الدمار والاستهتار بالدمـــاء والأعراض فحق اذن لأهل بغداد الذين ذاقوا فيها حلاوة العيش أن يبكوهـــا من قلوبهم عند تبدل حالها ، يقول بعض فتيانها :

بكيت دما على بغـــداد لمـــا * فقدت غضارة العيش الأنيق . (٢)
تبدلنـــا همومـــا من ســــرور * ومن سعة تبدلنا بضيـــق .
أصابتها من الحســـاد عـــين * فأفنت أهلها بالمنجنيـــق .

ثم يأخذه فى تفصيل مصائر القوم قائلا :

فقوم أحرقوا بالنار قســـرا * ونائحة تنوح على غريـــق .
وصائحة تنادى واصباحـــا * وباكية لفقدان الشفيـــق .
وحوراء المدامع ذات دل *مضمخة المجاسد بالخلـــوق .
تفر من الحريق الى انتهـــاب *ووالدها يفر الى الحريـــق .
وسالبة الغزالة مقلتيهـــــا * مضاحكها كلألأة الـــبروق .
حيارى كالهدايا مفكـــرات * عليهن القلائد فى الحلوق .
ينادين الشفيق ولا شفيـــق * وقد فقد الشقيق من الشقيق .

---

(١) المصدر السابق : ٤٦٠ .

(٢) المصدر نفسه : ٤٥٧ .

وقوم أخرجوا من ظل دنيا * متاعهم يباع بكل سوق .

ومغترب غريب الدار ملقى * بلا رأس بقارعة الطريق .

توسط من قتالهم جميعا * فما يدرون من أي الفريق .

فلا ولد يقيم على أبيه * وقد هرب الصديق بلا صديق .

أن قائل هذه الأبيات يرسم صورة حيه ناطقة لتلك المشاهد الحزينة التى خلفتها هذه الفتنة العمياء التى أججها نكث العهود المبرمة ، ودسائس الوزراء الغششة التى تكن صدورهم الكيد والحقد للمسلمين ، وقد وشى الشاعر صوره باطار أسود نابع من شدة حزنه وبكائه وهو يسمع النائحات الثكالى على ذويهن الذين أحرقوا بالنار أو ألقوا فى الأنهار ، وهو يرى النساء الغيد ، ربات الخدور يؤخذن سبايا وينتهبن كالسلع والمتاع ، وقد بحت حلوقهن من الصراخ والاستغاثة .... ولكن لا مغيث ولا ناصر ، وكأن الناس فى يوم القيامة فلا ولد يعرف أباه ، ولا الصديق صديقه أو أخاه .

ومازاد الأمر سوءا والوضع تفجرا كون الخليفة الأمين ماجنا متهتكا لا يتوقف عن شرب الخمر مع غلمانه وجواريه المغنيات حتى فى أحلك الظروف فما كان منه فى أيامه الأخيرة وعندما حصر بقصره المسمى بقصر الخلد الا أن أطلق أيدى الذعار والشطار والعيارين وأهل السجون ، واللصوص والأفارقة الزنوج فى بغداد وأصبح هؤلاء هم الساده ووضع لهم رئيسا يسمى الهرش فلا تسأل عما أحدثه هؤلاء من البلاء والرعب الشديد بأهل بغداد حتى انهم كانوا يسلبون البيوت كل مافيها ثم يدمرونها ويحرقونها لا لشئ الا رغبة فى الفساد والفوضى ، ويصف الطبرى مافعله هؤلاء الأوباش بقوله : " .... فكان منهم فى ذلك مالم يبلغنا أن مثله كان فى شئ من سائر بلاد

الحروب " . وقد أمر الأمين الهرشى ومن معه من الأشرار بمهاجمة الكرخ ، والكناسه وأرباض المدينه ، كما بعث معهم غلاما له يسمى زريحا وأمره بتتبع الأغنياء وجمع أموالهم لينفقها سيده الخليفة على لهوه ولعبه ، ففعل ذلك وجمع أموالا كثيرة ففر الناس وخاصة الأغنياء من تلك المناطق بعلة أنهم يريدون الحج ، فقال بعضهم :- (٢)

أظهروا الحج وما ينوونه * بل من الهرش يريدون الهرب .

كم أناس أصبحوا فى غبطة * وكل الهرش عليهم بالعطب .

كل من راد زريح بيته * لقى الذل ووافاه الحرب".

وقد هزت الفتنة العظيمة الشاعر الكبير أبا يعقوب الخريمى (٣) فقال فى ذلك قصيدة عصماء بلغت حوالى سته وثلاثين ومائه بيت ، وتعتبر هذه القصيدة من أوائل النصوص الشعرية المتكاملة التى قيلت فى رثاء مدينة دمرت .

---

(١) تاريخ الطبرى : ٨/٤٥٦ .

(٢) المصدر نفسه : ص ٤٦٣ .

(٣) هو اسحاق بن حسان بن قوهى ، أصله من الصغد وهى كوره عاصمتها (سمرقند) ، تنقل فى البلاد حتى ظفر بعثمان بن خريم القائد الشجاع فلازمه ومدحه حتى نسب اليه ، ثم نزل بغداد أيام الرشيد واتصل بأشهر أدبائها وبقى فيها الى أن شهر فتنة الأمين والمأمون ثم توفى سنة ٢١٤ هـ ، وهو شاعر متقدم مطبوع ، وكلامه عذب حسن قال عنه ابن المعتز : كان الخريمى شاعرا مفلقا مطبوعا مقتدرا على الشعر ، وقال عنه أيضا أنه من المشهورين .

طبقات ابن المعتز : ٢٩٣ . وانظر ، الجراح ، الورقة : ١٠٩ ، ديوان الخريمى : ٥ ، البيان والتبيين : ١/١١٥ .

وقصيدته بطولها فى الطبرى : ٨/٤٤٨ ومابعدها .

يمهد الخريمى لقصيدته الطويله بذكر حال بغداد قبل أن يطرقها حدثان الدهر فيقول :-

قالوا : ولم يلعب الزمان ببغـ * ـداد وتعثر بها عواثرها .

اذ هى مثل العروس باطنها * مشوق للفتى وظاهرها .

جنة خلد ودار مغبطة * قل من النائبات واترها .

درت خلوف الدنيا لساكنها * وقل معسورها وعاسرها .

وانفرجت بالنعيم وانتجعت * فيها بلذاتها حواضرها .

فالقوم منها فى روضة أنف * أشرف غب القطان زاثرها .

دار ملوك رست قواعدها * فيها ومرت بها منابرها .

أفراخ نعمى فى ارث مملكة * شد عراها لها أكابرها .

ومما يلفت النظر فى مطلع هذه القصيدة أن الشاعر بدأها بقوله : قالوا وكأنه يريد أن يتحدث عن قصة قديمة رغم كونه من شهود الفتنة ، وممن حضروا الحرب فى ميدانها حيث كان يقيم فى بغداد .

ولعله أراد من ذلك اظهار مقدار الدمار والخراب الذى حل ببغداد وماصاحب ذلك من قتل وتشريد لأهلها وبالتالى بيان حزنه وألمه الشديد فكان لسان حاله يقول : كانت هنا مدينة اسمها بغداد وكانت من الحسن والجمال كأنها جنة وكأنها . . . . . . الخ فهو يتنهد ويطلق زفراته الحزينة من أول القصيدة للمفارقة الحاصلة بين ماضى تلك المدينة الزاهر فهى دار الملوك وموطن الأكابر الذين شدوا عرى الدولة وساسوها بالحكمة ، كما هى أيضا مرتع خصب لأصحاب اللذات والعيش الرغيد .

بينما حالها بعد أن تولى أمور الملك سفهاؤها تبدل وحدث ماحدث يقول :

فلم يزل والزمان ذو غير * يقدح فى ملكها أصاغرها .
حتى تساقت كأسا مثلة * من فتنة لا يقال عاثرها ؛
وافترقت بعد ألفة شيعا * مقطوعة بينها أواصرها .

ثم يبين أن سبب هذه الفتنة التى لا تقال عثرتها هم الملوك الذين اتبعوا أهواءهم ، وغلب عليهم حب الحياة ، وحب الملك والسيطره ، ولو كان ذلك على حساب رعيتهم . أضف الى ذلك أنهم لم يجدوا الناصح الأمين التقى الذى يزجرهم عن غيهم :

ياهل رأيت الأملاك ماصنعت * اذ لم يرعها بالنصح زاجرها .
أورد أملاكنا نفوسهم * هوة غى أعيت مصادرها .
ماضرها لو وفت بموثقها * واستحكمت فى التقى بصائرها .
ولم تسافك دماء شيعتها * وتبتعث فتية تكابرها .
تبغى فضول الدنيا مكاثرة * حتى أبيحت كرها ذخائرها .

ويستمر هؤلاء الملوك فى غيهم حتى تحتدم الحرب الطاحنة التى تكاد تقضى على كل مظاهر الحياة فى بغداد ، فالجنان الزاهره أصبحت رمادا والقصور الشاهقة أقفرت من سكانها فأصبحت :

قفرا خلاء تعوى الكلاب بها * ينكر منها الرسوم زائرها .
وأصبح البؤس مايفارقها * الفا لها والسرور هاجرها .
فأين حراسها وحارسها * وأين مجبورها وجابرها .
أين الجرادية الصقالب وال * أحبش تعدو هدلا مشافرها . (١)
أين الظباء الأبكار فى روضة الـ * ملك تهادى بها غرائرها .
أين غضاراتها ولذتها * وأين مجبورها وجابرها :

---

(١) يشير فى هذا البيت الى الأنواع المجلوبة من الموالى والفتيان الذين امتلأت بهم بغداد .

وهكذا يمضى الشاعر فى بكائه وتفجعه على ما أصاب عاصمة الخلافة من الدمار والبوار فذهب فتيانها واماؤها ورقاصها وزامرها .... الخ وهو يكرر كلمة (أين) ليدلل على شدة حزنه وصدق عاطفته ، كما يدلل أيضا على التحول الخطير فى حالة المدينة فقد ذهب منها كل شئ حتى انها :

أمست كجوف الحمار خالية * يسعرها بالجحيم ساعرها .

كأنما أصبحت بساحتهم * (عاد) وستهم صراصرها .(١)

ويضيف الخريمى سببا آخر للفتنة وهو فساد الناس وبعدهم عن الدين واستحلالهم ما حرم الله ـ تعالى ـ فعاقبهم الله بالجوع والخوف والهلاك جزاء كفرهم بنعمه يقول :ـ

يابؤس بغداد دار مملكة * دارت على أهلها دوائرها .

أمهلها الله ثم عاقبها * لما أحاطت بها كبائرها .

بالخسف والقذف والحريق وبال * حرب التى أصبحت تساورها .

كم قد رأينا من المعاصى ببغدا * د ، فهل ذو الجلال غافرها .

حلت ببغداد وهى آمنة * داهية لم تكن تحاذرها .

طالعها السوء من مطالعه * وأدركت أهلها جرائرها .

رق بها الدين واستخف بذى ال * فضل ، وعز النساك فاجرها .(٢)

وخطم العبد أنف سيده * بالرغم ، واستعبدت حرائرها .

وصار رب الجيران فاسقهم * وابتز أمر الدروب ذاعرها .

فهذه هى سنة الله ـ تعالى ـ يمهل ولا يهمل ، وهكذا كان الحال بالنسبة لبغداد وأهلها فقد أتاهم الله بسطة فى الرزق والنعم ، ولكنهم تمادوا

---

(١) صراصرها : هى ريح جافة مهلكة بعثها الله على قوم عاد ، قال تعالى : (وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتيه) . الحاقه آيه ٦ .

(٢) عزّ : غلب . / اللسان (عزز) .

فى اقتراف المعاصى والكبائر فأرسل الله عليها هذا العذاب من حيث لا تشعر

ثم يعرض الشاعر لحالة بعض الأحياء من بغداد كمحلة الكرخ ، وهذه المحلة كانت بؤرة فساد وانحلال ، فكان فيها سوق الجوارى وسوق النخاسة وسوق الخمر والفواحش وغير ذلك .

فسلط الله عليها من لصوصها وعياريها ، وعراتها من يسومها سوء العذاب . يقول :-

والكرخ أسواقها معطلة * يستن عيارها وعائرها . (١)

أخرجت الحرب من سواقطها * آساد غيل غلبا تساورها .

من البوارى تراسها ومن الـ * خوص اذا استلأمت مغافرها . (٢)

تغدو الى الحرب فى جواشنها الـ * صوف اذا ماعدت أساورها . (٣)

كتائب الهرش تحت رايته * ساعد طرّارها مقامرها .

لا الرزق تبغى ولا العطاء ولا * يحشرها للقاء حاشرها .

فى كل درب وكل ناحية * خطارة يستهل خاطرها .

بمثل هام الرجال من فلق الصخـ * ـر يزود المقلاع بائرها .

---

(١) يستن : يضطرب / اللسان (سنن) .

(٢) البوارى : جمع بارية ، وهى الحصير المنسوج ، فارسية معربة / الصحاح (بور) .

استلأمت : ليست لامة الحرب وهى الدرع / المغافر : جمع مغفر ، زرد يلبس تحت القلنسوه .

(٣) الجواشن : جمع جوش ، وهو الدرع / الصحاح ، (جشن) .

وهؤلاء الأشرار الذين يذكرهم الخريمي ، قد أوتوا من الشجاعة الفائقة والتفنن في ضروب القتال ماجعلهم يصمدون في وجه جيش طاهر بن الحسين فترة طويلة ، ويؤخرون سقوط بغداد في يده مايقارب من ثلاث سنوات ، على أنهم لم يكونوا يملكون من السلاح الا الحجارة والمقلاع الذى يقذفها ، وترسا من الخوص ، وكانوا عراة من الملابس الا بعض الجواشن من الصوف وفيهم يقول الشاعر : ـ (١)

كم بصير غدا بعينين كوبيـ * ـصر ماحالهم فساد بعين .

ليس يخطون مايريدون مايعـ * ـمد راميهم سوى الناظرين .

وهؤلاء القوم لابد أن يكونوا قد نشأوا نشأة فيها كثير من الفقر والحرمان بجانب الغنى المفرط في المجتمع العباسي المفتوح ، فحملوا في أنفسهم غيظا ، وحقدا على هذا المجتمع وتمنوا خرابه . وقد حانت فرصتهم عندما شبت نار هذه الفتنة ، فاهتبلوها وأصبحوا هم السادة المسيطرين وتبلغ عاطفة الشاعر الحزينة ذروتها عندما يأخذ في تصوير حالة النساء اللواتي أخرجتهن الحرب سافرات والهات لايجدن ملجأ ولا يهتدين سبيلا ، كما يصور لنا أحوال الأمهات اللواتي ثكلن أولادهن بطريقة واقعية فنية تجعل الدمع يقفز من عيون القاسية قلوبهم ، يقول :

كل رقود الضحى مخبأة * لم تبد في أهلها محاجرها .

بيضة خدر مكنونة برزت * للناس منشورة غدائرها .

تعثر في ثوبها وتعجلها * كبة خيل ريعت حوافرها .

تسأل : أين الطريق ؟ والهة * والنار من خلفها تبادرها .

---

(١) الشاعر هو الوراق ، الطبري : ٨/٤٦٦ ، وانظر أخبارهم وقصة حروبهم مع أصحاب طاهر وغيرهم في المصدر السابق ص ٤٥٨ .

لم تجتل الشمس حسن بهجتها * حتى اجتلتها حرب تباشرها .

ياهل رأيت الثكلى مولولة * فى الطرق تسعى والجهر باهرها .

فى اثر نعش عليه واحدها * فى صدره طعنة يساورها .

تنظر فى وجهه وتهتف بالثكـ * ـل وجارى الدموع حادرها .

غرغر بالنفس ثم أسلمها * مطلولة لا يخاف ثائرها .

ان شعراء رثاء الدول والمدن فى الشعر العربى دائما يركزون على المرأة وما أصابها من ذل ومهانة من جراء فقدها للمعيل ، ووقوعها فى يد العدو ومايجر اليه ذلك ، وهم فى هذا يضربون على أوتار القلوب الحساسة لدى السامعين أو القارئين الذين يتفاعلون مع القصيدة بدورهم ، لما للعرض والشرف من المنزلة فى نفس العربى أو المسلم ، وبهذا يكون الشاعر قد وفق لنقل الصورة التى فى نفسه الى نفوس الآخرين .

وفى المقطع الأخير من القصيدة يتشبث الشاعر بحبل الرجاء فى أن يلتئم الشمل وتعود البلاد الى ماكانت عليه من الازدهار :

ياليت شعرى والدهر ذو دول * يرجى وأخرى تخشى بوادرها .

هل ترجعن أرضنا كما غنيت * وقد تناهت بنا مصائرها .

ولا بد له من أن يقف من المأمون ـ الذى أصبح خليفة ، وبويع له بعد أن قضت الفتنة على الأمين (١) ـ موقف الناصح والمادح فقد أصبح هو أمل الأمة المرتجى لما يتحلى به من صفات كريمة كالتقى والعدل وحسن السياسة

---

(١) هلك الأمين سنة ثمان وتسعين ومائة ، واحتز رأسه وبعث الى المأمون ودخل طاهر بن الحسين بغداد ، وأخذ البيعة للمأمون فى خبر طويل / انظر الطبرى : ٨/٤٧٨ - ٤٨٧ .

والأدب ، كما لا ينسى الشاعر أن يمدح وزيره الحكيم ، ومدبر دولته الداهيه المسمى بذى الرئاستين (١) يقول :ـ

من مبلغ " ذا الرياستين " رسـا * لات تأتى للنصح شاعرها .

بأن خير الولاة ، قد علم النـ * ـاس ، اذا عدت مآثرها .

خليفة الله فى بريتـه الـ * مأمون منتاشها وجابرها .

سمت اليه آمال أمتـه * منقادة برها وفاجرها .

شاموا حيا العدل من مخايله * وأصحرت بالتقى بصائرها .

واستجمعت طاعة برفقك للـ * مأمون نجديها وغائرها .

وأنت سمع فى العالمين لـه * ومقلة مايكل ناظرها .

أصبحت فى أمة أوائلها * قد فارقت هديها أواخرها .

وأنت سرسورها (٢) وسائسها * فهل على الحق أنت قاسرها .

أدب رجالا رأيت سيرتهم * خالف حكم الكتاب سائرها .

وأمدد الى الناس كف مرحمة * تسد منهم بها مفاقرها .

فهو هنا يشير الى اجتماع أهل الأقطار على طاعة المأمون ووزيره ويصفهم بالحنكة فى تدبير الأمور ومتابعتها ، كما يحضهم على قسر الأمة على الحق

---

(١) هو الفضل بن سهل . وسمى بذى الرياستين ، رياسة الحرب ورياسة التدبير سماه بذلك المأمون عندما عقد له لواء الولاية على المشرق من جبل همذان الى التبت طولا ، ومن بحر فارس الى بحر الديلم وجرجان عرضا وذلك سنة ١٩٦ هـ ، بعد مقتل على بن عيسى قائد جيش الأمين على يد طاهر بن الحسين / انظر الطبرى : ٨/٤٢٤ .

(٢) السرسور : الفطن العالم الذى يقوم بالأمور / اللسان مادة (سرر) .

قسرا ذلك لأنها قد فارقت هدى الصالحين الأوائل فى كثير من أمورهــــا ، وبرز فيها قوم تجافوا عن هدى الكتاب العزيز فهم بحاجة الى التأديـــب والضرب على أيديهم ، ثم يوجه خطابه الى ذى الرياستين مذكرا أياه بحــق القرابة والأرحام الذى بينهما ولعله أراد بذلك الأصل الفارسى الذى يجمعها ويهدى اليه قصيدته هذه التى اعتبرها فى مقام النصيحة لوجه الله ـ تعالى ـ فلم يقلها طامعا فى مغنم ولا شهوة فى قول الشعر وانما هى زفرة نفس بهـــا عما يجده فى صدره :ـ

كم عندنا من نصيحة لك فى اللـ * ـه وقربى عـزت زوافرهــــا .

وحرمة قربت أواصــرهــــــا * منك ، وأخرى هل أنت ذاكرها .

دونك غراء كالوذيلـــــة (١) لا * تفقـد فى بلدة سوائرهــــا .

لا طامعا قلتها ولا بطـــــرا * لكل نفس هـوى يؤامرهــــا .

سيرها الله بالنصيحــــة والـ * خشية فاستحكمت مرائرهــــا . (٢)

جاءتك تحكى لك الأمور كمــا * ينشر بز التجـــار ناشرهــا .

وبعد ، فلقد عاش الخريمى هذه التجربة المريرة المؤلمة ، وأحسها بقلبه ومشاعره وعواطفه ، فكانت النتيجة هذه الرائية الرائعة التى صورت الحوادث الداميه أوضح تصوير وأصدقه ، فلقد كان الشاعر ينتقل من مشهد الى مشهد في سلسلة المآسى فى واقعية بعيدة عن الخيال لأنه كان يصف حوادث تجـــرى أمام عينيــه ، لذلك تراه يكثر من استعمال "ياهل رأيت" فقد أتى بها نحــوا من ست مرات فى قصيدته ، وتكشف القصيدة عن شاعرية الخريمى الفذة ، وطول

---

(١) الوذيله : المرآة ، أو القطعة من الفضة / أساس البلاغة : (وذل) .

(٢) المرائر : الحبال القوية المفتولة على أكثر من طاق / اللسان (مرر) .

نفسه فى الشعر ، فان الذى ينظم مثل هذه القصيدة لا بد أن يكون قد قال الكثير من أمثالها وان كان لم يصلنا من شعره الا اليسير ، يذكر ابن النديم أن للخريمى ديوانا فى مائتى ورقه . (١)

كما نتبين أيضا أسلوب الشاعر الجزل مع السهولة ، فالخريمى شاعر مطبوع يبتعد عن أى تكلف أو استكراه ، ولا نكاد نحس بشئ من ذلك فى قصيدته بالرغم من طولها وبيدو أنه يميل الى مذهب البداوة فيأتى ببعض الكلمات الصعبة التى تحتاج الى تفسير ، وهى ذات دلالة فى ـ الوقت نفسه ـ على سعة محفوظه من مفردات العربية وتراكيبها . فالخريمى ـ بلا شك ـ شاعر فذ مغلق، ألقى قصيدة عصماء تعتبر دعامة أساسية لفن رثاء الدول والمدن فى الشعر العربى .

وهناك قصيدة أخرى فى رثاء بغداد وبكاء أهلها أثناء فتنة الأمين والمأمون لشاعر يعرف بعلى بن أبى طالب ويلقب بالأعمى (٢) . وهى لا تخرج فى مضمونها ومعانيها عما تقدم من القصائد التى أوردناها ويبدأها متأسفا على ذهاب حسنها ويرد ذلك الى حكم القدر ، فيقول :

كأن لم تكن بغداد أحسن منظرا * ولم تك ملهى رأته عين لاه وناظر .

بلى ، هكذا كانت فأذهب حسنها * وبدد منها الشمل حكم المقادر .

وحل بهم ما حل بالناس قبلهم * فأضحوا أحاديثا لباد وحاضر .

ثم يقف الشاعر وقفة تأمل واستعبار ويخاطب بغداد التى غدت أطلالا بعد أن كانت دار الملوك أهل المواكب الفخمة ودار القضاة والشعراء والأدباء . . . . . . الخ .

---

(١) انظر الفهرست : ١٦٤ .

(٢) المسعودى ، مروج الذهب : ٣/٤١٠ .

أبغداد يادار الملوك ، ومجتنى * صنوف المنى ، يامستقر المنابر .

وياجنة الدنيا ، ويامطلب الغنى * ومستنبط الأموال عند المتاجر .

أبينى لنا : أين الذين عهدتهم * يحلون فى روض من العيش زاهر . ؟

وأين الملوك فى المواكب تغتدى * تشبه حسنا بالنجوم الزواهر . ؟

وأين القضاة الحاكمون برأيهم * لورد أمور مشكلات الأوامر ؟

أو القائلون الناطقون بحكمة * ورصف كلام من خطيب وشاعر .

وهكذا يمضى الشاعر يندب أهل بغداد من شتى الأصناف ويسائل عنهم ربوعهم ونوادبهم مكررا كلمة " أين " الدالة على الدهشة والتساؤل الحزين ... ولكن لا مجيب الا الذكريات والعبر وفى نهاية القصيدة ـ بعد أن يذكر قصور الملوك وجواهرها ، وأرضها المرشوشة بالمسك وماء الورد ـ بعد هذا ينحى باللوم على الملوك الذين أهملوا أمر الدولة واكتفوا بمجدهم القديم الذى بناه آباؤهم فعاشوا فى سكرة الماضى ولم يفيقوا الا على طبول الحرب تزلزلهم :ـ

فما للملوك الغر من آل هاشم * وأشياعهم فيها اكتفوا بالمفاخر .

يرحون فى سلطانهم وكأنهم * يرحون فى سلطان بعض العشائر .

تخاذل عما نالهم كبراؤهم * فنالهم بالكره أيدى الأصاغر .

فأقسم لو أن الملوك تناصروا * لذلّت لها خوفا رقاب الجبابر . (١)

الثورة على المتوكل وقتله :ـ

فى سنة اثنتين وثلاثين ومائتين توفى الخليفة العباسى الواثق بالله ، وبويع بعده لجعفر بن محمد بن هارون الملقب بالمتوكل على الله (١)، وهو

---

(١) القصيدة طويلة بلغت سبعة وثلاثين بيتا أوردت هنا بعضها .

(٢) الطبرى : ٩/١٥٤ .

عاشر خليفه عباسى فى مدة قرن من الزمان فقام بالأمر بحزم ورتب الدواوين وعزل وولى ، وشدد قبضته على القواد الأتراك الذين كانوا هم أولى الأمر فى أيامه وأيام من سبقه منذ عهد المعتصم تقريبا ، ووجههم الى الغزو فاستطاع بذلك أن يصون بلاده من غارات الروم المتكرره كما استطاع بدهائه أن يقمع الخارجين على سلطانه فى أنحاء المملكة الواسعة وأن يحافظ على غزوتى الصائفة والشاتية كما أحدث المتوكل أمرا جديدا بالنسبة للنصارى ـ أهل الذمه ـ فأمرهم بلبس الطيالسه العسلية والزنانير والقلانس التى تخالف قلانس المسلمين ، وأن يضع كل واحد منهم رقعه على صدره وأخرى على ظهره وأن يكون لونهما عسليا ، وأمر أن يجعل على أبواب دورهم صور شياطين من خشب مسموره تفريقا بينها وبين منازل المسلمين ، وهدم بيعهم المحدثه وأخذ العشر على منازلهم ومنعهم من اظهار الصليب فى أعيادهم . ونهى عن الاستعانة بهم فى الدواوين وأعمال السلطان لكى لا تجرى أحكامهم على المسلمين ، ونهى أيضا عن أن يتعلم صبيانهم فى كتاتيب المسلمين وغير ذلك . (١)

ومن ناحية أخرى فقد كان المتوكل محبا للأدب والشعر والغناء كما كان وزيره الفتح ابن خاقان كذلك . فازدهرت الآداب والعلوم فى عصره ، وكان يجزل الهبات للشعراء ويقربهم من مجلسه ، فقد كان نديمه وشاعره الخاص أبا عبادة البحترى الشاعر العباس المشهور . ويروى عنه أنه كان يعفو عن بعض الثائرين عليه عندما يعلم أن عنده أدبا حسنا (٢) وكان المتوكل كلفا

---

(١) المصدر نفسه : ص ١٧١ .

(٢) المصدر نفسه : ص ١٧٠ ، انظر قصته مع ابن البعيث الثائر .

بالعمران والبناء ، فقد عقد العزم سنة خمس وأربعين ومائتين على أن يبنى له مدينة تخلد اسمه وتنسب اليه فاختار موضعا يقال له الماحوزه ، وبنى مدينة الجعفرية ، وبنى بها قصورا فخمة أشهرها قصره الجعفرى الذى قتل به ، وانتقل اليها سنة سبع وأربعين ومائتين ونقل اليها الدواوين ، وأنفق عليها فيما قيل أكثر من ألفى ألف دينار ، وجمع فيها القراء فقرأوا ، ثم حضر أصحاب الملاهى فوهب لهم أموالا كثيرة . وقد مكث بها قرابة تسعة أشهر وثلاثة أيام ثم قتل . أما سبب قتله فكان السبب نفسه الذى اشتعلت به الفتنة بين الأمين والمأمون وهو ولاية العهد . ففى سنة خمس وثلاثين ومائتين عقد المتوكل البيعة لبنيه الثلاثة محمد وسماه المنتصر ، والزبير ولقبه المعتز وابراهيم ولقبه المؤيد ، وقسم البلاد بينهم ، ولم يأخذ العبرة مما صنع الرشيد من قبله وما آل اليه الأمر بل كتب بذلك كتابا وأشهد عليه وجعل ولاية عهد المسلمين لمحمد ثم للمعتز ومن بعده للمؤيد ، ولكن وزراء المتوكل كالفتح بن خاقان وعبيد الله بن يحيى كانوا يميلون الى المعتز أكثر من المنتصر فمازالا بالمتوكل حتى أقنعاه بأن يصلى المعتز بالناس الجمعه وقد كان المتوكل قد عهد الى المنتصر بذلك حيث كان هو يشكو من وعكة وضيق صدر فوافق على ذلك وتم ماأراد الوزراء ، ثم أمر المتوكل أن يضرب اسم المعتز على السكه ، فكانت هذه ارهاصات لتقديم المعتز على المنتصر بولاية العهد الأمر الذى أوغر صدر المنتصر على أبيه فراح يدبر الأمر للتخلص منه ، وبالفعل اتفق مع القواد الأتراك أمثال باغر التركى وبغا الشرابى ، وغيرهم ، وثبوا عليه فى مجلسه ليلا فقتلوه وقتلوا وزيره الفتح بن خاقان ، وبويع المنتصر فى اليوم التالى بالخلافة ، وخلع أخويه من ولاية العهد وانتقل الى سامراء وأمر بمدينة الجعفرية والقصر الجعفرى أن يهدما ، فخربت تلك القصور ونقض

---

(١) ابن رسته : الأعلاق النفسية : ٧/٣٦٦ - ٣٦٧ .

بنيانها وهجرها الناس وفى هذا يقول البحترى : (١)

تغير حسن الجعفرى وأنسه * وقوض بادى الجعفرى وحاضره .

تحمل عنه ساكنوه فجاءة * فأضحت سواء دوره ومقابره .

ولم أر مثل القصر اذ ريع سربه * واذ ذعرت أطلاؤه وجآذره .

واذ صيح فيه بالرحيل فهتكت * على عجل أستاره وستائره .

اذا نحن زرناه أجد لنا الأسى * وقد كان قبل اليوم يَبْهجُ زائره .

ووحشته حتى كان لم يقم به * أنيس ولم تحسن لعين مناظره .

كأن لم تبت فيه الخلافة طلقة * بشاشتها والملك يشرق زاهره .

ولم تجمع الدنيا اليه بهاءها * وبهجتها والعيش غض مكاسره .

فأين الحجاب الصعب حين تمنعت * بهيبتها أبوابه ومقاصره .

ان البحترى عندما يقف باكيا على أثار القصر الجعفرى فانه يؤدى بذلك حقا ودينا عليه لولى نعمته الخليفة المتوكل ، ومن ثم فهو لا يقف على أثر دارس ، ولا يبكيه من بعيد ، بل هو يرثيه عن خبرة به ، فلطالما تردد على بلاطه ، ودبج المدائح فى فنائه ، ونال جوائزه وصلاته . فالشاعر كان يعزى نفسه أثناء رثائه للقصر الذى أصبح حطاما ورحل عنه من كان يعمره من أهله وخدمه وغلمانه وجواريه . . . . ، وماأسرع مادب اليه الخراب فلم يعش أكثر من سنة واحدة ، ثم هتكت أستاره وستائره ، فهو مظلم موحش بعد أن كان يتلألأ ببهجة الخلافة وبشاشتها . ثم يشتد الحزن بالشاعر عندما يذكر سيده الخليفة وكيف صرع فيقول :-

وأين عميد الناس فى كل نوبة * تنوب وناهى الدهر فيهم وآمره .

تخفى له مغتاله تحت غرة * وأولى لمن يغتاله لو يجاهره .

---

(١) ديوانه : ١٠٤٥/٢ ومابعدها .

صريع تقاضاه السيوف حشاشة * يجود بها الموت حمر أظافره . (١)

وبعد هذه الصورة المؤلمة التى يرسمها الشاعر للخليفة المغتال غدرا والتى يحاول فيها اثارة أهل الدم للثأر من القتلة المتآمرين ، يعود لنفسه فيذكر أن رأس هذه الشرذمة هو ابن الخليفة وليه ، وهو القائم بالخلافة بعده ، فلابد اذن أن يذهب دم المتوكل هدرا .

فحق للشاعر أن يهلك عليه أسى ، وأن يبكيه عمره كله ، فيقول بانفعال غاضب :ـ

حرام علىّ الراح بعدك أو أرى * دما بدم يجرى على الأرض مائره . (٢)

وهل أرتجى أن يطلب الدم واتر * يد الدهر والموتور بالدم واتره .

أكان ولى العهد أضمر غدره * فمن عجب أن ولى العهد غادره .

فلا ملى الباقى تراث الذى مضى * ولا حملت ذاك الدعاء منابره . (٣)

ولا وأل المشكوك فيه ، ولا نجا * من السيف ناضى السيف غدرا وشاهره . (٤)

لنعم الدم المسفوح ليلة جعفر * هرقتم ، وجنح الليل سود دياجره .

والملاحظ على الأبيات الأخيرة أن الشاعر يحمل حملة عنيفة وجريئة على ولى العهد فيدعو عليه بأن يلقى نفس المصير الذى صير أباه اليه ، وكأن الشاعر قد أذهلته المصائب عن التفكير فى العواقب ، وقد صاغ ذلك كله بأسلوبه العذب ، وديباجته الناصعة البعيدة عن الغموض والتكلف .

---

(١) تقاضاه : تطالبه . اللسان (قضى) ، الحشاشة : بقية الروح . اللسان (حشش) .

(٢) المائر : السائل / المصدر نفسه (مور) .

(٣) ملى : متع / المصدر السابق (ملا) .

(٤) وأل : نجا أو التجأ . المصدر السابق (وأل) .

ومادمنا بصدد الحديث عن شعر البحترى فى رثاء المدن والقصور التى خلت من أنيسها واندثرت بعد ازدهار واشتهار ، فلا بد أن نعرض لوقفته على ايوان كسرى ، ذلك الأثر الحضارى الذى بقى أمدا طويلا شاهدا على روعة البنيان ورفعة الحضارة .

ولعل الشاعر قال هذه القصيدة الرائعة بعد مقتل المتوكل وخراب قصوره يفرغ فيها أحزانه ، ويتأسى بالعظماء الذاهبين ، فذكره للايوان وما أصابه يخفف من حزنه على الجعفرى وذكره لكسرى ومصرعه يهون من ألمه لمصرع المتوكل . هذه الحالة النفسية ، ونظرة العظمة التى يراها فى المتوكل هى التى حطت البحترى على الوقوف على الايوان دون غيره من آثار الماضيين ويبدأ قصيدته السينية بوصف حالته المتغيرة التى أوصلته اليها الأيام الجاهدة فى محاربته والحاق التعاسة به ، ولكنه يتجلد ، وهو بهذا يرفع من شأن نفسه لأن الأيام لا تحارب الا من له خطر . يقول : (١)

صنت نفسى عما يدنس نفسى * وترفعت عن جدا كل جبس . (٢)
وتماسكت حين زعزعنى الدهـ * ـر التماسا منه لتعسى ونكسى .
وكأن الزمان أصبح محمو * لا هواه مع الأخس الأخس .
واشترائى العراق خطة غبن * بعد بيعى الشآم بيعة وكس . (٣)
لا ترزنى مزاولا لاختبارى * بعد هذى البلوى فتنكر مسى . (٤)
وقديما عهدتنى ذا هنات * آبيات على الدنيات شمس . (٥)

---

(١) ديوانه : ٢/١١٥٢ - ١١٦٢ .
(٢) الجبس : الجبان اللئيم / اللسان (جبس) .
(٣) الوكس : النقصان والخساره / المصدر نفسه (وكس) .
(٤) ترزنى : تجربنى / المصدر السابق (روز) .
(٥) هنات : خصال ، شمس : عنيدة لا تذل / انظر الآمدى ، الموازنة : ٢/٢٣٤ .

ان الشاعر يحس انقلابا فى حياته ، فالدهر يلعب به ، والأحباب والأقارب يقلبون له ظهر المجن ، ويعاملونه بجفاء ، ونفسه لا تقبل الاقامة على الذل ، فلابد له اذن من الرحيل الى حيث الايوان الداثر ليسلوا عما به . وهو هنا من الناحية الفنية يسير حسب تسلسل قصيدة المدح المعروف بعمود الشعر العربى ، فبعد شرح حالته جاءت الرحله يقول :

وإذا ماجفيت كنت جديرا * أن أرى غير مصبح حيث أمسى .

حضرت رحلى الهموم فوجهـ * ـت الى "أبيض المدائن" عنسى . (١)

أتسلى عن الحظوظ وآسى * لمحل من آل ساسان "درس" .

ذكرتنيهم الخطوب التوالى * ولقد تذكر الخطوب وتنسى .

وعندما يقف الشاعر على محل آل ساسان يرجع بذاكرته الى العهود الخوالى يصف حالهم أيام العز والمجد ، فيقول :

وهم خافضون فى ظل عال * مشرف يحسر العيون ويخسى .

مغلق بابه على جبل القبـ * ـق الى دارتى "خلاط" و"مكس" (٢)

حلل لم تكن كأطلال سعدى * فى قفار من البسابس ملس .

ومساع لولا المحاباة منى * لم تطقها مسعاة عنس وعبس . (٣)

---

(١) أبيض المدائن : قصر الأكاسره ، كان من عجائب الدنيا لم يزل قائما الى أيام الخليفة المكتفى بالله فى حدود سنة ٢٩٠ هـ فانه نقض وبنى بشرفاته التاج الذى بدار الخلافة / معجم البلدان (المدائن) .

(٢) جبل القبق : جبل ضخم يمثل آخر حدود أرمينيه ، يقال أن طوله خمسمائه ميل / معجم البلدان / (القبق) .
خلاط : هى قصبة أرمينية الوسطى ، تشتهر ببحيرتها ، وكثرة فواكهها المصدر نفسه : (خلاط) .
مكس : موضع بأرمينية من ناحية البسفور / المصدر السابق (مكس) ، ـ وانظر : المعرى ، عبث الوليد : ١٢٢ .

(٣) عنس : قبيلة يمنية قحطانية / انظر عمر كحالة ، معجم قبائل العرب : ٧٣٨/٢ ، ٨٤٧ .
عبس : قبيلة عدنانية نجدية ، ومراده من البيت العرب كافة .

نقل الدهر عهدهن عن الجد * دة حتى رجعن أنضاء لبس .

لقد كان القوم فى رغد من العيش وسعة من الرفاهية فى ظل ملكهم الشامخ بجباله وسهوله وأنهاره وشتان بينهم ـ فى ذلك ـ وبين العرب أهل الصحراء والتقشف والعيش الصعب ، كما أن أعمال الفرس ومساعيهم الجليلة لا تقوم بازائها أعمال العرب البسيطة ، ولكنها المحاباة من جانب الشاعر العربى تجعله يقارن هذه بتلك . ثم ينتقل الى حالة الايوان الراهنة المحزنة فيصفها بقوله :

فكأن الجرماز من عدم الأنـ * ـس واخلاله بنية رمس . (١)

لو تراه علمت أن الليالى * جعلت فيه مأتما بعد عرس .

وهو ينبيك عن عجائب قوم * لا يشاب البيان فيهم بلبس .

واذا مارأيت صورة " أنطا * كية " ارتعت بين روم وفرس .

والمنايا مواثل وأنوشر * وان يزجى الصفوف تحت الدرفس . (٢)

فى اخضرار من اللباس على أصـ * فر يختال فى صبيغة ورس .

وعراك الرجال بين يديه * فى خفوت منهم واغماض جرس .

من مشيح يهوى بعامل رمح * ومليح من السنان بترس .

تصف العين أنهم جد أحيا * ء لهم بينهم اشارة خرس .

يغتلى فيهم ارتيابى حتى * تتقراهم يداى بلمس .

---

(١) الجرماز : الايوان (معربة عن كرمازى الفارسية) . حاشية ديوان البحترى : ٢/١١٥٥ .

(٢) أنوشروان : هو كسرى ملك الفرس .

(٣) الدرفس : العلم الكبير . (معرب عن (درفش) الفارسيه . المصدر السابق : ١١٥٦ .

يصف الشاعر فى هذه الأبيات الايوان وصفا حسيا نابضا بالحركة ، يضع البحترى على رأس شعر الوصف ، فهو عندما يصف الجرماز من ناحية هيكله الخارجى يضفى عليه شيئا من الكآبة والوحشة ، وكأنه مقبرة أو مأتم ، ولكنه اذا تأملته عن قرب ينبيك عن تاريخ أمة مجيدة كانت سمع العالم وبصره ثم نرى الشاعر يفتن فى تصوير المشاهد التى يجدها فى جنبات الايوان وكأنه رسام ماهر الريشه ، فهذا منظر مهيب مرعب للحرب بين الفرس والروم فى أنطاكية (١) حيث كسرى أنو شروان يقف بكبرياء تحت اللواء الضخم ينظم صفوف جنده المرججين بالسيوف والرماح والتروس ، ومن خلال الوصف يجعلك تشاهد حركة الجند السريعة ، وتسمع أصواتهم وهمساتهم فلا تكاد تلتقط أنفاسك لشدة متابعتك للحركات المتوالية بسرعة . ويبلغ القمة فى الدقة حينما يبين أن حقيقة هذا المشهد قد عميت عليه بين الحقيقة والظل . حتى يكشف عن ذلك باللمس .

وبعد هذا تفتم نفس الشاعر لذهاب هؤلاء القوم ، فيهرب الى كأس خمر يبدو فيها الاسه :

قد سقانى ولم يصرد أبو الغو * ث على العسكرين شربة خلس . (٢)

---

(١) كانت تسمى أنطوخيا نسبة الى أنطخين اليونانى الذى بناها ، وهى مدينة حسنة الموضع ، كان يقال أنه ليس فى أرض الاسلام ولا أرض الروم مثلها ، وتمثل الآن مايسمى بلواء الأسكندرونه . انظر صبح الأعشى : ٤/١٢٩ ، نزهة المشتاق : ١٦٥ ، محمد الغزالى ، هموم داعية : ٩٧ .

(٢) أبو الغوث : هو يحيى بن البحترى / معجم الأدباء : ١٩/ ٢٥٦ ، يصرّد : يقلل .

أفرغت فى الزجاج من كل قلب * فهى محبوبة الى كل نفس .
وتوهمت أن "كسرى أبرويـ * زمماطى ،و" البلهبذ" أنسى . (١)
حلم مطبق على الشك عينى * أم أمان غيرّن ظنى وحدسى .

وبعد هذا الشرود الخيالى الذى جعل كسرى ينادم الشاعر ،والبلهبذ يشجيه بألحانه وأغانيه ، يفيق من سكرته ليجد أنه كان يغرق فى بحر من الأحلام والأمانى فتعاوده الهموم والأحزان فيصبها أوصافا معنوية لشئ محسوس ، فيجعل الايوان كئيبا مزعجا لفراق الأهل والأحباب . وهذا اللون من الوصف يبعث الحياة فى الجمادات ويعطيها روحا تحس ، وتكون صلة عطف واشفاق ـ مع الشاعر الذى يرثيها . يقول :ـ

وكأن "الايوان" من عجب الصنعـ * ـة جوب فى جنب أرعن جلس . (٢)
يتظنى من الكآبة اذ يبـ * ـدو لعينى مصبح أو ممسى .
مزعجا بالفراق عن أنس الـ * ـف عزّ ، أو مرهقا بتطليق عرس .
عكست حظه الليالى ، وبات الـ * ـمشترى فيه وهو كوكب نحس . (٣)

اننا هنا نشعر بفعالية اللغة من خلال الألفاظ التى يستخدمها الشاعر ، فالجو الذى رسمته كلمات : الكآبة ، ومصبح وممسى . مزعجا بالفراق ..... مرهقا بتطليق عرس . يوحى بالبؤس ويرسم على صفحة الايوان خطوطا من الحزن والتشائم الدائمين ، فهو منكمش على المدى ، قد ولت

---

(١) البلهبذ : هو مغنى كسرى أبرويز ونديمه / انظر معجم البلدان (قصر شيرين) .
(٢) الجوب : الخرق أو النحت فى الجبل ، الأرعن : الجبل ، الجلس : العالى / انظر الثعالبى ثمار القلوب : ١٤٣ .
(٣) المشترى : كوكب من المجموعة الشمسية وهو كوكب سعد عند العرب .

زهرة شبابه ، وباتت سعوده نحوسا ، ولم يعد ينفعه التجلد مادام الدهر قد أناخ بكلكله عليه :

فهو يبدى تجلدا وعليه * كلكل من كلاكل الدهر موسى .

ان الشاعر ـ فيما يبدو ـ فى حالة اضطراب نفسى ، مصحوبة باعجاب لا يجعله يفارق هذا الأثر الحضارى الرائع ، فنراه بعد أن وصف مأتم الايوان يعود مرة آخرى ليذكر أيام هذا الايوان الزاهره ، وماكان يجده كسرى من التعظيم فى رحابه :ـ

ليس يدرى أصنع انس لجن * سكنوه أم صنع جن لانس .

غير أنى أراه يشهد أن لم * يك بانية فى الملوك بنكس .

فكأنى أرى المراتب والقو * م اذا مابلغت آخر حسى .

وكأن الوفود ضاحين حسرى * من وقيوف خلف الزحام وخنس .

وكأن القيان وسط المقاصيـ * ر يرجعن بين حو ولعس .

ثم بعد ذلك يعود للوقوف عليه فى حالة اندثاره مبينا سبب وقوفه وبكائه :ـ

عمرت للسرور دهرا فصارت * للتعزى رباعهم والتأسى .

فلها أن أعينها بدموع * موقفات على الصبابة حبس .

ذاك عندى وليست الدار دارى * باقتراب منها ، ولا الجنس جنسى .

غير نعمى لأهلها عند أهلى * غرسوا من زكائها خير غرس .

أيدوا ملكنا وشدوا قواه * بكماة تحت السنور حمس . (١)

وأرانى من بعد أكلف بالأشـ * ـراف طرا من كل سنخ وأس . (٢)

---

(١) السنور : السلاح الحديدى ، أو الدرع . وهو معرب / انظر الجواليقى المعرب : ٢٠٠ .

(٢) السنخ والأس : الأصل / الصحاح (سنخ) ، (أسس) .

ان الشاعر يقف على ايوان كسرى ، ويبكيه بدموع غزار بالرغم من أنه ليس بداره ، كما أن ساكنيه وملوكه الذين فنوا ليسوا بأهل الشاعر ولا من بني قومه ولكن عاطفة الشاعر الانسانية هي التي تدفعه الى أن يوفي أولئك القوم - الفرس - مالهم من حقوق على دولة بني العباس ، فعلى أكتافهم قامت منذ البداية ، ثم اشتد عودها بفضل القاده والجيوش الضخمه التي قدمت من خراسان وغيرها واستطاعت أن تقمع كل مقاومة حتى ثبت الملك على أساس قوي ، وبما أن الشاعر يعتبر نفسه من بيت الخلافة ولاء وهو لا يقدر على تقديم شيء يذكر لأهل الايوان لفنائهم فلا أقل اذن من أن يقف على آثارهم .

وسبب آخر لوقوف الشاعر على هذا الايوان هو ولعه بالأشراف والساده الكرام عامه ، بغض النظر عن جنسهم ولونهم ، وكأنه يريد - من وراء ذلك - أن يبين لنا منزلته ، وأي رجل هو .

أما القصيدة فهي في الذروة من الشعر العربي ، صاغها الشاعر بأسلوبه السلس السهل وان كان أحيانا يعمد الى الفخامة حينما يتطلب الموقف ذلك ولكن في غير توعر ولا تقعر ، فألفاظه حلوة الجرس لا تكاد تحس فيها غلظه وقد وشى البحتري قصيدته بألوان من المحسنات ، وبخاصة الطباق والمقابلة التي وقعت في مواضعها أحسن موقع لأنها جاءت من غير تعمل ، كقوله " ولقد تذكر الخطوب وتنسى " ، وقوله : " وهم خافضون في ظل عال ..... " . كما أنه وفق لروي مناسب للقصيدة " السين المخفوضة " اذ أنه حرف هامس يناسب موقف الرثاء والحزن ، وأدت الكسرة - أيضا - دورها في زيادة التأثير .

يقول ابن المعتز عن البحتري : " لو لم يكن له الا قصيدته في ايوان كسرى فليس للعرب سينيه مثلها - وقصيدته في بركة المتوكل لكان أشعر الناس " .(١)

---

(١) طبقات الشعراء : ٢٨٦ .

ومن سبق البحتري بزمن طويل في الوقوف على بقايا ايوان كسرى الشاعر آدم (١) ابن عبد العزيز ، ومقطوعته التى وصلت الينا قليلة الأبيات ولكنها ذات معان كبيرة .

يقول : (٢)

أقول وراعني ايوان كسرى * برأس معان أو أدرو سفان .

وأبصرت البغال مربطات * به من بعد أزمنة حسان .

يعز على أبي ساسان كسرى * بموقفكن في هذا المكان .

شربت على تذكر عيش كسرى * شرابا لونه كالزعفران .

ورحت كأننى كسرى اذا ما * علاه التاج يوم المهرجان .

ان الشاعر ـ كما يبدو لى ـ يتخذ من الوقوف على ايوان كسرى تعلة للبكاء على ملك قومه الأمويين الذى أحيط به ، وأصبح عبرا وأحاديث ، ونظرا للوضع الذى كان يعيش فيه الشاعر عبّر بالتلميح بدل التصريح . ويتألم آدم بن عبد العزيز لما حل بهذا الايوان الضخم من نوائب الدهر ، حتى أصبح مربطا للبغال ، من بعد أن كان مقرا للحسان ، ومرتعا للظباء .

---

(١) هو آدم بن عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز بن مروان . كان بالشام حين ذهب ملك قومه الأمويين ، وأراد العباسيون قتله مع من قتلوا بنهر أبى فطرس ، ولكنه استعطفهم فتركوه ، وقيل لقرابته من عمر بن عبد العزيز ، ثم عاش بعد ذلك فى العراق ، فهو من مخضرمى الدولتين . وقد كان ماجنا خليعا فى أول حياته ثم نسك بعد ماعمر ومات على طريقة محموده سنة ١٦٠ هـ / انظر الأغانى : ٢٨٧/١٥ ، الشكعه ، رحلة الشعر : ٤٩٥ .

(٢) الأغانى : ٢٨٦/١٥ .

وهذا الوضع المؤسف مايحزن ويؤلم كسرى ـ صاحب الايوان ـ الذى يتقمص الشاعر شخصيته وينطق بلسانه معبرا عن شعوره ، وعندما يأخذ الشاعر الأسف والحسرة على ذهاب هذا الأثر العظيم يلجأ الى تناسى ذلك بكأس خمر يعب منها ، فتجعله كسرى جديدا يتألق تاجه فى مواسم الفرح .

ولعلنا هنا نلاحظ الشبه فى هذه الصورة المتخيله ـ لفعل الخمره ـ عند كل من آدم والبحترى فالبحترى جعل كسرى ينادمه ، والبلهذ يغنيه أما آدم فتصور نفسه كسرى بذاته . فهل يعنى هذا أن آدم قد أوحى الى البحترى بهذه الصوره ـ لكونه أسبق منه اليها ؟ ربما كان الأمر كذلك . ومن الجدير بالذكر فى هذا المقام ، القول بأن هذه الصوره لفعل الخمر بشاربها ونقله ماهو فيه من هموم وحضيض الى السعادة والقمة موجودة منذ القديم فى شعر الشعراء . يقول حسان بن ثابت رضى الله عنه ـ : ـ (١)

ونشربها فتتركنا ملوكا * وأسدا ماينهنهنا اللقاء .

ويقول المنخل : (٢)

فاذا سكرت فاننى * رب الخورنق والسدير .

واذا صحوت فاننى * رب الشويهة والبعير .

---

(١) ديوان حسان : ١/١٧ .

(٢) هو المنخل بن عبيد بن عامر اليشكرى . شاعر جاهلى قديم / ابن قتيبة ، الشعر والشعراء : ١/٤٠٤ ـ ٤٠٥ .

رثاء البصرة حين تدميرها على يد الزنج :-

من الثورات الخطيرة والعنيفة التي وقعت في العصر العباسي الثاني ، وكادت تودي بالخلافة العباسية - لولا لطف الله - الثورة المسماة بثورة الزنج ، لأن معظم جيشها كان من الغلمان والزنوج والعبيد . ولقد شغلت هذه الثورة الدولة العباسية مايزيد على أربع عشرة سنة ، فقد كانت البداية الأولى لها في سنة خمس وخمسين ومائتين حينما ظهر رجل في فرات البصرة يدعي أنه علوي ، وأن اسمه علي بن محمد بن أحمد بن زيد .... الى أن (١) يصل الى علي بن أبي طالب . ثم لم يلبث أن رحل الى البحرين (٢) ، ودعا الناس فيها الى اتباعه وبيعته - بوصفه أحق بالخلافة من بني العباس - فتبعه خلق كثير من أهلها ولقي فيها من التعظيم والاجلال مايفوق الوصف ، حيث أحلوه من أنفسهم محل النبي فجبي له الخراج ، ونفذت أحكامه فيهم ولكنه لقي معارضة من قوم آخرين من سكان تلك النواحي ، فاشتعلت الحرب بين المؤيدين والمعارضين ، مما اضطره الى التحول عنهم الى البادية فاجتمع له بها جماعة كثيرة ، وزحف بهم الى موضع بالبحرين يقال له (الردم) فكانت بينه وبين أهلها وقعة كبيرة دارت الدائرة فيها عليه وعلى أصحابه

---

(١) ذكر أن اسمه الحقيقي هو علي بن عبد الرحيم من بني عبد القيس . من قرية من قرى الري يقال لها ورزنين . انظر : الطبري : ٤١٠/٩ ، ابن خلدون ، تاريخ العبر : ١٨/٤ .

(٢) البحرين : اسم جامع لبلاد على ساحل بحر الهند بين البصرة وعمان وعدها قوم من اليمن ، وفيها عيون كثيرة في ناحية قراها بحيرة على باب الأحساء ، ولذلك سميت بالبحرين / معجم البلدان : (بحرين) .

فنفروا منه ، وكرهوا صحبته ، فحار فى أمره وأخذ يفكر بمنطقة أخرى يذهب اليها . يقول : (١)

"فأظلتنى سحابة فبرقت ورعدت ، واتصل صوت الرعد منها بسمعى ، فخوطبت فيه ، فقيل : أقصد البصرة ، فقلت لأصحابى وهم يكنفوننى ، انى أمرت بصوت هذا الرعد بالمصير الى البصرة" . فمضى اليها ودعا بها لنفسه ولكنه لم يجب ، وعلم بخبره واليها محمد بن رجاء الحضارى ، فوجه اليه حملة عسكرية ، ولكنه هرب منها حتى دخل ببغداد وكان يرافقه من أصحابه الذين اتبعوه فى البحرين يحيى البحرانى وسليمان بن جامع اللذان أصبحا فيما بعد من قادة جيوشه المفضلين ، ومكث فى بغداد قرابة العام ، حتى سمع بعزل ابن رجاء الحضارى عن البصرة ، ووقوع الفتن الطاحنة بين أهلها توجه اليها ونزل قصرا يعرف بقصر القرشى ، على نهر يعرف بعمود ابن المنجم ، وادعى أنه وكيل لولد الخليفة الواثق فى بيع السباخ (٢) ، وبدأ دعوته من هناك وسط الزنوج الذين كانوا يعملون بتلك السباخ حتى اجتمع اليه منهم جيش جرار . فنظمهم ورتب أمورهم وجعل عليهم قوادا منهم ـ ثم قام فيهم خطيبا فمناهم وبذل لهم الوعود بأنه سيقودهم الى امتلاك الأموال والضياع ، وحلف لهم بأغلظ الأيمان ألا يغدر بهم ولا يخذلهم ، ولا يدع شيئا من الاحسان الا صنعه لهم ثم انه لدهائه وخبثه أمر الزنوج أن يأتوا بمواليهم فأتوا بهم مكتوفين ، ووبخهم قائلا : " قد أردت ضرب أعناقكم لما كنتم تأتون الى هؤلاء الغلمان الذين استضعفتموهم وقهرتموهم ، وجعلتم عليهم مالا يطيقون ، فكلمنى أصحابى فيكم ، فرأيت اطلاقكم " ثم أمر قوما من غلمانه

---

(١) الطبرى : ٩ / ٤١١ ، وقد فصل أخبار الزنج وثورتهم فى هذا الجزء تفصيلا دقيقا .

(٢) واحدها سبخه : وهى الأرض المالحة التى لا تصلح للزراعة الا بعد كشطها الصحاح : (سبخ) .

أن يجلدوا مواليهم بالجريد خمسمائة جلدة ثم أطلقهم . وهذا العمل ثبت في نفوس الزنج أن حركتهم هذه ماهي الا ثورة العبيد ضد السادة الظالمين وان غلفت بغلاف ديني . عندئذ أخذ الزنج يغيرون على دور السلاح وينتهبونها ، كما انتهبوا بعض المراكب البحرية والزوارق وماالى ذلك حتى أصبحوا على استعداد تام لأى هجوم على أقوى الجيوش وأكبرها ، عندئذ حاصر البصرة وضيق عليها ، وحارب أهلها ، ولكنه لم يدخلها في العام المذكور (٢٥٥) . وكأنه بذلك يريد اختيار القوة الموجودة فيها ، فلما رأى ضعفها صمم على اقتحامها . ففي سنة سبع وخمسين ومائتين ، وجه صاحب الزنج الى الأعراب الذين حول البصرة وأغراهم بالمال ، فأتاه منهم أفواج كثيرة ، فأمرهم بمهاجمة البصره ، ففعلوا . ثم هجم هو بقواته وغلمانه على المدينة من جهاتها المختلفة ، وكان ذلك والناس في صلاة الجمعة ، فأخذ يقتل ويدمر ويحرق يوم الجمعة والسبت ، فأصاب الناس بلاء وجهد شديد ان يقول المسعودي[(١)] : " واختفى الناس ذعرا في الدور والآبار ، وكانوا يظهرون بالليل فيأخذون الكلاب فيذبحونها ويأكلونها وكذلك الفئران والسنانير ..... وكانوا اذا مات فيهم الواحد أكلوه ، كما عدموا مع ذلك الماء العذب ..." ولما هلك الناس وتشردوا خرج الى صاحب الزنج بعض القوم يطلبونه الأمان ، فأمنهم على أن يجتمع كل من يريد الأمان في المسجد الجامع بالبصره ففعلوا[(٢)] فما كان منه الا أن وضع فيهم السيف حتى أبادهم جميعا وأحرق المسجد الجامع ونهب أصحابه كل مايقدرون عليه من مال ومتاع ، وقيل ان عدد القتلى من أهل البصرة بلغ ثلثمائة ألف بين ذكر وأنثى وشيخ وطفل . ولقد هال

---

(١) مروج الذهب : ٤/١١٩ .

(٢) تاريخ الطبرى : ٩/٤٨١ - ٤٨٣ .

القتل والخراب الذى لحق بالبصرة صاحب الزنج نفسه ، حتى نسب ذلك الى فعل الملائكة التى كانت تؤيده ـ كمايزعم ـ فيروى عنه أنه قال :(١) " دعوت على أهل البصرة فى غداة اليوم الذى دخلها أصحابى ، واجتهدت فى الدعاء ، وسجدت وجعلت أدعو فى سجودى ، فرفعت الى البصرة فرأيتها ورأيت أصحابى يقاتلون فيها ، ورأيت بين السماء والأرض رجلا واقفا فى الهواء ، وقد خفض يده اليسرى ، ورفع يده اليمنى ، يريد قلب البصرة بأهلها فعلمت أن الملائكة تولت اخرابها دون أصحابى ، ولو كان أصحابى تولوا ذلك لما بلغوا هذا الأمر العظيم . وان الملائكة لتنصرنى وتؤيدنى فى حربى ، وتثبت من ضعف قلبه من أصحابى . "

ويورد الطبرى عددا كبيرا من المعجزات والخوارق التى كان صاحب الزنج يذكرها لأصحابه ليطمئنهم بأنه ولى أو نبى مؤيد ، وبخاصة عندما ينوى خوض معركة كبيرة ، أو يكون قد انتهى من قتال يخشى بعده تزعزع ثقة قومه به ، فكان يشن على أسماع قومه غارة من الخرافات والبشارات الكاذبة وهم لجهلهم يصدقون ، قال فيه وفيهم المعتز ، وهى من أرجوزته الطويلة :ـ (٢)

مازال حينا يخدع السودانا * ويدعى الباطل والبهتانا .

وقال : سوف أفتح السوادا * وأملك العباد والبلادا .

وقال : انى أعلم الغيوبا * لم ير منهم عالما مجيبا .

صاحب قوما كالحمير جهلة * وكل شئ : يدعه فهو له .

على أن أهم مارثيت به البصرة من الشعر قصيدة ابن الرومى الميمية الباكية التى تشعر عند قراءتها أن قائلها قد مسته النكبة وهزته المصيبة

---

(١) انظر تاريخ الطبرى : ٤٨٧/٩ .

(٢) ديوان ابن المعتز : ٤٨٤ .

يقول :- (١)

ذاد عن مقلتي لذيذ المنام * شغلها عنه بالدموع السجام .

أي نوم من بعد ماحل بالبصـ * رة ماحل من هنات عظام .

أي نوم من بعد ماانتهك الزنـ * ج جهارا محارم الاسلام .

ان هذا من الأمور لأمر * كاد أن لا يقوم في الأوهام .

لرأينا مستيقظين أمورا * حسبنا أن تكون رؤيا منام .

أقدم الخائن اللعين عليها * وعلى الله أيما اقدام .

وتسمى بغير حق اماما * لاهدى الله سعيه من امام .

يبدأ الشاعر قصيدته بوصف وقع الحادث الأليم على نفسه ، فقد لهج بالبكاء واشتغل به عن النوم والراحة ، وهل هناك مجال للنوم من بعد أن دمرت البصرة ، وأحرقت ، وانتهكت فيها محارم الاسلام على يد أولئك الأوباش ، ثم يتعجب ابن الرومي من شدة الحدث ، وكأنه لا يصدق ، أولا - يريد أن يصدق مايسمع من الأنباء التي لم يكن يتوقع وقوعها حتى في الأوهام والأحلام . ولكن ذلك حدث حقيقة ، بفعل ذلك اللعين - صاحب الزنج - الذي لا يرعى الا ولا ذمة ، ولا تأخذه بالضعفاء شفقة ولا رحمة ، وهو مع ذلك يدعي أنه امام وأنه علوي ، وهل هذا فعل امام مسلم يريد الخير للأمة ؛ ؟ أما ماورد في أرجوزة ابن المعتز السالفة الذكر من نسبة ذلك الدعي الى العلويه ، حين قال :

والعلوي قائد الفساق * وبائع الأحرار في الأسواق .
(٢)

فلعله أراد من ذلك الاساءة الى آل علي بن أبي طالب بنسبه هذا الفاجر

---

(١) ديوان ابن الرومي : ٤١٩ .. ٤٢٧ .

(٢) الموسوي الأصفهاني ، روضات الجنات : ١٠٣/٥ .

اليهم ، وجعله مثالا للثائرين منهم ، المطالبين بحقهم فى الخلافة المغصوبة
مع علمه الأكيد أن آل على [١] ، منه برآء وأنه مدّع كاذب ، فيروى عنه أنه لما نزل
قريبا من الكرخ أتاه أهلها فسلموا عليه وأمدوه بما يحتاج ، وجاءه فيمن
جاء رجل يهودى يقال له ماندويه فقبل يده ، وسجد له ـ زعم شكرا لرؤيته
اياه ـ ثم سأله عن مسائل كثيرة فأجابه عنها ، فزعم أنه يجد صفته فى
التوراة ، وأنه يرى القتال معه ، وسأله علامات فى بدنه ذكر أنه عرفها
فيه ، فأقام معه ليلته تلك يحادثه .

ثم يأخذ ابن الرومى فى التلهف والحسرة على هذه المدينة التى تعتبر من
عواصم الاسلام فيقول :

لهف نفسى عليك أيتها البصـ * ـرة لهفا كمثل لهب الضرام .
لهف نفسى عليك يامعدن الـ * ـخيرات ، لهفا يعضنى ابهامى .
لهف نفسى عليك ياقبة الاسـ * ـلام ، لهفا يطول منه غرامى .
لهف نفسى عليك يافرضة البلـ * ـدان ، لهفا يبقى على الأعوام .
لهف نفسى لجمعك المتفانى * لهف نفسى لعزك المستضام .

ان هذا التكرار فى عبارات التلهف ، يدل على الألم الممض الذى ألم
بالشاعر ، فمضى يحدث نفسه التى أخذها الذهول بمنزلة البصرة ، وما حل
بها من النكبات العظام ، وكأنه بذلك يمنعها من الراحة أو السلوان .

وبعد هذه الزفرات الحارة التى يطلقها الشاعر الحزين ، يأخذ فى تفصيل
الحادث ومجرياته ومآسيه ، ولعل هذا راجع لتأثير الفلسفة والمنطق الذى
ألم ابن الرومى بطرف منه ، فأثر فى أسلوبه بعض الشئ ، فهو أجمل فى
بداية القصيدة عند حديثه عما حل بالبصرة من المهنات العظام ، والآن يريد

---

(١) تاريخ الطبرى : ٩ / ٤٢٠ . الفرضه : العظيمة ، وفرضة البحر : محط
السفن . اللسان (فرض) .

أن يفصل بعد الاجمال فيقول :-

بينما أهلها بأحسن حال * اذ رماهم عبيدهم باصطلام . (١)
دخلوها كأنهم قطع الليل * اذا راح مدلهم الظلام .
أى هول رأوا بهم ، أى هول * حق منه يشيب رأس الغلام .
اذ رموهم بنارهم من يمين * وشمال وخلفهم وأمام .
كم أغصوا من شارب بشراب * كم أغصوا من طاعم بطعام .
كم ضنين بنفسه رام منجا * فتلقوا جبينه بالحسام .
كم أخ قد رأى أخاه صريعا * ترب الخد بين صرعى كرام .
كم أب قد رأى عزيز بنيه * وهو يعلى بصارم صمصام .
كم مفدى فى أهله أسلموه * حين لم يحمه هنالك حامى .
كم رضيع ـ هنالك ـ قد فطموه * بشبا السيف قبل حين الفطام .
كم فتاة ـ بخاتم الله بكر ـ * فضحوها جهرا بغير اكتتام .
كم فتاة مصونة قد سبوها * بارزا وجهها بغير لثام .
صبحوهم فكابد القوم منهم * طول يوم كأنه ألف عام .
من رآهن فى المساق سبايا * داميات الوجوه للأقدام .
من رآهن فى المقاسم وسط الزنـ * ج يقسمن بينهم بالسهام .
من رآهن يتخذن اماء * بعد ملك الاماء والخدام .

ان الشاعر فى هذه الأبيات يعدد ـ بمراره ـ صنوف العذاب التى أذاقها أولئك الزنوج لأهل البصرة ، الذين لم يكونوا يتوقعون مثل هذا الهجوم من عبيدهم وخولهم ، فقد أحاط بهم أولئك الأوشاد من جميع الجهات ، ـ وأعطوا فيهم السيف والقنا ، حتى أذهلوا الأخ عن أخيه ، والأب عن بنيه

---

(١) أصطلم الشئ : قطعه من أصله . لسان العرب : (صلم) .

فكل يريد النجاة بنفسه ، ولكن أين هو من ذلك ؟ ان القوم له بالمرصاد .
كما فعلوا الأفاعيل الشنيعة بالنساء والفتيات الحرائر المصونات ، فأخذوهن
سبايا حاسرات ، وانتهكوا منهن ماحرم الله جهرا بغير اكتتام ، وأقاموا
سوقا لبيعهن يقول المسعودي : "كان ينادى في عسكر الزنج على المرأة (١)
من ولد الحسن والحسين والعباس ابن عبد المطلب وغيرهم من ولد هاشم
وقريش ، ومن سائر أبناء الناس ، فتباع الجارية بالدرهمين والثلاثة ،
وينادى عليها بنسبها هذه فلانة ابنة فلان ، ولكل زنجي منهن العشرة
والعشرون والثلاثون ......" كما كانت النساء يقسمن بينهم بالاستهام
فيتخذون اماء وخدما لا يجدن من ذلك فكاكا ، فيروى أن امرأة هاشمية
من ولد الحسن بن على أبي طالب كانت عند بعض الزنج ، الفلاظ واستغاثت
بالخبيث صاحب الزنج أن ينقلها الى غيره أو يعتقها مما هي فيه ، فقال
لها : "هو مولاك وأولى بك من غيره" . (٢)

ان هذه الصورة البائسة التي وصل اليها حال أهل البصرة لتضرم القلب
نارا ، لما لاقاه أولئك الناس من الذلة والمهانة التي تعدى أثرها الى من
سمع بها ومنهم شاعرنا ابن الرومي :-

ماتذكرت ماأتى الزنج الا * أضرم القلب أيما اضرام .
ماتذكرت ماأتى الزنج الا * أوجعتني مرارة الارغام .
رب بيع هناك قد أرخصوه * طال ماقد غلا على السوام .
رب بيت هناك قد أخربوه * كان مأوى الضعاف والأيتام .
رب قصر هناك قد دخلوه * كان من قبل ذاك صعب المرام .

---

(١) مروج الذهب : ٤/ ١٢٠ .
(٢) المصدر نفسه : ١٢١ .

رب ذى نعمة هناك ومـــال * تركوه محالف الاعـــدام .
رب قوم باتـوا بأجمع شمـل * تركـوا شملهم بغير نظـام .

ان ابن الرومى شاعر أحتل الحزن من قلبه ومن شعره مكان لا يستهان بـه وذلك بعد أن اخترم الموت أولاده الثلاثة وزوجته ، فهو بذلك يجيد التفنن فى البكاء والتفجع ، وتراه اذا مارثى بكى بصدق وحرارة عاطفة ، وأتى بصور حقيقية للمرثى بعيدة عن التهويل والاغراق فى الخيال ، ففى هذه القصيدة نجده يرثى البصرة وكأنه موجود بها ، وشاهد لما حدث لها من هـروب ، وحزن عليها حزنا يشعر بصدقه من يقرأ قصيدته ، مع أنه كان فى بغـداد لا يفارقها الا قليلا .

ثم يعرض علينا الشاعر صورة للبصرة وقد هدمت دورها وقصورها ،وأسواقها واستحالت الى انقاض ، وتلال من الرماد من فعل الحريق يقول :ـ

عرجا صاحبى بالبصرة الزهـــ * راء تعريج مدنف ذى سقام .
فاسألاها ـ ولا جواب لديهـا * لسؤال ـ ومن لها بالكـلام . ؟
أين ضوضاء ذلك الخلق فيهـا * أين أسواقها ذوات الزحـام . ؟
أين فلك فيها ، وفلك اليهـا * منشآت فى البحر كالأعـلام . ؟
أين تلك القصور والدور فيهـا * أين ذاك البنيان ذو الاحكـام . ؟
بدلت تلكم القصور تـلالا * من رماد ومن تـراب ركـام .
سلط البثق والحريق عليهـا * فتداعت أركانها بانهـدام . (١)
وخلت من حلولها ، فهى قفـر * لا ترى العين بين تلك الآكـام .
غير أيد وأرجل بائنـات * نبذت بينهن أفـلاق هـام .
ووجـوه قد رملتها دمـاء * بأبى تلكم الوجوه الدوامـى .

---

(١) البثق ، بثق السيل موضع كذا : خرقة وشقه / الصحاح (بثق) .

وطئت بالهوان والذل قسرا * بعد طول التبجيل والاعظام .
فتراها ، تسفي الرياح عليها * جاريات بهبوة وقتام .
خاشعات ، كأنها باكيات * باديات الثغور ، لا لابتسام .

ان ابن الرومى فى هذا المشهد يجعل البصرة أطلالا ورسوما وذلك بعد أن سيطر عليها شحوب الموت وسكونه فسكتت ضوضاؤها ، وخلت أسواقها التجارية الشهيرة من الحركة ، ولم يعد يرى فيها الا الأشلاء المتناثره بين الركام ، هنا وهناك تسفى الرياح عليها لتغطى تلك الوجوه الحسان التى أذلت بعد طول عز ومجد . وما دامت المدينة أصبحت كذلك ، فانا نراه يسلك لذلك سبيل الوقوف على الأطلال المعروف فى الشعر العربى منذ أقدم عصوره ، فيطلب من صاحبيه أن يعوجا أو يعرجا على البصرة ، تعريج ذى العلة المدنف الذى قصمت ظهره الأرزاء والحوادث ، وقد أعطى وصفه للبصرة بالزهراء ، مع وصفه للمعرج بالسقم معنى جميلا ، يدل على شدة وجده وشوقه لتلك البلدة التى عهدها زاهرة فأضحت بائره . ثم يردف الوقوف بالسؤال ومناشدة الديار عن حالها وتغيرها وعيها عن الجواب . وهذا عين مايفعله الشعراء الجاهليون والمحافظون على عمود الشعر من بعدهم فى مطالع قصائدهم ، انظر الى قول الشاعر الجاهلى :

مابكاء الكبير بالأطلال * وسؤالى فهل ترد سؤالى . (١)

انه يقف بالأطلال ويسائلها ليجعل ذلك تمهيدا لغرضه الأصلى من القصيدة وهو المدح فى الغالب . أما ابن الرومى فانه يقف على مدينة زاهره ليرثيها ويتحسر على ماجرى لها من نوائب ومصائب فحسب ، فغايته هى الرثاء ولا يريد شيئا غيره ، وهذا هو الفرق بين الوقفتين .

---

(١) البيت مطلع قصيدة للأعشى ، أنظر ديوانه : ٣٩ .

ثم يطالب الشاعر من رفيقيه أن يزورا أهم معلم فى مدينة البصرة ، وهو مسجدها الجامع الذى أحرق بعد أن عاش دهرا طويلا موئلا للعلماء والعباد يقول :-

بل ألما بساحة المسجد الجا * مع ، ان كنتما ذوى اهتمام .

فاسألاه ، ولا جواب لديه * أين عباده الطوال القيام .

أين عماره الألى عمروه * دهرهم ، فى تلاوة وصيام .

أين فتيانه الحسان وجوها * أين أشياخه أولو الأحلام .

انه فى هذه الأبيات لا يركز رثاءه وبكاءه للمسجد بذاته كمعلم اسلامى بقدر ما يركز على أهل المسجد وعباده ، فيرسم لذلك صورة متخيله ، عندما يدعى كل من خذل أهل البصرة من المسلمين على رؤوس الأشهاد ليحاكم أمام الله ويحاسب على تقصيره فى الدفاع عن الحرمات فيندم ، ولكن ذلك لا يغنى عنه شيئا . يقول :-

كم خذلنا من ناسك ذى اجتهاد * وفقيه فى دينه علام .

واندامى على التخلف عنهم * وقليل عنهم غناء ندامى .

واحيائى منهم اذا ما التقينا * وهم عند حاكم الحكام .

أى عذر لنا ، وأى جواب * حين ندعى على رؤوس الأنام .

ياعبادى أما غضبتم لوجهى * ذى الجلال العظيم والاكرام . ؟

أخذلتم اخوانكم ، وقعدتم * عنهم - ويحكم - قعود اللئام . ؟

كيف لم تعطفوا على أخوات * فى حبال العبيد من آل حام . ؟

لم تغاروا لغيرتى ، فتركتم * حرماتى ، لمن أحل حرامى .

ان من لم يغر على حرماتى * غير كفء لقاصرات الخيام .

كيف ترضى الحوراء بالمرء بعلا * وهو من دون حرمة لا يحامى ؟

ان الشاعر ـ كما يلاحظ من الأبيات ـ يحاول الضرب على وتر حساس في نفوس الناس هو وتر العقيده والأخوة الاسلامية ، فهو يضيف الى الصورة الأولى . صورة أخرى في نفس الموقف حين يتولى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مخاصمة المتقاعسين عن الجهاد وتوبيخهم لأنهم لم يراعوا حرمة النبي فينصروا من استغاث به :ـ

واحيائي من النبي اذا ما ۞ لا مني فيهم أشد الملام .

وانقطاعي اذا هم خاصموني ۞ وتولى النبي عنهم خصامي .

مثل قوله لكم ـ أيها الناس ـ اذا لامكم مع اللوام :

" أمتي : أين كنتم ـ اذ دعتني ۞ حرة من كرائم الأقوام :

صرخت : " يا محمداه " فهلا ۞ قام فيها رعاة حق مقامي .

لم أجبها اذ كنت ميتا ـ فلولا ۞ كان حي أجابها من عظامي :

انه يصور النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ وقد غضب أشد الغضب ، على أمته لخذلانهم اخوانهم في العقيدة ، وهو يمهد بذلك لبث الحماس في نفوسهم عندما يحرضهم في آخر قصيدته على الثأر والانتقام من أولئك الطغام الذين استباحوا الحرمات فيخاطب الناس قائلا :ـ

انفروا أيها الكرام خفافا ۞ وثقالا الى العبيد الطغام .

أبرموا أمرهم ، وأنتم نيام ۞ سوءة سوءة لنوم النيام .

صدقوا ظن اخوة أملوكم ۞ ورجوكم لنبوة الأيام .

أدركوا ثأرهم ، فذاك لديهم ۞ مثل رد الأرواح في الأجسام .

لم تقروا العيون منهم بنصر ۞ فأقروا عيونهم بانتقام .

أنقذوا سبيهم ـ وقل لهم ذاك ـ حفاظا ورعية للذمام .

عارهم لازم لكم أيها الناس ، لأن الأديان كالأرحام .

ان قعدتم عن اللعين فأنتم * شركاء اللعين في الآثام .
بادروه قبل الروية بالعز * م ، وقبل الاسراج بالالجام .
من غدا سرجه على ظهر طرف * فحرام عليه شد الحزام .
لا تطيلوا المقام عن جنة الخـ * ـلد ، فأنتم في غير دار مقام .
فاشتروا الباقيات بالعرض الأد * نى وبيعوا انقطاعه بالدوام .

ان ابن الرومي يخرج في آخر قصيدته الى الاستصراخ والاستغاثة مما يؤكد تفاعله مع الحدث بصدق وايجابية ، فنراه ينهج نهجا خطابيا حماسيا مركزا على المعاني الاسلامية التي هي أهم الروابط التي تربط فئات الناس ببعضهم ، في مجتمع كبير كالعباسي . كما أنه لا يجد أبلغ من العبارات القرآنية يذكر بها ويزجر أولئك الناس حاضا اياهم على الاسراع بالفتك باللعين صاحب الزنج ورهطه ، وافتكاك الأسرى والسبايا من أيديهم ، حفظا لكرامة اخوانهم الذين مضوا وعرضهم . لأن ذلك أقل ما يبذل لاخوان العقيدة . فيطلب منهم أن ينفروا خفافا وثقالا للحرب والجهاد ، وأن يربأوا بأنفسهم عن قعود الجبناء اللئام ، فيكونوا عونا للزنج على جرائمهم ، وشركاءهم في الآثام . ثم يذكرهم بالجنة ونعيمها الخالد الأبدي ، والفرق الشاسع بينها وبين الدنيا الفانية ، ويدفعهم الى بيع أنفسهم وما ملكوا من عرض الدنيا لله ـ بالجهاد في سبيله ـ لينعموا بتلك الجنان .

والذي يبدوا أن استغاثة ابن الرومي قد وجدت أذنا صاغية من الخليفة والحكام العباسيين وعامة الشعب ، حيث ندب الخليفة المعتمد على الله أخاه أبا أحمد الموفق طلحة ، وكان هذا داهية شجاعا ، أعد جيشا ضخما مجهزا بالمعدات البرية والبحرية ، واستطاع أن يلحق بالزنج هزائم متتالية وان يقتل منهم أعدادا كبيرة ، ويستنقذ كثيرا من البلدان والأسرى الذين

كانوا فى أيديهم . ولكنه توفى قبل أن يقضى عليهم تماما فى سنة خمس وستين ومائتين فخلفه على حربهم المعتضد بالله ابن الخليفة المعتمد ، وكان هذا ـ أيضا ـ شجاعا مقداما ، فأرهق الزنج بكثرة الغارات والحرب ، وحصرهم وضيق عليهم تضيقا شديدا ، مما اضطر أكثرهم أن يطلب منه الأمان ، ويحارب معه ضد الزنج واستمر على ذلك من نصر الى نصر حتى جاءت سنة سبعين ومائتين ، حيث استطاع أن يقضى على ثورة الزنج نهائيا وذلك بقتل العلوى رأس الثورة وأسر قائديه المشهورين سليمان بن جامع والمهلبى ، وبعث بهما الى بغداد حيث قتلا وصلبا هناك . (١)

ومن رثى البصرة أيضا شاعر يعرف بأبى ناظرة السدوسى (٢) ، وهو أحد أبناء البصرة الذين شهدوا خرابها على أيدى الزنج . يقول :- (٣)

أبى الصبر تذكار الديار التى خلت * مجالسها من سودد وخطوب .
ومغدى ذوى الحاجات فى كل شارق * الى كل مغشى الفناء مهيب .
وكل مطاع فى العشيرة ماجد * معين على ريب الزمان وهوب .
منازل فارقن العهود ولم تكن * معانا (٤) لناقوس ولا لصليب .
منازل قوم أسرع السيف منهم * الى كل وضاح الجبين نجيب .
وكل صميم من ذؤابة قومه * كريم لغايات الكرام طلوب .
أبوا أن يرى الله الهوادة منهم * لأعضة (٥) عن دين النبى نكوب .

---

(١) انظر الخبر فى تاريخ الطبرى : ٩/ ٦٠٢ ومابعدها .

(٢) يبدو أنه شاعر مغمور ، فلم أعثر له على ترجمه الا قول المبرد عنه : كان رجلا من أهل العلم والمعرفة بكلام العرب ، وحسن التصرف فيه التعازى والمراثى : ٢٨٢ .

(٣) القصيدة بتمامها فى المصدر السابق : ٢٨٢ - ٢٨٨ .

(٤) معانا : مكانا . اللسان . (معن) .

(٥) الأعضة : المفترى . اللسان (عضه) .

فأودوا وقد عاشوا كراما أعفة * على فتن مرت بهم وحروب .

تفاديهم ضربا على الهام تارة * وذبحا بأقسى أنفس وقلوب .

فكم من رحى دارت وكم من مصيبة * توالت ومن يوم هناك عصيب .

على ألف ألف من ملوك وسوقة * ثووا بين أبواب لهم ودروب .

مفلقة هاماتهم وشريدهم * شماطيط شتى أوجه وشروب . (١)

الى غير راع يرتجى النصر عنده * ولا عطن يؤوى اليه رحيب . (٢)

عباديد من ناج على جذم بغلة * ومن رازح يشكو الكلال جنيب . (٣)

ومن راسب طاف على الماء شلوه * وذى ظمأ أودى به وسغوب .

فيا أرضهم أخلوك فابكى عليهم * وجودى عليهم باسماء وصوب .

يبدأ الشاعر قصيدته بمطلع يتحسر فيه على دياره التى فارقها مرغما ويحاول أن يبدى شيئا من التجلد حينما يجول بفكره خاطر العودة من النزوح ولو عن بعد . ولكن هذا الصبر والتجلد لا يلبث أن ينهزم تحت طارق الشوق العارم الذى يبعثه تذكار المصاب الفادح . وأى صبر يبقى بعد دمار المدينة الشامخة التى كان خيرها للقريب وللبعيد شامل ، فهى قبلة ذوى الحاجات ، يغشونها من كل صوب فينالون ماأرادوا لسماحة أهلها وكرمهم ، وكثيرا ماتكون الشهامة والعزة هى سبب المنية ، كماهو الحال عند

---

(١) شماطيط : أرهاط مختلفة ـ وهو جمع لا يفرد له واحد / اللسان ـ (شمط) .

(٢) عباديد : جماعات متفرقة . وهو جمع لا يفرد له واحد / أيضا اللسان (عبد) .

الرازح : الذى لا يقوى على النهوض ضعفا وتعبا ، اللسان (رزح) ، الجنيب : المصاب بداء ذات الجنب (نوع من الأمراض) .

(٣) الشغوب : الجوع . اللسان (سغب) .

أهل البصرة ، فقد أبوا أن يستكينوا للذل والقهر ، فوقفوا بعزم أمام قوات الزنج الكاسحة على الرغم من ضعفهم ازاءها فقضوا بعزة وشرف .
وهنا نحس دفقة العاطفة عندما يستطرد الشاعر فى وصف المذبحة الرهيبة التى أقترفها وحوش الزنج ، فأمواج الدماء تقذف بالهامات المفلقة هنا وهناك ، ورحى الموت لا تزال تدور ، وتنتج الخراب والدمار والتشرد ، حتى هذه الزرافات من المشردين لا تدرى الى أين تتجه ، فقد قل النصير وعدم الأمن والمأوى فمن نجا منهم من الزنج ، ابتلعه النهر ، ومن عبر النهر قتله الجوع والظمأ .

وبعد هذه الصورة المفعمة بالحركة والضجيج والتى أشاعت فى جو القصيدة روحا من العنف والسفك ، وأضفت عليها ظلالا ملونة بشتى الألوان الصاخبة ، بعد ذلك نرى الشاعر يتملكه الأسى والشحوب حين تجسمت أمامه مصيبة المدينة ومن بقى من أهلها فيقول :-

أرى كل قوم لا يزال مظنة * منازلهم من آيب وعزوب .
سوانا فانا حشو كل مدينة * وألقاؤها من نازح وقريب . (١)
ذوو أوجه فيها كواب وأعين * بواك وفقر ظاهر وشحوب . (٢)
فذو العز منا مستكين وذو الغنى * كأن لم يكن ذا رهبة وركوب .
فحل بالاسلام مثل مصابنا * وسلطاننا للدين حق غصوب .
فلا المربد المعمور بالعز والنهى * وكل فتى للمكرمات كسوب . (٣)

---

(١) الألقاء : جمع لقى : وهو الملقى أو المطروح . اللسان (لقا) .
(٢) كواب : ذابله مسوده . اللسان (كبا) .
(٣) المربد : من أشهر محال البصره ، كان فيه يقوم سوق الابل قديما ثم صار محلة عظيمة سكنها الناس ، وبه كانت مفاخرات الشعراء ومجالس الخطباء ، ويبعد عن البصرة ثلاثة أميال . / معجم البلدان : (مربد) .

ولا قصر أوس والمناخ الـذى بــــه * وماحوله من روضـة وكثـيب . (١)
بمرتجع يوما ولا المسجـد الــذى * اليه تناهى علم كل أديـب .
ولا قائم لله آناء ليلـــــــــة * به كل أواه اليـه منيـب .
ولا الشطان فيه لنا الخير كلـــه * وان معتفاه ـ الدهر ـ غير جديب .
ودجلة أحمى جانبيها كليهمــا * كتائب زنج كالطنين دبـوب . (٢)
مؤللـة أسنانهـم وعيونهـــم * توقد فى كهرورة وقطـوب .(٣)

ان اليأس والاستسلام هو العنصر البارز فى هذه الأبيات ، فالشاعـر ينظر بواقعيـه الى الواقع الماثل أمامه ، ومنه يستشف المصير المظلم الـذى ينتظر قومه بعد أن فقدوا كل أمل فى العودة الى مدينتهم . أما حالهـم فى غربتهم القاتلة فيشرحها الشاعر بمرارة وألم ، مرارة العزة والكرامة الـتى تحولت الى ذلة وهوان ، فهم يعيشون هملا لا يؤبه لهم أينما حلوا وأقامـوا ولا يعرف شريفهم من وضيعهم ، وكأن الشاعر هنا يشير الى الجحود وسـوء المعاملة التى لقيها أولئك المشردون من أهل المناطق التى نزحوا اليهـا حتى تغيرت ألوانهم وتلوحت وجوههم من الأسى والمهانة .

ثم يرجع السدوسى بذاكرته الى الأمس القريب وكيف كانت معالم المدينـة البارزة ومآلت اليه بعد الكارثة . فالمربد الذى كان يزدحم بالشعراء والخطباء وكأنه مدرسة تخرج النابهين فى كل فن أصبح خاليا من الأنيس ، صامتا صموت المقابر . والمسجد الجامع مأوى العلماء والمتبتلين أصبح أطلالا سوداء موحشة بعد أن أحرق ودمر .

---

(١) قصر أوس : ينسب لأوس بن ودیعة والى خراسان لبنى أمية ، وهو قصر عظيم بنواحى البصرة وصفته الشعراء .
معجم البلدان : مادة (قصر) .
(٢) دبوب : الذى يمشى على مهل لضخامته ، اللسان (دبب) ، الطنين : صوت الذباب / والشطر كناية عن الكثرة .
(٣) مؤللة : محددة الأطراف . الصحاح (ألل) ، كهرورة : عبوس وتحفز اللسان (كهر) ، القطوب هو العبوس أيضا .

أما الشط الذى كان مصدر رزق للبصرة ، فقد خلا من سفن الخير ، وماتحمله ، وأبدل بها كتائب زنج فاغرة الأفواه للقتل والسلب والتدمير . تمر بالشاعر هذه الحالة المنقلبة فيتصور أنه لم يبق فى الدنيا نعيم يطيب معه العيش :ـ

نعت أرضنا الدنيا الينا وأدبرت * بكل نعيم فى الحياة وطيب .
وماكانت الدنيا سوى البلد الذى * خلا اليوم من داع به ومجيب .
وماعيش هذا الناس بعد ذهابه * بعيش ولا مغناهم برغيب . (١)
اذا الدمع لم يسعد كئيبا فاننى * سأبكى وأبكى ـ الدهر ـ كل كئيب .
على دمن جرت بها الريح بعدنا * ذيول البلى من شمأل وجنوب . (٢)
وماكل بصرى شكا بمفند * ولا كل بصرى بكى بمصيب . (٣)
ولو أن بصريا بكى كنه شجوه * بكى بدم حتى الممات صبيب .

الى أن يقول :

فيابصركم من هالك مات حسرة * عليك ومن صب اليك طروب .
يظل شعاعا قلبه ومبيته * على سنن من ربعه ونجيب . (٤)
عليك سلام الله منا فاننا * نرى العيش الا فيك غير حبيب .

ان مدينة البصرة تمثل عالم الشاعر ودنياه ، فيها عرف السعادة وطيب العيش ، أما وقد انطفأت شعلتها ، وذوت نضارتها ، فانه قد نفض يديه من لقاء السعادة والتمتع بلذائذ الحياة . بل انه يقطع على نفسه

---

(١) المغنى : المنزل / الصحاح) (غنى) .

(٢) مأخوذ من قول امرئ القيس : فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها * لما نسجتها من جنوب وشمأل .
/ ديوانه : ٣٠ .

(٣) التفنيد : اللوم والتكذيب وتضعيف الرأى . الصحاح (فند) .

(٤) الشعاع : التفرق . الصحاح (شعع) .

عهدا بالبكاء المستمر ماداموا احياء ، وسيخلف لكل كئيب ثروة من الأحزان والآلام يستعين بها على استدرار الدمع - على مر الأيام . وهو فى ذلك لا يلتفت الى لوم اللائمين ، بل يستهجن فعل كل من يعترض على شاكٍ أمثاله من أهل البصرة الذين خرجوا من جنتهم ، فلو بكوا دما وهلكوا وجدا لحق لهم ذلك دون عيب وانتقاص .

وبعد ، فالشاعر قد عاش تجربة مريرة ، تمثلت فى شهوده عن قرب للسقوط المروع لمدينته الحبيبة ، ثم تشرده فى الآفاق مع آلاف المشردين وقد استطاع الشاعر أن يعبر بصدق عن هذه التجربة ، وان كانت درجات الانفعال تتذبذب بين الشدة والخفوت عبر أجزاء القصيدة ، فتثور عاطفته عند تصوير القتلى والأسرى والغرقى ، والحيارى المضطربين الذاهلين وتهدأ عندما يكون هناك بعد زمنى يفصل بين حرارة الحادثة وبين ما هو بصدد الحديث عنه ، وذلك كوصفه لحالة المشردين الذين استقروا - فيما بعد - فى مختلف المدن والنواحى ، وغشيتهم سحائب الكآبة حين أيقنوا باستحالة الرجوع الى مدينتهم ثانية .

وقد استعمل الشاعر الأسلوب التقريرى المباشر فى نقل صور الأحداث فابتعد عن الخيال فجاء خطابه لأسماعنا وأبصارنا أكثر من خطابه لأعماقنا ووجداننا ، وقد جاءت القصيدة سهلة الألفاظ والتراكيب مع حسن الانتقال والترابط المحكم بين أجزائها ، على الرغم من طولها ، وهذا أمر لا يجيده الا أفذاذ الشعراء ، كما أنها خلت من المقدمات كشكوى الدهر أو بث هموم النفس وما الى ذلك .

والأمر الغريب الذى يمكن ملاحظته على القصيدة هو خلوها من الصوت القوى الذى يرتفع صارخا ومناديا للناس والحكام أن حى على الجهاد لافتكاك

الأرض والأرواح المسلمة من أيدي الزنج المجرمين ، كما فعل ابن الرومـــى من قبل . تخلو القصيدة من هذا على الرغم من مبالغة قائلها في وصف النكبة حتى زعم أنه لم يحلّ بالاسلام مثلها ، ولعل سبب ذلك هو طول المـــدة التى عاشتها ثورة الزنوج ، وعنفهم المذهل فى التخريب والقتل والهتـــك حيث استقر فى النفوس أن لا طاقة لأحد بهم .

ومن الفتن التى حصلت فى العصر العباسى الثانى ، فى أيام الخليفـــة المعتمد ، ماوقع فى المدينة المنوره فى سنة أحدى وسبعين ومائتين ، حيث دخلها محمد وعلى ابنا الحسن بن جعفر بن موسى ..... بن الحسين بن على ابن أبى طالب ، وقتلا جماعة من أهلها ، وطالبا أهلها بالأمـــوال وأخذا شيئا من ذلك ، فانتشر الرعب فى المدينة وخربت حتى انه لم يصـــل فى مسجد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أربع جمع ، لا جمعة ولا جماعـــة فقال فى ذلك أبو العباس بن الفضل العلوى :- (١)

أخربت دار هجرة المصطفى البر * ر فأبكى خرابها المسلمين .
عين فابكى مقام جبريل والقبـــ * ـر فبكى والمنبر الميمونـــا .
وعلى المسجد الذى أسه التقـــ * ـوى خلاء أضحى من العابدينا .
وعلى طيبة التى بارك اللـــ * ـه عليها بخاتم المرسلينـــا .

ان هذه الأبيات بالرغم من قلة عددها ، وبساطة أسلوبها فانها تـــدل على عاطفة جياشة مفعمة بالحزن والأسى لما أصاب مقدسات المسلمين مـــن الخراب .

---

(١) الطبرى : ١٠/ ٧ ، ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ : ٧/ ٤١٣ .
ابن الجوزى ، المنتظم : ٥/ ٨٠ .

ان الوضع يختلف من حيث الرثاء بالنسبة لقيمة المدينة المرثية ، فهنا المرثية مدينة عظيمة فى نفوس المسلمين جميعا ، فلا تخص فئة دون أخرى ففيها مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى أسس على التقوى ، وفيها القبر الشريف ، والمنبر الميمون أى منبر النبى عليه الصلاة والسلام ، فعندما تدمر هذه المعالم الشريفة ويمسها الهجر والخراب يحق لكل عين أن تبكى وتبكى .

ماقيل من الشعر فى رثاء العواصم بعد انتقال الخلافة عنها :-

منذ أن بنى أبو جعفر المنصور - الخليفة العباسى الثانى - مدينة بغداد وهى مقر الخلافة العباسية وعاصمتها وقد أخذت تزدهر ازدهارا عظيما وخاصة فى عهد الرشيد حيث أصبحت جنة الدنيا وأمل المتمنى ثم جاء عهد الأمين فخربت بغداد عند وقوع الفتنة بين الأمين والمأمون التى انحاز فيها الفرس الى جانب المأمون ، والعرب الى جانب الأمين ، وعندما جاء المعتصم بعد المأمون أراد أن يتخلص من هذين الحزبين - الموالى الفرس والعرب - معا فوجه همه لجلب أعداد هائلة من الأتراك لأن أمة تركية ، (١) وبالفعل جلب منهم مايقرب من سبعين ألفا فضاقت بهم بغداد ، وكثرت حوادثهم فتذمرت العامة منهم ، فأمر المعتصم سنة احدى وعشرين ومائتين ببناء مدينة سامراء أو سر من رأى ، واختط فيها قصورا له ولوزرائه ، وبالغ فى تجميلها ، فساق اليها الساج والخشب والجذوع من البصرة ومن أنطاكية

---

(١) القلقشندى ، مآثر الانافة فى معالم الخلافة : ١/ ٢٢١ .

وعن بناء المدينة وصفتها انظر : دائرة المعارف الاسلامية : ١١/ ٨٤ ، يونس السامرائى ، سامراء فى أدب القرن الثالث الهجرى : ٥٢ .

وسواحل الشام ، وساق اليها الرخام من اللاذقية كما حمل اليها النخل والغروس من بغداد والشام وزرع الناس أصناف البقل والزرع والرياض . . . . الخ

واتسع الناس في البناء بسر من رأى أكثر من اتساعهم ببغداد ، وبنوا المنازل الواسعة وتأنقوا فيها وارتحلوا عن بغداد بالمئات فأوحشت بغداد وهجرت لا زدهار جارتها سامراء التي أصبحت هي دار الخلافة ، وقبلة الشعراء والأدباء ، وفي ذلك يقول ابن الزيات (١) راثيا حال بغداد : (٢)

الآن قام على بغداد ناعيها * فليبكها لخراب الدهر باكيها

كانت على مابها والحرب باركة * والهدم يغدو عليها في نواحيها

ترجى لها عودة في الدهر صالحة * فالآن أضمر منها اليأس راجيها

مثل العجوز التي ولت شبيبتها * وبان عنها جمال كان يحظيها

لزت بها حرة زهراء واضحة * كالشمس مكسوة درا تراقيها

---

(١) هو محمد بن عبد الملك بن أبان بن أبي حمزة الزيات كان من أسرة غنية اشتهرت بتجارة الزيت ، ولد سنة ١٧٣ هـ بالكرخ شغف بمجالسة العلماء والأدباء في عهده كعمر بن مسعدة ، سهل بن هارون والجاحظ . . . . . حتى تبحر في العلم وأصبح من أساطين الكتابة والشعر فبلغ بذلك الوزارة ، فوزر للمعتصم ثم للواثق ، وقتل في عهد المتوكل سنة ٢٣٣ هـ لامور كثيرة .

أنظر : شذرات الذهب : ٢/٧٨ ، الوفيات : ٥/٩٤١ ، محمود الهجرسي ، محمد بن عبد الملك الزيات صاحب التنور : ٢٦ - ٢٧ .

(٢) ديوان ابن الزيات : ٩٦ .

على أن هذا الازدهار الذى عاشته سامراء لم يدم طويلا ، حيث استفحل أمر الأتراك فى هذه المدينة وسيطروا على كل شئ حتى حجروا على الخليفة نفسه وحجبوه عن الناس ، ولم يبق له الا السلطة الاسمية والدعاء على المنابر ، فبدأت المحاولات من قبل الخلفاء للتحول عن سامراء وكان آخر هذه المحاولات ، ماقام به الخليفة المعتمد ، حين أمر بنقل عاصمة الخلافة الى بغداد فى سنة تسع وسبعين ومائتين ، وبذلك فقدت سامراء العنصر الأساسى فى وجودها وحياتها . فما كادت الخلافة ترحل عنها ، والدواوين والدوائر والجيوش تغادرها ، حتى أسرع اليها الخراب ودب الدمار والهلاك فى بنيانها الضخم ، فأخذ الناس ينقضون مابنوه فيها ، وينقلونه الى بغداد للبناء والاقامة هناك . فأصبحت تلك الأبنية والمنشآت الضخمة أطلالا خربه تستدر العطف وتستنزف العيون ، وتبعث فى النفس التذكر والعبره .....

ولعل خير من يصف ماحدث لها أبنها الذى ولد فيها ونشأ وترعرع عبد الله بن المعتز ، اذ يقول من رسالة الى صديق : (١)

"كتبت اليك من بلدة قد أنهض الدهر سكانها ، وأقعد جدرانها فشاهد اليأس فيها ينطق ، وحبل الرجاء فيها يقصر ، فكان عمرانها يطوى وكان خرابها ينشر ، وقد وكلت الى البحر نواحيها ، واستحث باقيها الى فانيها ، وقد تمزقت بأهلها الديار ، فمايجب فيها حق جوار ، فالظاعن منها ممحو الأثر ، والمقيم بها على طرف سفر ، نهاره ارجاف ، وسروره أحلام ليس له زاد فيرحل ولا مرعى فيرتع ، فحالها تصف للعيون الشكوى ، وتشير الى ذم الدنيا ، بعد ماكانت بالمرأى القريب جنة الأرض ، وقرار الملك ....".

---

(١) معجم البلدان : ١٧٧/٣ .

وفى رثائها يقول :- (١)

قد أقفرت سر من را * وما لشئ دوام .

فالنقض يحمل منها * كأنه آجام .

ماتت كما مات فيل * تسل منه العظام .

وفيها يقول أيضا ، وقد جعل الصدر له والعجز من شعر أمرئ القيس في معلقته :-

غدت سر من را فى العفاء كأنها * (قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل) .

وأصبح أهلوها شبيها بحالها * (لما نسجتها من جنوب وشمأل) .

اذا ما امرؤ منهم شكا سوء حاله * (يقولون لا تهلك أسى وتجمل) .

اننا نلمس الصدق فى عاطفة ابن المعتز من خلال أبياته التى يرثى فيها حال مدينته ، فهو يؤكد حتمية الموت والفناء لكل شئ وكأنه يتعزى بذلك ، ولكنه كان يعزو خراب سامراء الى بغداد لذلك نراه دائم الهجاء لبغداد وأهلها ، يقول من قصيدة يذكر فيها سامراء ويذم بغداد : (٢)

هاتيك دار الملك مقفرة * ما ان بها من أهلها شخص .

صيدى بها والخيل جائلة * لا يستبين لشمسها قرص .

والملك منشور الجناح ، ولم * يهتك قوادم ريشه قص .

ومعاشر وجدوا مشيئتهم * وبما تحب نفوسهم خصوا .

فمضى بذاك العيش آخرة * والهم ماسر مقتنص .

والدهر يخبط أهله بيد * فى كل جارحة له قرص .

---

(١) المصدر نفسه : ١٧٨ .

(٢) ديوان ابن المعتز : ٢٨٤ .

ثم يقول فى بغداد :

أفما ترى بلدا أقمت بـــه * أعلى ساكن أهلـه خـص .

وولاته نبط زنادقـــة * ملأى البطون وأهلها خمص .

أسيافها خشب معلقـــة * مصنوعة ، وقرابها جص .

وجنودهم تحمى رعيتهــم * ولهم على أكباد هم رقص .

غلبت خيانتهم أمانتهــم * وطغى على تقواهم الحرص .

وهكذا تستمر القصيدة الى نهايتها وهى تمتلىء بالسباب والشتائم والقذف بكل ماهو قبيح لأهل بغداد على كافة طبقاتهم .

ولعله من الجدير بالذكر هنا أن الحنين لم ينقطع لسامراء عنـد الكثيرين ، فيروى عن الخليفة الراضى انه كان كثير التردد عليها ، والحـزن لخرابها وقال فى ذلك : (١)

بسر من را بلاد الملك طاب كما * معرش عيشه باللهـو مذمـوم .

أرض متى اختلست الحاظها نظرا * اهتاج ذو طرب وارتاح مهمـوم .(٢)

والحير والقصر والقاطول جنتهـا * والجعفرى بكف الدهر مزمـوم .

منازل آنست دهرا فأوحشهـا * ظلم الزمان فمثلوم ومهـدوم .

عفت وغيرها وصل الرياح لهـا * والوصل منها بحبل الهجر محتوم .

---

(١) أحمد سوسه ، رى سامراء : ٢/٣٠٠ .

(٢) الحير : اسم قصر بسامراء بناه المتوكل ، القاطول : نهر كان فى موضع سامراء قبل أن تعمر ./ معجم البلدان : (الحير) ، (القاطول) .

المبحث الثانى

رثاء الدولة الطولونية والفاطمية :

كان قيام الدولة الطولونية بمصر يمثل أول محاولة للانفصال عن سلطة الخلافة فى بغداد . وقد قامت هذه الدولة على يد أحمد بن طولون التركى الأصيل ، وذلك عندما اشتدت سلطة الأتراك فى بغداد ، وتولوا أمور الدولة ، ففى عهد الخليفة الواثق بالله نال القائد التركى بايكباك ولاية مصر ، ولكنه آثر البقاء فى بغداد ، وأرسل اليها أحمد بن طولون واليا ينوب عنه فى ادارتها . فوصل اليها سنة أربع وخمسين ومائتين ، وكان (١) وكان داهية حسن التصرف ، قرن الى ذلك حسن الخلق والسيرة المحمودة عند الناس ، فاستغل هذه الثقة وأخذ يحسن الى الناس ويوزع فيهم الأموال الكثيرة ، ويظهر اخلاصه فى خدمتهم حتى تمكن ولاؤه من قلوبهم ، فبدأ بعزل عمال العباسيين ، وجمع فى يده مقاليد البلاد ، وصار هو الحاكم الادارى والمالى والعسكرى ، وكانت الخطوة التالية أن أعلن استقلاله بملك مصر عن الخلافة العباسية ، مستغلا الوضع السياسى المتدهور ، وثورة الزنج التى كانت على أشدها ، وكانت الجهود منصرفة لمقاومتها ، وكوّن على الفور - جيشا بلغ تعداده مائة ألف جندى عندئذ ظهرت قوته ، فاضطرت الخلافة الى أن تخطب ودّه ، وتتخذه مؤيدا لها ضد الروم البيزنطيين الذين دأبوا على الاغارة من آسيا الصغرى على شمال الشام الذى كان يعرف آنذاك باقليم العواصم والثغور . كما عهد الخليفة الى ابن طولون بولاية الثغور الشامية ، فبعث ابن طولون جزءاً من جيشه وأسطوله للمرابطة فيها ، ولم

---

(١) الأتابكى ، النجوم الزاهرة : ٣/ ٥ ومابعدها أخبار الدولة الطولونية حتى سقوطها .

يلبث والى الشام التركى أن توفى سنة أربع وستين ومائتين ، فضم ابن طولون الشام كلها الى ملكه ، وصارت مصر والشام وحدة واحدة أدت واجبها فى الدفاع عن أرض الاسلام فى الوقت الذى عجزت فيه الخلافة عن فعل شىء يذكر فى هذا المجال . ولا أدل على تلك القوه من أن الروم راسلوا أحمد بن طولون لعقد هدنة معه تخوفا منه . (١) ومع هذه القوة كان ابن طولون يبعث الى خزينة الخلافة ببغداد مايرضى الخليفة وأعوانه من الأموال والمتاع ، وكأنه بذلك يضفى على ملكه صفة الشرعية ، كماكان يرصد الأموال للفقراء فى مصر وفى بغداد ، ويرضى أهل الثغور والعواصم والحرمين بما كان يحمل اليهم من المعدات والمؤن والثياب والأموال .

وفى سنة سبع وخمسين ومائتين بنى أحمد بن طولون مدينة القطائع له ولغلمانه وجنوده ، وبنى فيها قصره ووسعه وحسنه ، وبنى فيه ميدانا حسنا يضرب فيه **الصوالجه** ، فسمى القصر كله بالميدان لأجل ذلك ، وقد عمل له أبوابا وسمى كل باب منها باسم فمنها : باب الميدان ، وباب الخاصه وباب الساج وهو أعظمها ومصنوع من الساج ، وباب السباع .... الخ وكان على باب السباع هذا مجلس يشرف منه ابن طولون ليلة العيد على القطائع وعلى البحر ، وعلى باب المدينة وغيره وكان متنزها حسنا (٢) . وفى سنة تسع وخمسين ومائتين بنى ابن طولون مسجدا عظيما بالغ فى تحسينه ، وجلب اليه الصناع والبنائين المهره وأنفق عليه مايقارب عشرين ومائة ألف دينار ، من كنز يروى أنه وجده يحوى ألف ألف دينار . (٣) ثم مات أحمد بن طولون بعد

---

(١) البلوى ، سيرة أحمد بن طولون : ١٠٩ .

(٢) سيرة أحمد بن طولون : ٥٦ .

(٣) النجوم الزاهره : ٣/٧ .

أن حكم اثنتى عشرة سنه . وخلفه ابنه خمارويه ، وكان قويا كوالده ، فاهتم بمرافق الدولة ، واستطاع أن يهزم جيوش العباسيين التى أرسلت لمحاربته عند دمشق ، مما اضطر الخليفة العباسى المعتمد على الله أن يتزوج من ابنته " العباسة " تقربيا له ، وبقى على ذلك الى أن ذبح على يد خدمه (١) سنة اثنتين وثمانين ومائتين ، فخلف من بعده أمراء ضعاف كان آخرهم الأمير شيبان بن أحمد بن طولون الذى ثار على ابن أخيه هارون وذبحه سنة اثنتين وتسعين ومائتين ، وبلغت الدولة الطولونية فى هذا العام من الضعف والفوضى حدا بعيدا فاستغل هذا الوضع الخليفة العباسى المكتفى بالله ، وبعث محمد بن سليمان الكاتب على رأس جيش لمحاربة الطولونيين الذين لم يصمدوا طويلا فى وجهه فدخل مصر وقتل منها خلقا كثيرا ، وهدمها حتى أصبحت خرابا يبابا ، وفعل بها من النهب والسلب والهتك مالا يحله الله ، وبقيت مصر على هذه الحال أياما كثيرة حتى أمّن محمد بن سليمان آل طولون جميعا وساقهم معه الى بغداد بالأغلال ، فخلت منهم الديار وعفت منهم الآثار ، وحل بهم الذل بعد العز ، وزالت الدولة الطولونيه وكانت من غرر الدول ، وخرّب الميدان والقصور التى كانت به والتى مدحها الشعراء .

ويبدو أن هذا الدمار الذى أصاب مصر والميدان خاصة قد أودى بكثير من الشعر الذى قيل فى بنى طولون ، لأن ماوقفنا عليه منه يعد يسيرا جدا بالنسبة لما يذكر عن كثرة شعرائهم .

---

(١) المصدر نفسه ص ٥٢ ، وانظر ابراهيم العدوى ، التاريخ الاسلامى آفاقه السياسيه وأبعاده الحضاريه : ٣٦٣ - ٣٦٩ .

يروى صاحب النجوم الزاهره " قال القاضى أبو عمرو عثمان النابلسى فى كتاب " حسن السيره فى اتخاذ الحصن بالجزيرة " رأيت كتابا قد راثنتى عشرة كراسه مضمونه فهرست شعراء الميدان الذى كان لأحمد بن طولون ، قال : فاذا كان اسم الشعراء فى اثنتى عشرة كراسه ، فكم يكون شعرهم ؟ : (١)

ومن الذين رثوا دولة بنى طولون بعد زوالها أبو يعقوب الكاتب (٢) اذ يقول :

ان كنت تسأل عن جلالة ملكهم * فارتع وعج بمراتع الميدان .

وانظر الى تلك القصور وماحوت * وأمرح بزهرة ذلك البستان .

وان اعتبرت ففيه أيضا عبرة * تنبيك كيف تصرف العصران .

ياقتل هارون اجتثثت أصولهم * وأشبت رأس أميرهم شيبان .

وهو يشير فى البيت الأخير الى السبب المباشر الذى أضعف الدولة ، وزاد فيها الفوضى والاضطراب ، وهو قيام شيبان بن أحمد بن طولون بقتل ابن أخيه هارون بن خمارويه بن أحمد بن طولون ، ليستولى على السلطة مكانه ، فكانت ولايته اثنى عشر يوما ثم سقطت الدولة بعد ذلك لفساده وسوء تدبيره .

---

(١) النجوم الزاهره : ٣/١٤٠ .

(٢) هو أحمد بن اسحاق بن جعفر المعروف باليعقوبى . مؤرخ وجغرافى كثير الأسفار ، كان جده من موالى المنصور العباسى ، وعاش هو وأقام فى بغداد ثم رحل الى أرمينية ثم الى المغرب وعاد الى بغداد ، وتوفى بعد سنة ٢٩٢ هـ من مؤلفاته : تاريخ اليعقوبى ، وكتاب البلدان ، وأخبار الأمم السالفة وغيرها . أنظر : معجم الأدباء : ٥/١٥٣ ، معجم المطبوعات : ١٩٤٨ .

وقال اسماعيل بن أبى هاشم فى رثائهم : (١)

قف وقفة بفناء باب الساج * والقصر ذى الشرفات والأبراج .

وربوع قوم أزعجوا عن دارهم * بعد الاقامة أيما ازعاج .

كانوا مصابيحا لدى ظلم الدجى * يسرى بها السارون فى الادلاج .

كانوا ليوثا لا يرام حماهم * فى كل ملحمة وكل هياج .

فانظر الى آثارهم تلقى لهم * علما بكل ثنية وفجاج .

وعليهم ماعشت لا أدع البكا * مع كل ذى نظر وطرف ساجى .

وقال أيضا :

يامنزلا لبنى طولون قد دثرا * سقاك صوب الغوادى القطر والمطرا

يامنزلا صرت أجفوه وأهجره * وكان يعدل عندى السمع والبصرا

بالله عندك علم من أحبتنا * أم هل سمعت لهم من بعدنا خبرا ؟

وعندما هدم قصر الميدان ، وبيعت أنقاضه ، قال فى ذلك محمد بن طسويه :- (٢)

من لم ير الهدم للميدان لم يره * تبارك الله ماأعلا وأقدره .

لو أن عين الذى أنشاه تبصره * والحادثات تعاديه لاكبره .

ومنها :

وأين من كان يحميه ويحرسه * من كل ليث يهاب الليث منظره .

صاح الزمان بمن فيه ففرقهم * وحط ريب البلى فيه فدعثره .

وأخلق الدهر منه حسن جدته * مثل الكتاب محا العصران أسطره .

دكت مناظره واجتث جوسقه * كأنما الخسف فاجاه فدمره .

أوهب اعصار نار فى جوانبه * فعاد معروفه للعين منكرة .

---

(١) النجوم الزاهرة : ٣/١٤٠ ، ١٤٣ .

(٢) المقريزى ، الخطط القريزيه : ٢/١٠٩ - ١١٠ .

أين ابن طولون بانية وساكنــة * أماتة الملك الأعلى فأقــبره .

ماأوضح الأمر لو صحت لنا فكـر * طوبى لمن خصه رشد فذكره .

وقال أيضا :

قف وقفة وانظر الى الميــدان * والقصر ذى الشرفات والايوان . (١)

والجوسق العالى المنيف بناؤه * ماباله قفر من السكـــان ؟ :

أين الذين لهو به وعنوا بــه * زمنا مع القينات والنسوان ؟ .

يجبى الخراج اليهم فى دراهم * لا يرهبون غوائل الحدثــان .

فانظر الى ماشيدوا من بعدهم * هل فيه غير البوم والغربــان ؟ .

كانوا ملوك الأرض فى أيامهــم * كبراء كل مدينة ومكــــان .

فتمزقوا وتفرقوا فهناك هــم * تحت الثرى يبلون فى الاكفان .

الا أغيلمة أسارى بعدهــم * فى دار مضيعة ودار هــوان .

متذللين بأسرهم قد شــردوا * ونفوا عن الأهلين والأوطان .

والله وارث كل حى بعدهــم * وله البقاء وكل شــىء فــان .

والملاحظ على هذه المقطوعات الرثائية أنها بالاضافة الى اتحادهــا فى الدف تتحد تقريبا فى النهج والأسلوب ، فهى تتحدث عن تقلب الدهـر وعصفه بالأمم والدول مع التأكيد على النهاية الحتمية لكل حى ، مقرونة بالحكمة والعظة لمن أراد الاتعاظ ألم يقل اليعقوبى :

وان اعتبرت ففيه أيضـا عبرة * تنبيك كيف تصرف العصران .

وقال ابن طسويه :

ماأوضح الأمر لو صحت لنا فكر * طوبى لمن خصه رشد فذكره .

ومع أننا نحس صدق العاطفـة وخاصة فى قصيدة ابن أبى هاشم الذى سيظل يبكيهم أبدا ما عاش ، وفاء لحقهم وشكرا لنعمتهم عليه ، فاننا لا نجد فى هــذا

---

(١) المصدر نفسه والصفحة نفسها .

الشعر صورا خيالية جميلة أوحاها الموقف المؤسف الحزين على اندثار الدولة وانهيار قصر خلافتها العظيم ، كما أن هذه المقطوعات ابتعدت عن ذكر تفاصيل الحادث المروّع ، كالقتل والنهب والاحراق .... تلك الأمور التي تضفي على قصيدة الرثاء صورا جميلة أثناء تفجع الشاعر واجتراره لها ولعل المطالع لهذا الشعر الذي نحن بصدده - يجد بوضوح صور الرثاء في الشعر القديم فالوقوف على أطلال الميدان المحطمه أول مايدعوك الشاعر أن تقف عليها أو تعوج بها : "فارتع وعج بمراتع الميدان " ، " قف وقفة بفناء باب الساج ......" "وربوع قوم أزعجوا ..." "قف وقفة وانظر الى الميدان ...." .

ثم مسائلة القصر الخرب : بالله عندك علم من أحبتنا

أم هل سمعت لهم من بعدنا خبرا ؟

وقول الآخر :

والجوسق العالي المنيف بناؤه * ماباله قفر من السكان ؟

وبعد ذلك الدعاء له بالسقيا على عادة شعراء الأطلال والدمن :-

يامنزلا لبني طولون قد دثرا * سقاك صوب الغوادي القطر والمطرا .

ثم يأخذ في مدح بني طولون ويصفهم بأنهم ليوث لا يرام حماهم ، وأنهم ملوك الأرض جميعا وشادوا المدن والقصور الفخمة ، وعمروها بالعز والمجد وغير ذلك من الأوصاف الحميدة الى أن صاح الزمان بهم ، وطرقتهم حوادثه فهلكوا وكأن الأرض قد خسفت بهم ، وغدا ماشيدوه مأوى للبوم والغربان لشدة ماأصابه من البلى ، ومن بقى منهم حيا فهو غارق في ذله وأسره بعيد عن الأهل والوطن . ولكن الأبيات التي تشير الى مصرعهم لا تناسب ماأُخذوا به من الشدة والعنف كقول ابن طسويه :-

أين ابن طولون بانيه وساكنـه * أماته الملك الأعلى فأقـبره .

وقولـه :

فتمزقوا ، وتفرقوا فهناك هـم * تحت الثرى يبلون فى الأكفان .

ولعل السبب الذى جعله ينحو هذا النحو هو الخوف من العباسيين الذين تولوا القضاء على دولة بنى طولون . لذلك لا نجد تعنيفا أو لوما بسيطا فى هذه المقطوعات الشعريه للذين قاموا بالأفعال الشنيعة ليس ضد بنى طولون بعينهم وانما ضد غيرهم من الناس الذين كانوا تحت حكمهم فى مصر .

وهناك قصيدة أخرى بلغت مايزيد عن الأربعين بيتا لشاعر يسمى سعيد القاص يرثى فيها الدولة الطولونية : (١)

يبدأ الشاعر قصيدته بوصف حالته الكئيبة وقلة صبره لما أصاب بنى طولون فيقـول :-

جرى دمعه مابين سحر (٢) الى نحـر * ولم يجر حتى أسلمته يد الصبـر .

وبات وقيدا (٣) للذى خامر الحشـا * كما أن الأسير من الأسـر .

وهل يستطيع الصبر من كان ذا أسى * يبيت على جمر ويضحى على جمـر .

تتابع أحداث يضيعن صـبره * وغدر من الأيام والدهر ذو غـدر .

أصاب على رغم الأنوف وجدعهـا * ذوى الدين والدنيا بقاصمة الظهر .

طوى زينة الدنيا ومصباح أهلهـا * بفقد بنى طولون والأنجم الزهـر .

وفقد بنى طولون فى كل موطـن * أمر على الاسلام فقدا من القطـر .

فبادوا وأضحوا بعد عز ومنعـة * أحاديث لا تخفى على كل ذى حجره .

---

(١) القصيدة بكاملها فى الخطط المقريزيه : ٢/١٠٧ - ١٠٨ .

(٢) السحر : الرئه ، والمقصود هنا مايحاذيها من الصدر / أساس البلاغـه (سحر) .

(٣) وقيدا : أى موقدا يشتعل نارا . / اللسان (وقد) .

ان الشاعر يسكب الدمع ، ويئن أنين الأسير العانى ، وذلك لما رماه به الدهر من الأرزاء العظام التى لا يطيق لها صبرا ، وذلك أن الأيام الغادرة قد أودت بسادة الدنيا حماة الدين بنى طولون ، ويبدو أن الشاعر ذو عاطفة دينيه ، فهو يبكى بنى طولون لأنهم كانوا السد المنيع فى وجه أعداء الاسلام البيزنطيين ، الذين أرهقوا الخلافة العباسية بغاراتهم المتكرره . ثم يأخذ الشاعر فى تعداد محاسن الأمراء الطولونيين وماعطوا وأشادوا الى آخر القصيدة فعن أحمد بن طولون مؤسس الدوله يقول :

كأن ليال الدهر كانت لحسنها * واشراقها فى عصره ليلة القدر .

يدل على فضل ابن طولون همة * محلقة بين السماكين والغفر . (١)

فان كنت تبغى شاهدا ذا عدالة * يخبر عنه بالجلى من الأمر .

فبالجبل الغربى خطة يشكر (٢) * له مسجد يغنى عن المنطق الهذر .

بناه بآجر وساج وعرعر * وبالمرمر المسنون والجص والصخر .

فسيح رحاب يحصر الطرف دونه * رقيق نسيم طيب العرف والنشر .

تخال سنا قنديله وضياءه * سهيلا اذا مالاح فى الليل للسفر .

ثم يصف عينى الماء العذبة والملحة اللتين كانتا ملحقتين بالجامع حيث الأولى للشرب والأخرى للطهاره يقول :

وعين معين الشرب عين زكية * وعين أجاج للرواة وللطهر .

بناء لو أن الجن جاءت بمثله * لقيل لقد جاءت بمستفظع نكر .

---

(١) الغفر : ثلاثة أنجم صغار ينزلها القمر وهى الميزان . / الصحاح ، (غفر) .

(٢) خطة يشكر : اسم الجبل الذى بنى فيه الجامع ، وهو جبل يشكر بن جديله من لخم . أنظر ميخائيل شاروبيم ، الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث : ١/ ٢١٦ .

وتمضى القصيدة على هذا النحو ، تقف عند أعمال ابن طولون مجلة لها فتصف المارستان واتساعه والحصن والقنطره والجسور ، ثم تنتقل الى توسيع أحمد بن طولون على الناس فى الرزق والعطاء ... ثم تذكر من جاء بعده من خلفائه وأولاده خمارويه أبى الجيش ، ثم ابنه هارون وغيرهما وكيف أتت الحوادث عليهم . ثم يختم القصيدة بقوله :-

تذكرتهم لما مضوا فتتابعوا * كما أرفض سلك من جمان ومن شذر .

فمن يبك شيئا ضاع من بعد أهله * لفقدهم فليبك حزنا على مصر .

ليبك بنى طولون اذ بان عصرهم * فبورك من دهر وبورك من عصر .

ان الشاعر سلك سبيل تعداد مآثرهم وحسناتهم التى خلفوها للأمة ولعاصمتهم مصر بالذات فقد كانت جنة الدنيا أيامهم ، وهو بذلك يحاول التأثير فى نفوس السامعين أو القارئين ولكنه لم يتطرق للمصاب الجلل متعمقا ومحللا ، فكانت قصيدته أقرب الى قصائد المدح منها الى الرثاء ، ولم تبلغ من التأثير مابلغته المقطوعات التى تحدثنا عنها قبلها .

نشأة الدولة الفاطميـــــة :-

بلغت الدولة العباسية فى آواخر القرن الثالث الهجرى وبداية الرابـــع الغاية فى الفوضى والاضطراب ، والاستخفاف بالخلفاء من قبل العناصـــر المتسلطة وخاصة الأتراك الذين أصبحوا هم الحكام وقد شجعت هـــذه الحالة كثيرا من الولاة الطامعين فى الحكم على الانفصال عن عاصمة الخلافـــة بغداد . كما فعل ابن طولون فى مصر على ماأوضحناه سابقا - وشجعـــت هذه الحالة - أيضا - أصحاب الدعوات السريه المناوئه للعباسيين على الظهـور والكشف عن أهدافهم واصرارهم على تحقيقها بالقوة . وهذا ماكان مـــن الفاطميين الداعين الى المذهب الشيعى الباطنى (١) ، الذين بدأوا هـــذه الدعوه فى وقت مبكر ، ولكنهم وجدوا عنتا شديدا من الخلافة العباسيــــه حيث كان الموت العاجل نصيب كل من يظفر به منهم ، فاستغلوا ماصـــارت اليه الخلافة من الضعف وبعثوا دعاتهم الى المغرب ، وافريقيـه (تونـــس) ونجحوا فى استمالة البربر سكان تلك المناطق ، وبذلك تمهد الطريق لاقامـة دولة شيعية فى المغرب ، وبالفعل دخل داعى الشيعه المسمى عبيد اللـــه المهدى المغرب فى سنة ست وتسعين ومائتين ، واتخذ من مدينة رقـــاده جنوبى القيروان عاصمة له ، وتلقب بأمير المؤمنين ، وأبطل اسم الخليفـــة العباسى من الخطبه ، وزاد فى الآذان عبارة " حىّ على خير العمل " . (٢)

---

(١) اختلف المؤرخون قديما وحديثا فى نسب الفاطميين فمن قائل أنهم مـن آل البيت من ولد الحسين بن على بن أبى طالب وقائل أنهم من ولد عبد الله بن ميمون القداح الأهوازى وأصله من المجوس ، ولم يصلوا الى رأى فاصـل فى ذلك .

انظر : الخطط المقريزيه : ٢/ ١٥٠ - ١٥١ ، حسن ابراهيم حســن ، تاريخ الدولة الفاطمية : ٥٧ - ٥٩ .

(٢) البكرى ، المغرب فى ذكر بلاد أفريقيا والمغرب : ٢٧ .

وعبيد الله هذا هو رأس الدولة الفاطمية واليه تنسب فيقال دولة العبيديين
وأخذ المهدى يحاول مد سلطانه على جميع المغرب ، فأزال دولة بنى الأغلب
من تونس ، وأزال أو ساهم فى ازالة دولة الأدارسه ، وبذلك يكون قد مهد
الطريق للمعز لدين الله الذى جاء بعده بنصف قرن أى نحو سنة ثمان
وخمسين وثلاثمائه ، ووضع المغرب كله تحت لوائه ، وخطب للعبيديين على
جميع منابر المغرب (١) ، ثم بدأ المعز محاولاته للسيطرة على مصر التى كان
يحكمها الأخشيديون من قبل الدولة العباسية ، وقد كانت مصر فى آواخر
حكم كافور الأخشيدى تعانى من القحط الشديد الذى سببه انخفاض النيل
وأصاب الناس بلاء وجهد شديد حتى قيل انهم عجزوا عن تكفين موتاهم (٢)
وزاد الطين بله غارات القرامطة المتوالية ، وموت كافور سنة سبع وخمسين
وثلاثمائه وجيء أبى الفوارس أحمد حفيد الأخشيد خلفا له ، وكان هذا
غلاما لم يتجاوز الحادية عشره من عمره فعجز عن صد غارات المغيرين ، وعن
انقاذ البلاد مما هى فيه من الاضطراب والشده .

فاستغل المعز الفاطمى هذا الوضع ، وأرسل قائده الطهم جوهر
الصقلى على رأس جيش عرمرم بلغ تعداده مائة ألف جندى الى مصر ، فدخل
الأسكندريه دون مقاومة تذكر ثم دخل الفسطاط وأمن الشعب ، ومنحهم الحرية
التامه فى شعائرهم وجميع أمورهم . حتى اذا استتبت الأمور لجوهر دعا
خليفته المعز ، فدخل هذا مصر سنة احدى وستين وثلاثمائه واتخذها عاصمة
له ، واختط مدينة القاهرة وفصل مصر نهائيا من الخلافة العباسية ، ثم

---

(١) السلاوى ، الاستقصاء فى اخبار المغرب الأقصى : ١/ ٨٦ - ٨٧ .
(٢) الخطط المقريزية : ١/ ٣٣٠ .

أتبعها بعد ذلك بالشام والحجاز وغيرهما حتى غدت الدولة الفاطمية تمتد من المحيط الأطلسي غربا الى البحر الأحمر شرقا ، وبلغت قوتها مبلغا عظيما ، ولكن هذه القوة وهذا الاتساع لم يغنيا عنها عندما بدأت نهايتها تلوح في الأفق ، فقد انقضى عهد الخلفاء الأقوياء وجاء دور الضعف - كما هي السنة المطردة في قيام الدول وسقوطها - والتنازع وسيطرة الوزراء على الخلفاء وأصبح الوزير يأخذ لقب ملك ، وكثرت الأحزاب المتضادة المتناحرة والأهم من ذلك هو غارات الصليبيين على أجزاء من الدولة الفاطمية واحتلالها ففي سنة تسع وأربعين وخمسمائة استولوا على عسقلان آخر معاقل الفاطمية في فلسطين ، ولم يمنعهم من احتلال مصر الا ظهور قوة نور الدين زنكي في الشام . ولكن السبب المباشر في سقوط هذه الدولة الكبيرة هو اغتيال الخليفة الظافر ، وتولى ابنه الفائز وكان طفلا ، فاستنجد أهل القصر بالأمير طلائع بن رزيك والي الأشمونين الذي لبى النداء وضبط الأمور بحكمة وولى بدوره رجلا يقال له شاور على الصعيد ، ولم يلبث الوزير طلائع أن قتل بدسيسة من الخليفة العاضد آخر الخلفاء الفاطميين ، وتولى مكانه ابنه العادل ، ولكن شاور خلعه وقتله ، فاستاء الناس من ذلك الفعل وخاصة أن شاور لم يستطع دفع الصليبيين الذين زحفوا الى مصر سنة أربع وستين وخمسمائة فلم يجد بدا من استصراخ نور الدين ، فبعث نور الدين معه بجيش كبير يقوده أسد الدين شيركوه فباغت الصليبيين وهزمهم ، ودخل القاهرة دخول الفاتحين ، فخلع عليه الخليفة العاضد ، ولكن شاور بدا اقلقه من بقاء شيركوه في مصر ، واتصل بالصليبيين يطلب العون ، ولكن شيركوه قبض عليه وقتله ، وأصبح هو وزير الخليفة العاضد الذي لم يعد يملك شيئا ، ولكن شيركوه سرعان ماتوفي ، فخلفه في الوزاره ابن أخيه صلاح الدين بن أيوب

الذى عمل على توطيد مركزه بالحكم ، وكسب رضى الشعب بما كان يتمتـــع به من الأخلاق والصفات الحميدة ، وبدأ يركز حملاته على الصليبين فـــى الكرك والشوبك ، كما أنه دحرهم عندما غزوا دمياط فانهزموا مخذولـــين فلحقهم الى عقر دارهم ، الأمر الذى جعل المصريين من الشيعة والسنــه يلتفون حوله ، ويجدون فيه الحامى الأمين لهم ، عندئذ استقرت سلطنـــة صلاح الدين على أساس متين ، فقام بعزل الشيعة من المناصب الدينيـــه والفقهيـه ، وتوليتها للسنين (الشافعية) سنة سبع وستين وخمسمائـه ، كما بدأ يزيل من الدولة والجيش العناصر غير الموثوق بها ، وأبطل زيادات الأذان التى وضعها الفاطميون ، وجميع شعائرهم كالأعياد وغيرها ، ثـــم أسقط اسم الخليفة العاضد من الخطبة رسميا بأمر نور الدين ، ودعـــى للخليفة العباسى المستضئ ، وكان العاضد مريضا آنذاك ، ومات وهـــو لم يعلم بهذا التغيير . (١)

وبذلك زالت الدولة الفاطميه بعد أن حكمت أكثر من قرنين من الزمان .

وأشهر من رثى الدولة الفاطمية شاعرها (٢) عمارة اليمنى الذى يقول (٣) :-

---

(١) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ : ١١/١٤٧ ، المقريزى ، اتعـــاظ الحنفا : ٣٢٤ - ٣٢٥ .

(٢) هو أبو محمد عماره بن أبى الحسن الحكمى المذحجى . نشأ فى مدينـة مرطان من تهامه ، ثم رحل الى زبيد سنة ٥٣١ فتفقه فيها على المذهب الشافعى ، وأخذ يقول الشعر من ذلك الحين ، قدم مصر سنة ٥٤٩ هـ أيام الخليفة الفائز . ووزيره ابن رزيك فأجزلا صلته ، وبالغا فى اكرامــه فأطنب فى مدحهم وأحبهم ، وظل يحن الى الفاطميين بعد زوال دولتهم وانتهى به الأمر أن ائتمر مع عدد من المصريين للفتك بصلاح الديـــن ، ولكنهم كشفوا ، فأعدموا سنة ٥٦٩ هـ من تصانيفه : أخبار اليمن ، النكت العصرية فى اخبار وزراء الدوله المصريه . أنظر :- العماد الأصفهانـــى : خريده القصر (قسم شعراء الشام) ٣/١٠١ - ١٠٢ ، المقدســـى ، الروضتين فى أخبار الدولتين : ١/٢٢٤ ، أخبار اليمن ص ٢٢ .

(٣) القصيدة فى ديوانه : ١٤٨ ، ابن واصل ، مفرج الكروب : ١/٢١٢ - ٢١٦ .

رميت يادهر كف المجد بالشلل * وجيدة بعد حسن الحلى بالعطل .

سعيت فى منهج الدهر العثور فان * قدرت من عثرات الدهر فاستقل .

هدمت قاعدة المعروف من عجل * سقيت ، مهلا أما تمشى على مهل .

لهفى ولهف بنى الآمال قاطبة * على فجيعتها فى أكرام الدول .

يبدأ الشاعر قصيدته بهذا المطلع الوقور ، متبرما بأفعال الدهر الذى رمى قاعدة المعروف ، ومنية الآمال وأعظم الدول بقاصمة الظهر ، فزلزل أركانها وأذهب خلفاءها . ولكن الشاعر مع لهفته وتفجعه لا يبدو ثائر النفس ولا عنيف العبارة ، وذلك للحقيقة التى استقرت فى نفسه وهى أنه لا أحد يستطيع الهرب مما هو مقدر عليه ، بل ستأتيه به الأيام عاجلا أو آجلا .

ثم يبين الشاعر حبه للدولة الفاطمية لما ناله على أيدى خلفائها من الحفاوة والتكريم حين قدم مصر :-

قدمت مصر فأولتنى خلائفها * من المكارم ما أربى على أملى .

ونلت من عظماء الجيش تكرمة * وخدمة حرست من عرض الخلل .

ياعاذلى فى هوى أبناء فاطمة * لك الملامة ان قصرت فى عذلى .

ثم ينتقل الى البكاء على دولة الفاطميين ومعالمها الحضارية كالقصور التى أزعج أهلها عنها وبعضها هدم ، وبعضها الآخر سكنه أناس من غير أهله الذين عرفهم الشاعر :-

بالله زر ساحة القصرين وابك معى * عليهما لا على صفين والجمل .

وقل لأهلهما والله ما التأمت * فيكم جروحى ولا قرحى بمندمل .

مررت بالقصر والأركان خالية * من الوفود وكانت قبلة القبل .

فملت عنها بوجهى خوف منتقد * من الأعادى ووجه الود لم يَمِل .

أسلبت من أسف دمعى غداة خلت * رحابكم وغدت مهجورة السُبُل .

والقصران اللذان يبكيهما الشاعر فى هذه الأبيات هما : القصر الكبير ،

(١)
وقصر اللؤلؤة حيث مقر الخلفاء الفاطميين ، وكانا يمجان بخزائن الأموال والعبيد والجوارى ، فوضع صلاح الدين يده على الأموال ، وباع وأعتق واستخدم ماشاء من أولئك العبيد والجوارى .

ثم أعطى القصر الكبير للأمراء والقواد فسكنوه ، وأسكن أباه نجم الدين أيوب فى قصر اللؤلؤة ويزور الشاعر هذه القصور التى طالما رتع فى بلاطهما ودبج المدائح فى أربابها ، فلا يرى تلك الوفود التى كانت تفعم بهما عراص قصر الملك ورحابه ، فيخفق قلبه للذكريات الماضية ، ولكنه أشاح بوجهه عنها خوف الرقباء والأعداء ، وأسبل دمعة على تذكر الرحاب المهجورة ، والمكارم التى لا تزال آثارها تنبىء عنها :-

أبكى على مأثرات من مكارمكم * حال الزمان عليها وهى لم تحل .
دار الضيافة كانت أنس وافدكم * واليوم أوحش من رسم ومن طلل .
وفطرة الصوم ان أضحت مكارمكم * تشكو من الدهر حيفا غير محتمل .
وكسوة الناس فى الفصلين قد درست ورث منها جديد عندهم وبلى .
وموسم كان فى يوم الخليج لكم * فيهن من وبل جود ليس بالوشل .
والأرض تهتز فى وشى وفى شبة * مثل العرائس فى حلى وفى حلل .
وماخصصتم ببر أهل ملتكم * حتى عممتم به الأقصى من الملل .
وماحطتم قرى الأضياف من سعة الـ * أطباق الا على الأكتاف والعجل .
كانت رواتبكم للوافدين وللضـ * ـيف المقيم وللطارى من الرسل .

---

(١) الخطط المقريزيه ٢/ ٢١٢ - ٢١٦ .

يذكر عمارة اليمني في هذه الأبيات - بحزن وألم - ماكان للفاطميين من المآثر العظيمة التي نال خيرها القريب والبعيد ، كدار الضيافة التي بناها الوزراء الفاطميون وجهزوها بكل مايلزم الساكن ، لتكون مأوى للوفود التي تقدم الى قصر الحكم من خارج الدولة أو داخلها ، كما كان من عادة الخلفاء والوزراء ومراسمهم اطعام الناس في شهر رمضان ، فكانوا يجلسون معهم على مائدة واحدة تسمى سماط شهر رمضان تحفل من أصناف الطعام والشراب مايعجز عنه الوصف ويبقى هذا الحال طيلة الشهر الكريم ، حتى اذا كان يوم العيد زيد في الأطعمة ووزعت الهدايا والدنانير والأكسيه (١) . ولهم موسم كان يسمى بيوم الخليج ، وهو يوم ازدياد منسوب مياه النيل فيفرحون بذلك أشد الفرح ، ويخرج الخليفة والحاشية ويركبون القوارب المائيه الصغيره ، ثم ينزلون في مكان معين على شاطئ النهر وقد ضربت لهم المضارب الفخمه واحتشد الناس احتشادا عظيما ، فيأتي القراء ، ويقرأون القرآن حتى يختموا ، ثم تقام صلاة الشكر لله على هذه النعمه يصليها الخليفة بالناس ، ويبيتون تلك الليلة في ذلك المكان يكبرون حتى اذا جاء الصباح نثرت على الناس الأموال والثياب بغزارة ، ثم ينصرف الخليفة والوزراء وسط موكب فخم تزهو به الأرض . (٢)

وبعد هذه الأفعال الخيره التي كانوا يقومون بها ، وفقدت بعدهم يأخذ الشاعر في مدحهم والثناء عليهم مركزا على مذهبهم الديني فضفيا عليهم أوصاف الأولياء الصالحين من أئمة الهدى وأن الاعتصام بحبهم هو أصل الدين ونجاح السعي في الدنيا والآخره يقول :-

---

(١) ، (٢) أنظر تفصيل هذه المواسم في المصدر السابق : ص ٢٤١ ، ٢٢٧ ، ٣٥٧ .

والله لا فاز يوم الحشر مبغضكم * ولا نجا من عذاب النار غير ولى .

ولا سقى الماء من حر ومن ظمأ * من كف خير البرايا خاتم الرسل .

ولا رأى جنة الله التى خلقت * من خان عهد الامام العاضد بن على .

أئمتى وهداتى والذخيرة لى * اذا ارتهنت بماقدمت من عمل .

تالله لم أوفهم فى المدح حقهم * لأن حقهم كالوابل الهطل .

باب النجاة هم دنيا وآخرة * وحبهم فهو أصل الدين والعمل .

نور الدجى ومصابيح الهدى ومحل * ل الغيث ان ونت الأنواء فى المحل .

أئمة خلقوا نورا فنورهم * من نور خالص نور الله لم يفل .

والله لا زلت من حبى لهم أبدا * ماأخر الله لى فى مدة الأجل .

اننا لنلمس صدق العاطفة ، والولاء والاخلاص لاولئك القوم فى أبيات الشاعر هذه . كما نحس أيضا الاندفاع والثوره التى لم يستطع الشاعر ضبطها فهو فى الأبيات الثلاثة الأولى يعرض بوضوح بصلاح الدين وأصحابه الذين أزاحوا الخليفة العاضد ، وقضوا على الخلافة الفاطمية . ثم هذه المبالغات التى يضيفها ، والتى يوصلهم بها الى حد التقديس مع علمه بما كان من الاختلاف فى حقيقة نسبهم العلوى ، فهم عنده نور من نور الله الخالص الذى يجلو الدياجى ، وينير سبل الهدى وهو يؤكد فى ختام قصيدته على حبه الأبدى لهم ماأنسأ الله له فى الأجل .

ومن الجدير بالذكر فى هذا المقام أن عمارة اليمنى الذى قد يتوهم من شعره أنه على مذهب الشيعة الفاطميين كان سنيا شافعيا (١) . ويروى أن الملك الصالح طلائع بن رزيك الفاطمى بعث الى عماره الأبيات التاليه يدعوه

---

(١) أخبار اليمن : ٣١ .

فيها الى مذهبه الشيعى ، ومعها ثلاثة أكياس من الذهب فيها ثلاثة آلاف دينار :-

قل للفقيه عمارة ياخير مـــن * أضحى يؤلف خطبة وخطابـــا .

اقبل نصيحة من دعاك الى الهدى قل حطة وادخل علينا البابـــا .

تلق الأئمة شافعين ولا تجـــد * الا لدينا سنة وكتـــابـــا .

وتعجل الآلاف وهى ثلاثـــة * صلة وحقك لا تكـون ثوابـــا .

فأبى عمارة وأنكر ذلك ، وأجاب داعيه مع رسوله :-

حاشاك من هذا الخطاب خطابا * ياخير أملاك الزمان نصابـــا .

لكن اذا ماأفسدت علماؤكـــم * معمور معتقدى وصار خرابـــا .

ودعوتم فكرى الى أقوالكـــم * من بعد ذاك أطاعكم وأجابـــا .

فاشدد يديك على صفاء مودتـى * وأمنن على وسد هذا البابـــا .

ويقول عمارة - أيضا - فى رثاء الفاطميين ، وهو بذلك يستثير حفيظـــة أصحاب صلاح الدين :- (١)

لما رأيت عراص القصر خاليـــة * من الأنيس ومافى الربع سادات .

أيقنت أنهم عن ربعهم رحلـوا * وخلفونى وفى قلبى حزازات .

سألت أبله قلبى فى السلو وقـد * يقال للبله فى الدنيا اصابات .

فقال رأى ضعيف لا يطاوعـــنى * كيف السلو وأهل القصر قد ماتوا .

يارب ان كان لى فى قربهم طمع * عجل بذاك فللتسويف آفـــات .

لقد ظل الشاعر وفيا لمن يرثيهم ، حتى بعد زوال دولتهم بزمن ، وقيام الدولة الأيوبية مكانها ، وكأنه لا يكاد يصدق أن تلك الدولة الواسعة العظيمة

---

(١) أخبار اليمن : ٣٣ - ٣٤ .

قد دالت دولتها ، حتى اذا مارأى خلو قصورهم من الأنيس أيقن برحيلهم فثارت فى نفسه الاحزان والحزازات على أعدائهم . تلك الحزازات التى تمنع قلبه من السلو والنسيان ، وقد ساق لنا المحاورة بينه وبين قلبه بقالب خيالى جميل زاد فى توضيح ألمه لفراقهم وتصميمه على فعل شئ ما من أجلهم . وبالفعل فقد دفعه ذلك الحقد على الأيوبيين أعداء أحبابه الفاطميين الى أن يؤلب الناس على صلاح الدين وأن يشترك فى مؤامرة مع وجهاء المصريين وقضاتهم لارجاع الأمر الى الفاطميين ، واتصل هؤلاء المتآمرون (بأما لريك) ملك بيت المقدس الصليبى ، وبغليوم الثانى ملك النورمان بصقلية ، ولكن خابت آمالهم عندما اكتشفهم رجال صلاح الدين ، وقتلوهم ومنهم شاعرنا الذى استجاب الله دعوته - كما فى البيت الأخير - فألحقه بقومه على عجل . (١)

---

(١) انظر الخبر فى : وفيات الأعيان : ٣٧٦/١ ، عنان ، تراجم اسلامية : ٥٦ .

خراب المدن بالحوادث الطبيعية وماقيل فى ذلك من الشعر :-

لم يقف دور الشعر عند رثاء المدن والدول الساقطة والمدمره بفعل الحروب والفتن بل تعدى ذلك الى متابعة الحوادث الطبيعية التى تصيب المدن بقضاء الله وقدره كالزلازل والأمطار وغير ذلك .

ولقد حدثت فى آواخر الدولة الفاطمية وفى سنة اثنتين وخمسين وخمسمائه زلازل عنيفة فى بلاد الشام ، فانهدمت حماه وشيزر ، ومات من أهلهما وتشرد الكثير " ولو لم تدرك العباد والبلاد رحمة الله - تعالى - ولطفه ، ورأفته لكان الخطب الخطير ، والأمر الفظيع المزعج " . (١)

وفى ذلك يقول بعض الشعراء :-

روعتنا زلازل حادثات * بقضاء قضاه رب السماء .

هدمت حصن شيزر وحماة * أهلكت أهلها بسوء القضاء .

وبلادا كثيرة وحصونا * وثغورا موثقات البناء .

واذا مارنت عيون اليها * أجرت الدمع عندها بالدماء .

واذا ماقضى من الله أمر * سابق فى عباده بالمضاء .

حار قلب اللبيب فيه ومن كا * ن له فطنة وحسن ذكاء .

وتراه مسبحا باكى العيـ * ـن مروعا من سخطة وبلاء .

جل ربى فى ملكه وتعالى * عن مقال الجهال والسفهاء .

والملاحظ على هذه الأبيات التسليم الكامل لقضاء الله ، وقدره الذى نزل بتلك البلاد فدمرها وأهلك أهلها ، فلا يسع الشاعر والحالة هذه الا أن يسكب دموعه فى صمت وخشوع ، ولعل الشاعر المجهول لم يكن من أهل هاتين المدينتين المنكوبتين لأنه لم يذكر لنا تفاصيل الحادث وماحوى من هدم ، وهلاك وماالى ذلك .

---

(١) ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق : ٣٣٤ .

ومن رثى شيرز بقصائد كثيرة باكية مؤثرة ابنها الأمير أسامة بن منقذ (١) ، وكان مبعدا عنها بأمر عمه أبى العساكر سلطانها آنذاك ، وقد كان فى بعده عنها ، الخير له ولأسرته اذ أنهم نجوا من الزلزال الذى دمر المدينة وقضى على بنى منقذ بأسرهم وأزال ملكهم .

يقول أسامه :- (٢)

أنظر منازل آل منقذ انها * عظة اللبيب وعبرة للناظر .

كانوا بها فى نعمة محروسة * بمكارم ، وذوابل ، وبواتر .

مارامها ملك ولا ذو قدرة * الا انثنى عنها بقلب طائر .

متلهفا مااسطاعها ومن الذى * يلج العرين على الهزبر الخادر .

فأصابها قدر فأهلك من بها * وأعاد شامخها كرسم داثر .

فاذا ذكرتهم عرتنى حسرة * تمرى سحائب دمعى المتبادر .

---

(١) هو مؤيد الدولة أبو مظفر أسامة بن مرشد بن منقذ ، ولد سنة ٤٨٨ بشيزر ، كان فارسا شجاعا حارب الفرنجة مع السلطان نور الدين زنكى ثم خرج الى القاهرة فأكرمه الخليفة الفاطمى الحافظ لدين الله سنة ٥٣٩ ، ولكنه تركها عائدا الى دمشق عندما كثرت الدسائس حوله وكان شاعرا وأديبا صنف عدة كتب منها " الاعتبار " " والمنازل والديار" وله ديوان شعر . توفى سنة ٥٨٤هـ / أنظر ترجمته فى : معجم الأدباء ١٨٨/٥ ، تهذيب ابن عساكر ٤٠٠/٢ ، الاعتبار : ١-٢ .

(٢) أسامه بن منقذ ، المنازل والديار : ٢/١ .

ان أمر شيزر يدعو لأخذ العظة والعبرة ، فبينما هى فى عز قوتهـــا ومنعتها التى أعيت الملوك وأرتدوا عنها خائبين اذ ربما أصابها قدر اللـه الذى لاراد له فأعادها أثرا بعد عين .

ويقــول أيضــا :

غاضت دموعى فى المنازل وارعوى * صبرى وراجعنى الرقاد النافــر .

ان لم أسح بها سحائب أدمــع * ينجاب خشيتها الغمام الباكــر .

أأحمل الأطلال منــة عــارض * وسحاب دمعى مستهل ماطـــر .

انى اذا بشؤون عينى باخـــل * وبعهد من سكن المنازل غـادر .

ان حادثة الزلزال وقعت على نفس الشاعر وقوع الصاعقة ، فلم يعـــد يطيق صبرا أو هجوعا وكيف لا ؟ والبلد مسقط رأسه والقوم عمومته وبنوهـــم والحادث لا يجدى معه دفاع أو مقاومه فلابد اذن من اهراق الدمع الغزيـــر الذى يستغنى به الشاعر عن السحاب لسقيا أطلال قومه ، لأنه يخشى أن يحمل أطلال الكرام منة جود السحاب فيكون بذلك قد غدر بعهدهم وهذه الصورة الجميلة تبين مدى حب الشاعر لوطنه وقومه رغم عداوتهم له ، كما تبين حزنـه الشديد وبكاءه المتواصل لفراقهم الأبدى ، وقد سلك فيها سبيل المبالغــة التى يقبلها الموقف الشعرى .

وقال أيضا يبكى بلده شيزر :- (١)

حيا ربوعك من ربا ومنـــازل * سارى الغمام بكل هام هامـــل .

وسقتك يادار الهوى بعد النوى وطفاء تسفح بالهتون الهاطل .

أبكيك أم أبكى زمانى فيـك أم * أهليك أم شرخ الشباب الراحـل .

درست منازلهم وأوحش منهـم * مأنوس أندية وعـــز محافــــل .

---

(١) عمر موسى باشا ، أدب الدول المتتابعة : ٢٧٥ .

واها لهم من عالم ومعالـــم * وممنعات عقائل ومعاقـــل .

ذهبوا ذهاب الأمس مامن مخبر * عنهم ، وزالوا كالظلال الزائل .

وبقيت بعدهم حليف كآبـــة * مستورة بتجمـــل وتحامل .

سعدوا براحتهم ، وها أنا بعدهم: فى شقوة تضنى وهم داخل .

انها لمصيبة عظمى منى بها الشاعر ، فهو يبكى ويتفجع على أشـــياء كثيرة ، على مدينته التى قضى فيها شطرا من حياته على أهلها الذين بـادوا ودرست منازلهم ، ولم يبق لهم أثر ، ولا عنهم مخبر واذا كانوا هم ماتـــوا واستراحوا ، فقد أورثوا شاعرنا هما وشقوة قاتله ، وهو فى أســـلوبه وبخاصة فى هذه القصيدة يكثر من استعمال المحسنات كالجناس والطبـــاق والمقابلـة وغيرها ولعل هذا مراعاة لأسلوب الشعر الذى كان سائدا فى ذلك الوقـت .

وله قصيدة أخرى باكيه يقول منها :-

مااستدرج الموت قومى فى هلاكهـم * ولا تحزمهم مثنى ووحـدانـا .

ماتوا جميعا ، كرجع الطرف وانقرضـوا * هل ماترى ، تارك للعين انسانا .

لم يترك الموت منهم من يخبرنـــى * عنهم فيوضح مالا قوة تبيـــانا .

هذى قصورهم أمست قبـــورهـــم * كذاك كانوا بها من قبل سكانا .

ويح الزلازل ، أفنت معشرى فاذا * ذكرتهم خلتنى فى القوم سكرانا .

أفنت على معشرى الأدنين فاصطلمت * منهم كهولا وشبانا وولـدانـــا .

لم يحمهم حصنهم منها ولا رهبـــت * بأسا تناذره الأقران أزمانـــا .

بنو أبى ، وبنو عمى ، دمى دمهـم * وان أرونى مناواة وشـــنآنــا .

بطيب النفس عنهم أنهم رحلـــوا * وخلفونى على الآثار عجـــلانـــا .

وهو هنا يصور مصرعهم الرهيب الفاجع ، حيث هلكوا جميعا فى ساعـــة واحدة ، فأصبحت القصور الشامخة قبورا لهم ، ولم تحمهم قلعتهم المنيعـة حيث سقطت على السلطان أبى العساكر ومن معه من الأهل والحاشيــة فأردتهم وهو فى البيت الأخير يستعجل اللحاق بهم .

المبحث الثالث : الشعر يرثى سقوط بيت المقدس بيد الصليبيين :-

لقد ظل احتلال بيت المقدس ، وارجاعه الى الهيمنة النصرانية الحلم الذى داعب خيال الافرنج قرونا طويلة تمتد الى أيام فتحه الأول فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - فكانوا يعدّون العدة وينتهزون الفرص لتحقيق هذا الهدف الكبير ، ولا طفاء نار غيظهم بالانتقام من المسلمين . ولقد واتتهم الظروف فى النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى ، عندما كان العالم الاسلامى موزعا بين عدة قوى ومراكز فالأتراك السلاجقة يسيطرون على الشام بعد أن حلّوا محل بنى بويه فى بسط نفوذهم على الخلافة العباسية فى بغداد سنة سبع وأربعين وأربعمائة يقابلهم الفاطميون فى مصر حيث كان العداء مستحكما بين الدولتين بسبب الأطماع السياسية ، والخلافات المذهبية (١) وفى سنة تسع وثمانين وأربعمائة وردت الى البابا أوربان الثانى - صاحب السلطة الواسعة فى أوربا آنذاك - رسائل كثيرة تحمل شكاوى من معاملة السلاجقة الذين كانوا يحكمون بيت المقدس - للحجاج النصارى ، كما وصلت - أيضا - فى هذا الوقت رسل امبراطور الدولة البيزنطية " الكسيوس " تحمل رسائل الاستغاثه وتطلب المساعده العاجله الفوريه لانقاذ الامبراطوريه البيزنطيه (النصرانيه) من غزوات السلاجقه التى تكررت بعد انتصارهم فى معركة ملاذكرد سنة أربع وستين وأربعمائه حتى استطاعوا أن يقهروا هذه الدولة الكبرى ويفرضوا عليها جزية بلغت ثلاث مائة ألف دينار (٢) ، ومما جاء فى رسائل ذلك الامبرطور للبابا قوله : " ان من الحكمة أن يحارب الأتراك فى أرض آسيا بدل أن تنتظرهم حتى يقتحموا بجحافلهم بلاد البلقان الى عواصم أوربا الغربية " .

---

(١) سعيد عاشور ، بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى : ٦٥ .
(٢) ول ديورانت ، قصة الحضارة : الجزء الرابع من المجلد الرابع : ص ١٣ الترجمه العربيه .

كما لا ننسى الأطماع الماديه لدى الأوروبيين فى خيرات الشرق الوفيره وأطماع البابا نفسه بمد نفوذه على الكنيسة الشرقية ، وتكوين عالم مسيحى عظيم القوة متحد تحت حكم البابوات . لذلك استغل البابا أوربان اجتماع المجمع الدينى النصرانى الكبير فى مدينة كليرمون بفرنسا ، وكان يحضره ألوف من الفرسان بالاضافة الى رجال الدين والنبلاء وغيرهم (١) . وألقى فى هذا المجمع خطابا حماسيا ، عمل عمله فى اذكاء الروح القتاليه عند النصارى مما أدى الى خروجهم بمئات الالاف الى الشرق لانقاذ القبر المقدس من أيدى المسلمين ، حتى ينالوا رضى البابا ورضى الرب بالتالى ، وقد جعلوا شعارهم صليبيا من القماش الأحمر يوضع على الكتف ، فعرفوا لذلك بالصليبيين (٢) وكان مما قاله البابا (٣) : "تقدموا الى البيت المقدس ، انتزعوا تلك الأرض الطاهره ، واحفظوها لأنفسكم ، فهى تدر سمنا وعسلا . انكم اذا انتصرتم على عدوكم ورثتم ممالك الشرق ، وان خذلتم فستقضون حيث مات يسوع فتخلدون فى النعيم الدائم . اذهبوا الى القتال ، وسنرتب أموركم وأموالكم فى غيابكم ، سأغفر لكم ذنوبكم وخطاياكم بالقوة التى زودنى بها الله .... فليثر همتكم ضريح المسيح المقدس ربنا ومنقذنا ، الضريح الذى تمتلكه الآن أمم نجسه ..... ان أورشليم أرض لا نظير لها فى ثمارها هى فردوس المباهج ، ان المدينة العظمى القائمة فى وسط العالم تستغيث بكم أن هبوا لانقاذها ......" .

---

(١) فليب حتي وآخرون ، تاريخ العرب المطول : ٢/ ٧٥٢ - ٧٥٣ .

(٢) محمد كرد على ، خطط الشام : ١/ ٢٤٨ - ٢٤٩ .

(٣) محمد صبيح ، القدس معاركنا الكبرى : ١/ ٣٦٦ .

ثم أخذ بعد ذلك يطوف بنواحي فرنسا وايطاليا ويدعو الى الحرب ، ويخمد النزاع القائم بين الطوائف النصرانية ، وكان يهرع اليه الناس بالالاف وخاصة من الفرنسيين الذين كانوا في أزمة اقتصادية شديدة ووجدوا في هذه الحرب متنفسا يدعمون به أنفسهم ماديا . (١)

ولقد أسفرت جهود البابا بعد تسعة أشهر من العمل المتواصل عن تكوين حملة صليبية قوامها ثلاثون ألف جندي بقيادة ملوك أوروبا يرافقهم المندوب البابوي الذي يمثل الزعيم الروحي . وساروا حتى وصلوا سنة تسعين وأربعمائة الى أنطاكية * وحاصروها حصارا شديدا مدة تسعة أشهر هلك منهم في ذلك خلق كثير ولم يستطيعوا اقتحامها الا بخيانة أحد الحراس وانه لمن المؤسف والمحزن أن تصل في هذه الظروف التي يستبيح فيها الصليبيون أنطاكية سفارة من الأفضل بن بدر الجمالي وزير الدوله الفاطمية (٢) تحمل عروضا للاتفاق مع الصليبيين ضد السلاجقه على أن يكون القسم الشمالي من بلاد الشام للصليبيين ، والجنوبي (فلسطين) للفاطميين ، فتظاهر الصليبيون بالقبول وأرسلوا سفارة الى مصر تؤكد التعاون . عندئذ جرد الأفضل حملة قوية وحاصر بيت المقدس واحتله وطرد الحاكم السلجوقي وأتبع القدس لدولته وأناب فيه رجلا من قبله يعرف بافتخار الدولة وكأن هذا الخائن لا يعلم أن الصليبيين يهدفون في المقام الأول الى الاستيلاء على القدس . واستمر الصليبيون في زحفهم نحو بيت المقدس وفي طريقهم عرجوا

---

(١) سعيد عاشور ، الحروب الصليبيه : ٣٤/١ .

* الأسكندرونه حاليا .

(٢) الأتابكي ، النجوم الزاهره : ١٤٧/٥ .

على معرة النعمان (١) فقاتلهم أهلها قتالا عنيفا ، ولكنهم دخلوها فى النهاية وأعملوا السيف فى رقاب أهلها فقتلوا منهم مايزيد على مائة ألف انسان ، وسبوا النساء ، وأقاموا فيها أربعين يوما يعطون الأعمال المروعه دون أن تجد نصيرا .

وقد رثى هذه المدينة الشاعر وجيه بن عبد الله بن نصر التنوخى بقوله (٢) :-

هذه صاح بلدة قد قضى اللـ * ـه عليها كما ترى بالخراب .

وقف العيس وقفة وابك من كا * ن بها من شيوخها والشباب .

واعتبر ان دخلت يوما اليها * فهى كانت منازل الأحباب .

ثم استمرت الحملة فى سيرها نحو القدس بعد أن أخضعت كل المدن التى مرت عليها وأخذت منها الجزية ، وفى سنة اثنتين وتسعين وأربعمائه وصل الصليبيون الى أسوار بيت المقدس وضربوا حوله طوقا من الحصار دام شهرا ونصف الشهر ، ثم جاءوا ببرجين يطلان على سور المدينه فأحرق المسلمون أحدهما ، ولكنهم زحفوا بالآخر حتى ألصقوه بالسور ، ورموا من عليه بالمجانيق والسهام فانهزم المقاتلون من المسلمين ، ودخل الصليبيون المدينة دخولا مروعا وصبوا ما بأنفسهم من حقد على الاسلام والمسلمين على

---

(١) مدينة بالشام قديمة ، كبيرة كثيرة المبانى لها سبعة أبواب ، من أخصب بلاد الله وأكثرها أرزاقا يصل التفاف بساتين الزيتون والتين وأنواع الفواكه فيها مسافة طويلة ، وقيل أنها تنسب الى الصحابى النعمان بن بشير / انظر البلاذرى ، فتوح البلدان : ١٥٦ ، رحلة ابن جبير : ٢٥٤ .

(٢) اليافعى ، مرآه الجنان : ٣/١٥٤ .

رؤوس أهل هذه المدينة المقدسه فلم يفرقوا بين رجل وامرأة أو طفل وشيخ ، ثم انجفل الناس الى المسجد الأقصى يحتمون به ، فتبعتهم خيل الصليبيين الى داخله وأعملوا فيهم السيف ، فقتلوا فيه مايزيد على سبعين ألف إنسان منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم ممن فارق الأوطان ، وجاور بذلك الموضع الشريف . (١) وقد هزت هذه الحادثة ضمائر الناس ونفوسهم فأطالوا البكاء والنحيب فقال بعضهم :-(٢)

أحل الكفر بالاسلام ضيما * يطول عليه للدين النحيب .
فحق ضائع ، وحمى مباح * وسيف قاطع ، ودم صبيب .
وكم من مسلم أمسى سليبا * ومسلمة لها حرم سليب .
وكم من مسجد جعلوه ديرا * على محرابه وضع الصليب .
دم الخنزير فيه لهم خلوق * وتحريق المصاحف فيه طيب .
أمور لو تأملهن طفل * لطفل فى عوارضه المشيب .
أتسبى المسلمات بكل ثغر * وعيش المسلمين اذا يطيب .
أما لله والاسلام حق * يدافع عنه شبان وشيب :
فقل لذوى البصائر حيث كانوا * أجيبوا الله ويحكم أجيبوا .

انها عبرة حزينة يذرفها الشاعر على ماحل بالبلد الشريف وأهله من القتل والحرق واستباحة الحمى ، وتحويل المساجد الى كنائس نصبت الصلبان على محاريبها ، وغابت عنها أصوات المؤذنين . كما مزقت المصاحف وديست وأحرقت الأمر الذى أحدث جرحا غائرا فى نفوس المسلمين، ويذكر المؤرخون

---

(١) انظر تفاصيل احتلال القدس فى : ابن الأثير ، الكامل : ١٠/٢٧٢ - ٢٧٧ .

(٢) النجوم الزاهره : ٥/١٥١ .

أن الصليبيين حولوا قبة الصخرة الى كنيسة ، وأعطوا قسما منها لفرسان الهيكل ليسكنوا فيه ، واتخذوا الأبنية السفلى اسطبلات لخيولهم ودعوها باسطبلات سليمان . (١)

وبعد أن يعدد الشاعر الأمور الشنيعة التي حلت بالمسلمين ، والتي يشيب لهولها الأطفال يرفع صوته صارخا بقوة ، مستثيرا لعزة الاسلام بأن حقوق الله والاسلام قد انتهكت من قبل الأعداء فأين الذين يعرفون هذه الحقوق من المسلمين ليهبوا لحمايتها أينما كانوا .

لقد كان للقدس - خاصة - منزلة عظيمة في نفوس المسلمين على اختلاف ديارهم فهي أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين ، فمنذ أن تقدم الصليبيون لحصارها شعر أهل الشام بالخطورة والخسارة العظمى اذا أحتلت ، فتوجه وفد من الشام على رأسه قاضي دمشق الى بغداد ليستنجد بالخليفة العباسي المستظهر بالله باعتباره المسئول الأول عن حماية المسلمين فحضروا بين يديه ونقلوا له الأخبار التي تدمي القلوب وتبكي العيون ، فخرج الناس في الجوامع يستغيثون ويبكون حتى انهم كانوا صائمين وأفطروا لشدة وقوع الخبر عليهم (٢) ولكن الخليفة كان لا يقدر على شيء مايطلب ولا حول له ولا قوة ، كما أن سلطان السلاجقة آنذاك (بركياروق) لم يفعل شيئا يذكر فوقع التقاعس من الجميع ، فتمكن الصليبيون من البلد وأقاموا فيه مملكتهم

---

(١) محمود العابدي ، قدسنا : ص ٦٧ .

(٢) تاريخ أبي الفداء : ٢/ ٢٢٢ .

التى كانت حلما طالما تمنوا تحقيقه .

وفى هذا الموقف الرهيب والخذلان العجيب قال الأبيوردى :- (١)

مزجنا دماء بالدموع السواجم * فلم يبق منا عرضة للمراجم .

وشر سلاح المرء دمع يفيضه * اذا الحرب شبت نارها بالصوارم .

فايها بنى الاسلام ان وراءكم * وقائع يلحقن الذرى بالمناسم .

يبدأ الشاعر قصيدته بهذا المطلع الحزين الباكى الذى يمزج فيه الدم بالدمع ألما وحسرة على مايجرى للمسلمين بفعل الأعداء من جانب وبخذلانهم من قبل اخوانهم المسلمين من جانب آخر ، وبما أن الشاعر لا يستطيع أن يفعل شيئا فى الميدان الجهادى بمفرده فقد لجأ لسلاح العاجزين وهو الدمع الذى لا يغنى شيئا . ثم يتوجه الى بنى الاسلام فى بغداد وغيرها ويخاطبهم باسم الأخوة الاسلامية ليهبوا لنجدة اخوانهم فى الشام :-

أنائمة فى ظل أمن وغبطة * وعيش كنوار الخميلة ناعم .

وكيف تنام العين ملء جفونها * على هفوات أيقظت كل نائم .

واخوانكم بالشام يضحى مقيلهم * ظهور المذاكى أو بطون القشاعم .

تسومهم الروم الهوان وأنتم * تجرّون ذيل الخفض فعل المسالم .

---

(١) القصيدة فى : السيوطى ، تاريخ الخلفاء : ٤٢٧ - ٤٢٨ ، ابن الأثير ، الكامل : ١٠/٢٨٤ - ٢٨٥ .

والأبيوردى هو أبو المظفر محمد بن أبى العباس يصل نسبة الى عبد شمس بن عبد مناف القرشى الأموى ، كان شاعرا مشهورا وراوية ، ونسابة وأحد قراء أبيورد وهى مدينة بخراسان ، ومن آثاره : كتاب " تاريخ أبيورد ونسا " " والمؤتلف والمختلف " ، " تعلة المشتاق الى ساكنى العراق " وغيرها / انظر الوفيات : ٤/٤٤٤ ، السيوطى ، بغية الوعاه : ١/٤٠ ، الصفدى ، الوافى بالوفيات : ٢/٩١ .

فكم من دماء قد أبيحت ومن دمى * توارى حياء حسنها بالمعاصم .

بحيث السيوف البيض محمرة الظبا * وسمر العوالى داميات اللهازم .

وبين اختلاس الطعن والضرب وقفة * تظل لها الولدان شيب القوادم .

وتلك حروب من يغب عن غمارها * ليسلم يقرع بعدها سن نادم .

ان الشاعر يلجأ الى الأسلوب الخطابى والعبارات الجزلة ذات الوقع القوى على النفوس بغية أن تثير فيها الحماس وتدفعها الى الجهاد ، فهو يتساءل متعجبا ممن لا يزال يغط فى نومه آمنا ، ولا يبالى بتلك المصائب والفواجع النازلة بالمسلمين وديارهم ، والتى أطار ذكرها النوم من العيون ، وهل يجوز لمسلم أن ينام هانئا واخوانه فى بيت المقدس قد أخذتهم سيوف الصليبيين فهم بين قتيل مضرج بدمائه وبين أسير يرزح فى قيود الذل والهوان ، يقول القس رغيد الأجيلى ، وهو نصرانى وشاهد عيان للمذبحة المروعة (١) : " وشاهدنا أشياء عجيبة اذ قطعت رؤوس عدد كبير من المسلمين ، وقتل غيرهم بالسهام ، وأرغموا أن يلقوا أنفسهم من فوق الأبراج ، وبعضهم عذب عدة أيام ثم أحرق ، وكنت ترى فى الشوارع أكوام الرؤوس والأيدى والأقدام ، وكان الانسان أينما سار فوق جواده يسير بين جثث الرجال والخيل ..... والنساء كن يقتلن طعنا بالسيوف والحراب والأطفال يختطفون بأرجلهم ويقذف بهم من فوق الأسوار ، أو تدق رؤوسهم بالعمد وما دام الأمر على هذه الحال التى يذكرها هذا الصليبى ، فان الشاعر لا يلام على توبيخه المتقاعسين طلبا للسلامه وتذكيره اياهم بأنهم

---

(١) قصة الحضارة : الجزء الرابع من المجلد الرابع ص ٢٥ .

سيندمون على ذلك أشد الندم ، ثم يبين أن أفعال هؤلاء المتقاعسين عن الجهاد قد أزعجت النبي - صلى الله عليه وسلم - حتى كاد يصرخ مستنجدا :

سللن بأيدى المشركين قواضبا * ستغمد منهم فى الطلى والجماجم .

يكاد لهن المستجن بطيبة * ينادى بأعلى الصوت يا آل هاشم .

أرى أمتى لا يشرعون الى العدى * رماحهم والدين واهى الدعائم .

ويجتنبون النار خوفا من الردى * ولا يحسبون العار ضربة لازم .

أترضى صناديد الأعاريب بالأذى * وتغضى على ذل كماة الأعاجم .

فليتهم اذ لم يذودوا حمية * عن الدين ضنوا غيرة بالمحارم .

وان زهدوا فى الأجر ، اذ حمى الوغى، فهلا أتوه رغبة فى الغنائم .
(١)

لئن أذعنت تلك الخياشيم للبرى * فلا عطسوا الا بأجدع راغم .

أن الشاعر يخاطب الناس على لسان النبى - صلى الله عليه وسلم - كما فعل ابن الرومى فى رثاء البصرة آنفا . فالنبى يعز فى نفسه أن يرى أمته قد دخلها الوهن ، فلم تعلن الحرب دفاعا عن الدين وانما ضنوا بأنفسهم وتحملوا فى سبيل ذلك الذل والعار ، سواء فى ذلك العرب ولعله أراد العباسيين أو العجم كالأتراك السلاجقه وغيرهم الذين لم تحركهم الحرقة على الاسلام والغيرة على حرماته ، ولم يطمعوا أيضا - لجبنهم وعجزهم - بالغنائم والأسلاب .

ان الشاعر يبدو قوى النفس ذا عزيمة فهو لا يلجأ الى البكاء السلبى الانهزامى فى قصيدته وانما يقف وقفة شجاعة ، يستعمل فيها ما استطاع من وسائل التأثير

---

(١) البرى : مفردها براية وهى القوة ، والمقصود هنا الذل لقوة الأعداء .
انظر اللسان (برى) .

صعت العماس ، فهل من سامع مجيب ؟ والذى يبدو ويؤيده الواقع التاريخى أن استصراخه ذهب مع الريح ، وكأنه ينادى أمواتا . يقول فى ختام القصيدة :-

دعوناكم والحرب ترنو طحــــــة * الينا بألحاظ النسور القشاعم .

تراقب فينا غارة عربيــــــــــة * تطيل عليها الروم عض الأباهم .

فان أنتم لم تغضبوا بعد هـــذه * رمينا الى أعدائنا بالجرائم .

وبقى الصليبيون يجوسون خلال الديار ويدنسون الأقصى برجسهم مايقارب القرن من الزمان حتى قيض الله للأمة الاسلامية البطل صلاح الدين الأيوبى فجمع شتاتها ، ووحدها على الاسلام والقرآن ، ثم رفع راية الجهاد فى سبيل الله فانتصر على الصليبيين انتصارات ساحقه واستطاع أن يرجع الأقصى وبيت المقدس الى دائرة الاسلام ، وأن يغسل العار الذى لازم المسلمين حينا من الدهر ، وذلك سنة ثلاث وثمانين وخمسمائه ، فعاد للقدس اشراقه ونوره بعودة شعائر الاسلام الى رحابه ، ولكن خلفاء صلاح الدين فى الحكم لم يكن لهم قوته ، وسداد رأيه وذلك أنه فى سنة ست عشرة وستمائه شعر الصليبيون - الذين لم يرحلوا كليا عن الشام - بقوتهم فخرجوا وانتشروا فى البلاد ، فما كان من الملك المعظم عيسى بن العادل الأيوبى حاكم بيت المقدس آنذاك الا أن خرّبه خرابا شنيعا أوحش الناس منه فرغبوا عن السكنى فيه ، وذلك خوفا من وقوعه ثانية بأيدى الصليبيين ،فأصاب الناس غم شديد وبكوه أحر البكاء ، ورثاه الفاضل شهاب الدين يعقوب بن المجاور بقصيدة يقول فيها : (١)

---

(١) المقدسى ، الروضتين : ٢/٢٠٥ - ٢٠٦ . والشاعر هو يوسف بن الحسين بن محمد ، أبو الفتح ، ابن المجاور فارسى الأصل من شيراز نشأ ومات فى دمشق . أديب وشاعر . كان معلما للعزيز بن صلاح الدين ثم وزر له بعد وفاة أبيه / أنظر : ابن سعيد ،الغصون اليانعه : ١٩ - ٢٥ ، الشذرات : ٧/٤٦ .

أعينى لا ترقى من العبرات * صلى فى البكا الآصال بالبكرات .
لعل سيول الدمع يطفئ فيضها * توقد مافى القلب من جمرات .
وياقلب أسعر نار وجدك كلما * خبت بادكار يبعث الحسرات .
ويافم بح بالشجو منك لعله * يروح ماألقى من الكربات .

يشرح الشاعر حالته وماداخله من الهم والحزن الشديد الذى أشعل قلبه نارا ، فأرسل الدمع مدرارا يحاول به أن يطفئ ذلك اللهيب ، ولكن هيهات أن تخمد هذه النار مادام القلب يزيد اشتعالها بتذكره ماحصل للقدس - موطنه الحبيب - من الخراب والدمار فهو لذلك يظل حبيس كرباته ولا سيما عند تذكاره ماحبا الله - تعالى - به ذلك البلد :-

على المسجد الأقصى الذى جل قدره * على موطن الاخبات والصلوات .
على منزل الأملاك والوحى والهدى * على مشهد الأبدال (١) والبدلات .
على سلّم المعراج والصخرة التى * أنافت بما فى الأرض من صخرات .
على القبلة الأولى التى اتجهت لها * صلاة البرايا فى اختلاف جهات .
على خير معمور وأكرم عامر * وأشرف مبنى لخير بناة .
ومازال فيه للنبيين معبد * يوالون فى أرجائه السجدات .
عفا المسجد الأقصى المبارك حوله الر * رفيع العماد العالى الشرفات .
عفا بعد ماقد كان للخير موسما * وللبر والاحسان والقربات .
يوافى اليه كل أشعث قانت * لمولاة بر دائم الخلوات .
خلا من حنين التائبين وحزنهم * فمن بين نواح ومين بكاة .

---

(١) الأبدال : الأولياء والعباد . سمو بذلك لأنهم كلما ماتمنهم واحد أبدل بآخر . اللسان : (بدل) .

ان المسجد الأقصى كان له فضل كبير وأثر مجيد فى تاريخ المسلمين فهو موطن الاسراء والمعراج ، وصلاة النبيين أجمع مأمومين بسيد المرسلين عليه وعليهم الصلاة والسلام . وهو القبلة الأولى التى اتجه اليها المسلمون كما أنه كان طيلة العصور التى مرت به موئلا لأهل العلم والتقى المنقطعين فيه للعبادة ، والذين يأتون اليه من مختلف الأصقاع يجاورون فيه ، كما كان يحصل هذا - أيضا - فى حرم مكة والمدينة . لهذا فالأقصى لجميع المسلمين دون تخصيص فليبكوه اذن جميعا :-

لتبك على القدس البلاد بأسرها * وتعلن بالأحزان والترحات .

لتبك عليها مكة فهى أختها * وتشكو الذى لاقت الى عرفات .

لتبك على ما حل بالقدس طيبة * وتشرحه فى أكرم الحجرات .

ثم ينتقل الشاعر لينحى باللوم على من هدم القدس ويصفه بأنه أشمت بهذا الفعل امارات الصليبيين المقامة فى صور وعكا ، كما أنه لجهله وحمقه قد هدم مجد الأيوبيين الذى بناه عظيمهم صلاح الدين ، وتوجه بفتح القدس :

لقد أشمتوا عكا وصور بهدمها * وبالطالما غادتهما بشمات .

لقد شتتوا عنها جماعة أهلها * وكل اجتماع مؤذن بشتات .

وقد هدموا مجد الصلاح بهدمها وقد كان مجدا باذخ الشرفات .

وقد أخمدوا صوتا وصيتا أثاره * لهم عظم ماوالوا من الغزوات .

أما علمت أبناء أيوب أنهم * بمسعاته عدوا من السروات .

وان افتتاح القدس زهرة ملكهم * وهل ثمر الا من الزهرات .

وفى ختام القصيدة لا يطلب الشاعر الغوث والنجدة من المسلمين لأن الفاعل ليس عدوا أجنبيا ، وانما يطلب نوائح يندبن خراب القدس بأصوات شجية ليبقى الأسى متجددا والحزن مستمرا .

فمن لى بنّواح ينحن على الذى * شجانى بأصوات لهن شجاة .

يودن بيتا للخزاعى قاله * يؤبن فيه خيرة الخيرات .

مدارس آيات خلت من تلاوة * ومنزل وحى مقفر العرصات .

والمقصود بالخزاعى هو دعبل الشاعر الذى قال البيت الأخير من هذه القصيدة يرثى فيه أهل بيت النبى -صلى الله عليه وسلم :- (١)

ومن الجدير بالذكر أننى فى هذا الفصل اقتصرت على ايراد قصائد الرثاء الخالص ولم أتعرض لأبيات الرثاء أو الحث على استنقاذ القدس التى تأتى ضمن قصائد المدح التى قيلت فى صلاح الدين أو فى سلاطين آل زنكى وغيرهم لأن ذلك خارج عن موضوع البحث من حيث الطبيعة والأسلوب .

---

(١) انظر الأغانى : ٢٠/١٥٢ - ١٥٣ .

الفصل الرابع : تدمير بغداد والشام على يد التتار ، ورثاء الشعراء لهما :-

من أعظم المصائب والأخطار التى ابتليت بها الأمة الاسلامية وحضارتها عبر تاريخها الطويل الهجوم الكاسح الذى قامت به جموع التتار المدمره على الممالك الاسلامية واحكام السيطرة عليها وسط بحور من الدماء وجبال من الجثث والهام والأطراف الممزقة بالاضافة الى الخراب الشامل الذى لحق كل شئ وصلت اليه أيديهم ، ويصف المؤرخ ابن الأثير ذلك بقوله : (١)
" الحادثة الكبرى والمصيبة العظمى التى عقمت الأيام والليالى عن مثلها ، عمت الخلائق وخصت المسلمين ، فلو قال قائل أن العالم منذ خلق الله آدم والى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقا .... " وقد أعرض ابن الأثير فى بداية الأمر عن تدوين ماأحدثه التتار من الحوادث الشنيعة فى البلاد الاسلامية الشرقية كالدولة الخوارزمية استفظاعا لذلك يقول : (٢) " لقد بقيت عدة سنين معرضا عن ذكر هذه الحادثه استعظاما لها ، كارها لذكرها فأنا أقدم اليها رجلا وأؤخر أخرى ، فمن يهون عليه ذكر ذلك ، ومن الذى يسهل عليه أن يكتب نعى الاسلام والمسلمين فياليت أمى لم تلدنى ، وياليتنى كنت نسيا منسيا " .

وقد كان خروج هذه الوحوش التترية فى سنة ست عشرة وستمائه من أطراف الصين ثم عبروا نهر جيحون الى الدولة الخوارزميه التى كانت أقوى وأكبر دولة اسلامية فى الشرق ، حيث قضت على سلطان السلاجقه ونفوذهم فى بغداد وأخذت الصفة الشرعية من الخليفة العباسى وكان حاكمها آنذاك

---

(١) الكامل فى التاريخ : ٣٥٨/١٢ .

(٢) المصدر نفسه : ص ٣٥٩ .

السلطان علاء الدين محمد خوارزمشاه ، وكان شرها فى ابتلاع الدويلات التى تجاوره وضمها الى دولته ، حتى ان أطماعه وصلت الى بغداد نفسها لأن الخليفة الناصر لدين الله لم يأمر بذكر اسم هذا السلطان بعده على منابر بغداد ، فاعتنق المذهب الشيعى ، وحصل على فتوى من علماء دولته تقول ان العباسيين قد اغتصبوا الملك من العلويين فسلطانهم غير شرعى يجب ازالته ، فجهز جيشا كثيفا لغزو بغداد ، وجاء برجل علوى يسمى (علاء الملك) ونادى به خليفة ، وخطب له وسك باسمه السكة . وسار بجيشه (١) حتى اذا بلغ منتصف المسافة رمته العواصف والثلوج بقوارعها فأهلكت معظم جيشه فارتد الى بلاده ليجد الخطر التترى ماثلا أمامه . وهنا تقول بعض الروايات التاريخية ان الخليفة استنجد بجنكيزخان زعيم التتر لينقذه من بطش خوارزمشاه الذى أراد أن يقضى على الخلافة ، فكانت البلية العظمى بخروج جحافله الرهيبه .

يقول ابن الأثير عند كلامه عن الخليفة الناصر (٢) " وكان سبب ماينسبه العجم اليه صحيحا من أنه هو الذى اطمع التتر فى البلاد ، وراسلهم فى ذلك فهو الطامة الكبرى التى يصغر عندها كل ذنب عظيم " .

وقال المقريزى - أيضا - (٣) : " وفى خلافته خرب التتر بلاد الشرق حتى وصلوا همذان ، وكان هو السبب فى ذلك ، فانه كتب اليهم بالعبور الى البلاد خوفا من السلطان محمد علاء الدين خوارزمشاه لمّا هم بالاستيلاء على بغداد ...... " .

---

(١) فؤاد الصياد ، المغول فى التاريخ : ٧١ .

(٢) الكامل : ٤ / ٣٦١ .

(٣) السلوك لمعرفة دول الملوك : القسم الأول ، ج ١ ص ٢١٨ .

ولكن السبب المباشر فى غزو التتر مملكة خوارزم هو اعتداء أحـــد ولاة خوارزمشاه على تجار المغول الذين يمرون بأرضه آمنين وقتلهم ونهب مامعهم (١) من متاع بحجة أنهم جواسيس ، وكان هذا الوالى خالا للشاه ، فرفـــض تسليمه للتتر لينال العقاب ، بناء على طلب جنكيزخان ذلك فوقع الخـــلاف والتهديد بينهما ، فعبروا النهر لقتال السلطان فبدأوا بذلك الوالى وقتلـــوه بطريقة بشعه ثم تقدموا نحو بخارى وسمرقند وأحدثوا بهما مذبحة كـــبرى فقد بلغ عدد القتلى فى سمرقند مايزيد على سبعين ألفا بعد أن أخـــذوا (٢) منها كل من يصلح للقتال ، ثم ساروا الى نيسابور فالرى حيث لاقتا نفـــس المصير ، وهرب السلطان خوارزم شاه ، ومات طيلا مغموما سنة عشرة وستمائـــه ثم وصل التتار الى مدينة جرجانيه عاصمة اقليم خوارزم فحاصروها بشـــدة (٣) وضربوها بالمجانيق ثم دخلوها ، وقتلوا جميع أهلها ثم هدموا السد المقـــام على نهر جيحون فأغرقوا المدينة بالماء فتهدمت وأصبحت أطلالا . ثـــم تركوها الى مدينة مراغة أعظم مدن بلاد أذربيجان (٤) ، وكانت محصنة فيها قلعـــه

---

(١) السيوطى ، تاريخ الخلفاء : ٤٦٩ .

(٢) ابن كثير ، البداية والنهاية : ١٣/ ٨٢ ومابعدها .

(٣) قاعدة خوارزم العظمى على ضفة النهر يبلغ طولها تسعة أميال فى مثلها يحيط بها سور عظيم فيها أسواق كبيرة عامره وكانت مقر السلطان محمـــد خوارزم الشاه الذى سقطت فى عهده سنة ٦١٨ هـ / الحميرى ، الروض المعطار : (جرجانيـــه) .

(٤) بلدة مشهورة أعظم وأشهر بلاد أذربيجان ، بناها مروان بن الحكـــم وهو والى على أرمينية وأذربيجان ثم صارت الى العباسيين أيام الرشيد منيعة الأســوار كثيرة الخيرات والغلات . معجم البلدان (مراغــه) .

تقيم فيها المرأة التى كانت تحكم المدينة آنذاك ، فحاصروها مدة ثم دخلوها عنوة وقهرا ، فوضعوا السيف فى أهلها فقتل منهم مايخرج عن العدّ والاحصاء ونهبوا كل مايصلح لهم ، ومالا يصلح أحرقوه وتركوا المدينة أكواما من الرماد .

ونتيجة لهذه الأخبار المرعبة عن فظائع التتر وقسوتهم وضعت على الناس الذلة فلايدفعون عن أنفسهم اذ تأكد عندهم أن التتر لا يغلبون ، يقول ابن الأثير عن أهل مراغة : "سمعت من بعض أهلها أن رجلا من التتر دخل دربا فيه مائة رجل فمازال يقتلهم واحدا واحدا حتى أفناهم ولم يمدّ أحد يده اليه بسوء" (١) .

وفى رثاء مدينة مراغة قال أبو الحسن المراغى :- (٢)

حرمت جفونى من هدوء غرار * وصميم قلبى من نعيم قرار .

ونفاد دمعى من بكائى دائما * بمدامع حال البكاء غزار .

وعقود عمرى اليوم تمت خمسة * وبها تناهى أكثر الأعمار .

والشيب شاط عارضى ومفارقى * لطليعة طلعت بجيش بوار .

ماصار لولا تلك رأسى أغبرا * فالجيش يقدمه مثار غبار .

---

(١) الكامل ١٢ / ٣٧٨ .

(٢) هو عبد المجيد بن الحسن بن الخطاب المراغى ، من فضلاء أذربيجان غزير الحفظ عالما بالأدب مبرزا فى اللغة والشعر ، لم يكن فى زمانه من يضاهيه فيما يتعلق بالفنون الأدبية وصنعة النظم والنثر . من كتبه شرح اللمع ، شرح سقط الزند وغيرها ، استشهد سنة ٦٢٧ بقرية من قرى اربل . انظر : ابن الشعار الموصلى : عقود الجمان فى شعراء هذا الزمان : ج ٤ لوحه ٣٦ والقصيدة فى المصدر نفسه : ج ٤ ، لوحه ٤٠ - ٤١ .

يذكر الشاعر فى مقدمة قصيدته الطويلة ماآلت اليه حالته النفسية من جراء هجوم الجيوش الغازية على موطنه ، فقد غزاه هو - أيضا - جيش من الغم والحزن أطار النوم من جفونه وأجرى دمعه مدرارا ، وأشاب رأسه مؤذنا اياه بالفناء ، وهو بشرح حالته هذه يمهد لتفصيل الحادثة الكبرى التى لا يستغرب معها ماأصابه من الحزن والألم . :-

أو مارأيتم أن طوفان الردى * أخذ المراغة من هجوم تتار .
ان المراغة كالسفينة أغرقت * فى لجة من عسكر جرار .
فى النصف من يومين قد ظفروا بها * قهرا بحكم الواحد القهار .
فظهيرة الأحد ابتداء حصارهم * والأخذ فى الإثنين شرّ نهار .
هجموا وقد أخذوا أعالى سورها * بمجانق يمطرن بالأحجار .

ثم يمضى الشاعر على هذا النحو فى وصف الحجارة التى تصبها المجانيق على أسوار تلك البلدة المنكوبة حتى أحدثت فيه ثغرات وشقوقا فى أساسه الأمر الذى جعل الناس يتركون الأسوار منهزمين وسقط السور فى النهاية ودخل العدو . كل هذه الأحداث يسردها الشاعر بأسلوب قصصى واقعى ينقلك الى تلك المدينه ويجعلك تشاطره أحزانه وهمومه :-

بسقوطه ارتفع الغبار وراع أهـ * ـل الحق فانحدروا من الأسوار .
لما رأى الكفار سورا خاليا * وهوى ببرج تساقط منهار .
صعدوا اليه رافعين لواءهم * فصار قل الزمرة الأبرار .
لجأت الى دار الهمام امام ديـ * ـن الله الآتى من الأخيار .
فأجارهم ووقاهم فى داره * قاضى لحق اجاره وجوار .
وأطاب قلبهم بطيب وعوده * اذ قال أحميكم أنا فى دارى .
فحماهمو طويلا كاملا * عن ناب قوم كالكلاب ضوارى .

وغدا ..... استداروا حولها (١) * كاحاطة الهالات بالأقمار .
فسما غيث السهم تحطر داره * مطر السماء الصيب المطار .
وعلا ليمنعهم أعالي داره * فلهم تيسر فتح باب الدار .
دخلوا وقد ظفروا بمن في داره * من نسوة ومشايخ وذراري .
قتلوا جميعهم بأدنى خطة * مامن مجير عندهم ومجار .

يتحدث الشاعر هنا عن مشهد آخر من مشاهد المأساة وذلك بعد أن دخل التتر البلدة وحكموا السيف في الناس والنار في البيوت والمتاع ، هرع جمع كثير من الناس الى دار قاضي مراغه يحتمون بها ، ظنا منهم أن التتار يحترمون أهل الدين والعلم ، ولكن خاب ظنهم عندما حاصر الجنود الدار وأمطروها بالقذائف والسهام ، ثم اقتحموها وقتلوا جميع من فيها غير مفرقين بين شيخ كبير وطفل صغير وامرأة ثكلى جريح ، وهكذا كان ديدنهم في كل بلد يفتحونه وكأن مقصودهم افناء العالم وابادة النوع الانساني لا طلب الملك والمال . وهذا مايظهر من رسالة هولاكو عظيمهم الى ملك الشام حيث قال : "نحن جيوش الهلكة لا جيوش الملكة ، مقصودنا الانتقام ، وملكنا لا يرام" (٢) وهكذا سقطت الدولة الخوارزميه ومدن الشرق الاسلامي العظيمه ودمرت . والملاحظ أن صدى هذا الغزو الصاعق قليل جدا في الشعر العربي أو ربما ضاع ذلك الشعر مع مافقد من التراث في تلك الأيام العصيبة .

وبعد ذلك توجهت أنظار التتر بقيادة زعيمهم الجديد هولاكو الذي تولى بعد موت جنكيزخان . الى احتلال بغداد والقضاء على الخلافة العباسية وكان الخليفة آنذاك المستعصم بالله وكان رجلا دينا لين الجانب ولكنه كان مستضعف الرأي قليل الخبره بأمور المملكة (٣) يتكل فيها على غيره وقيل ان

---

(١) كلمة غير واضحة في المخطوط السابق لوحه ٤١ .
(٢) السيوطي ، تاريخ الخلفاء : ٤٧٤ .
(٣) ابن الطقطقي ، الفخري في الآداب السلطانية : ٢٠٠ .

وزيره مؤيد الدين بن العلقمى الشيعى هو الذى كاتب التتر ووصف لهم حال الدولة وما بلغت من الضعف وأطمعهم فى اجتياحها وملك بغداد . وذلك على أثر نقمته على الخليفة لما فعله ولده بالشيعة حينما نشب قتال بين الشيعة والسنة فى أواخر عهد المستعصم بالله بسبب الخلافات المذهبيه فأرسل الخليفه ابنه أبا بكر لفض النزاع ، فأغار هذا على مقر الشيعة فى الكرخ وارتكب كثيرا من الفظائع ، من قتل للرجال وسبى للنساء وهتك للأعراض والحرمات مما كان له أسوء الأثر فى نفوس الشيعة فنقموا على الخلافة وتمنوا زوالها . (١)

وفى سنة ست وخمسين وستمائه تحركت جحافل التتر نحو بغداد وتبودلت رسائل التهديد والوعيد بين هولاكو والخليفة المستعصم ، وكان مما وجه به الخليفة لهولاكو قوله : (٢) " ان كنت تريد الحرب والقتال فلا تتوان لحظة ولا تعتذر ، فان لى ألوفا مؤلفه من الفرسان والرجاله وهم على أهبة الاستعداد للقتال " . ولعل الخليفة كان يقصد بهذا القول ارهاب هولاكو ، وارجاعه عما عزم عليه من السير الى بغداد ، والا فهو يعلم قبل غيره الحالة التى كان عليها العالم الاسلامى من الضعف والتفكك والهلع الذى ملأ قلوب الناس من فعل التتر . ولكن كلام الخليفة هذا أحنق هولاكو فسار على الفور حتى وصل الى ظاهر بغداد فلقيه جيش الخليفة فكان نصيبه الهزيمة المنكره ولم ينج منه إلا القليل . ثم تقدم الى بغداد وأحكم الحصار حولها فى الثانى والعشرين من المحرم وأخذوا يفتحون الأبراج ويهدمون الأسوار ويطلقون يد التخريب فى المدينه ، فلما رأى الخليفه أن لا طاقة

---

(١) أبو الفداء ، المختصر فى أخبار البشر : ٢٠٢ .

(٢) رشيد الدين الهمذانى ، جامع التواريخ (تاريخ المغول) : ٢٩٢/١ .

له بالمقاومه أراد الهرب ولكن ابن العلقمى الذى كان قد استوثق لنفسه من التتار خدعه وثناه عن عزمه وحسن له الخروج لطلب الأمان من هولاكو وفى الرابع من صفر خرج الخليفة وأولاده فاستقبلهم هولاكو ولاطفهم وطلب من الخليفة أن ينادى فى الناس بالقاء أسلحتهم والخروج من المدينه لاحصائهم ففعل ، وخرج الناس فقتلوا جميعا .

ثم أعلن هولاكو الهجوم العام على المدينة فدخلوها من الشرق وأقام جسرا على دجله وعبروا الى جهة المدينه الغربيه فأتوا على كل مافيها من الأحياء باستهتار بالغ حتى قدر عدد القتلى بثمانمئه ألف نسمه (١) ولم يسلم من الناس الا من اختفى فى بئر أو قناة أو مقبره ، ثم هدموا المساجد والقصور ونهبوا مافيها ثم أشعلوا النيران فى المدينه فأتت على الأخضر واليابس وغيرت معالمها الحضاريه ، وخربت أكثر الأبنية والمشاهد .. واستمرت هذه الغاره أربعين يوما ، ثم رحل هولاكو عن بغداد بعد أن تعفن هواؤها نتيجة الجثث الملقاة وفى أول مرحلة من سيره قتل الخليفة ثم قتل أولاده ومواليه وخواصه وبذلك انقضت الخلافة العباسية التى دامت قرابة خمسة قرون وربع (٢) القرن وقد أطال الناس البكاء على بغداد والخلافة التى كانت تجمع شمل المسلمين رغم ضعفها ، وقال فى ذلك الشعراء قصائد رثائية باكية ، ومنهم تقى الدين أبو اليسر التنوخى يقول :- (٣)

---

(١) البداية والنهاية : ٢٠٢/١٣ .

(٢) ابن الفوطى ، الحوادث الجامعه والتجارب النافعه : ٣٢٧ .

(٣) هو اسماعيل بن ابراهيم ابن أبى اليسر المعرى الأصل الدمشقى . ولد سنة ٥٨٩ هـ ، كان متميزا فى كتابة الانشاء جيد النظم حسن القول دينا متصونا من بيت كتابة وجلاله ، كان جده كاتب الانشاء لنور الدين وكتب هو للملك الناصر صلاح الدين داود الأيوبى . توفى سنة ٦٧٢هـ / انظر : فوات الوفيات : ١٧٠/١ . تحقيق احسان عباس ، شذرات الذهب : ٣٣٨/٥ ، اليونينى ، ذيل مرآة الزمان : ٣٨/٣ .

لسائل الدمع عن بغداد أخبار * فما وقوفك والأحباب قد ساروا :

يازائرين الى الزوراء لا تفدوا * فما بذاك الحمى والدار ديار .

تاج الخلافة والربع الذى شرفت * به المعالم قد عفاه اقفار .

أضحى لعصف البلى فى ربعه أثر * وللدموع على الاثار آثار .

يانار قلبى من نار لحرب وغى * شبت عليه ووافى الربع اعصار .

يبدأ الشاعر فى وصف حالة بغداد الكئيبه دون مقدمات فيذكر أنها أصبحت خاوية على عروشها من بعد أن كانت جنة الدنيا وقبلة الزائرين وطلاب الحاجات ، وقد هوى وزال عنها أجل ماكانت تفخر به وهى الخلافة العباسية التى بادت دولتها ولم يبق منها إلا الآثار التى تستجلب الدمع والأسى لما حل بمركزها -بغداد- من التدمير والاحراق الذى أحرق القلوب حسرة وأسفا وأذهل النفوس مافعله أولئك التتر بأهل الاسلام من القتل والسبى وغيره فنجد الشاعر يفصل لنا هذه الوقائع فى ذهول من وقع المصيبه الذى أصابته :-

علا الصليب على أعلى منابرها * وقام بالأمر من يحويه زنار .

وكم حريم سبته الترك غاصبة * وكان من دون ذاك الستر أستار .

وكم بدور على البدرية (١) انخسفت * ولم يعد لبدور منه ابدار .

وكم ذخائر أضحت وهى شائعة * من النهاب وقد حازته كفار .

وكم حدود أقيمت من سيوفهم * على الرقاب وحطت فيه أوزار .

---

(١) البدرية : نسبة الى بدر مولى المعتضد بالله ، والمراد بها قصور الخليفة المنصور ، جاء فى تاريخ بغداد : ١/١٠٥ " ... وزاد بدر مولى المعتضد من قصر المنصور المسقطات المعروفه بالبدرية فى ذلك الوقت " .

نادت والسبى مهتوك بجرهم * الى السفاح من الأعداء دعار .

وهم يساقون للموت الذى شهدوا * النار يارب نصلاها ولا العار .

والله يعلم أن القوم أغفلهم * ماكان من نعم فيهن اكثار .

فأهملوا جانب الجبار اذ غفلوا * فجاءهم من جنود الكفر جبار .

ياللرجال لأحداث تحدثنا * بما غدا فيه اعذار وانذار .

ان البيت الأول يشير الى ارتفاع الصليب وهو شعار النصارى ، والواقع أن التتر لم يكونوا نصارى ولكن كان للنصرانية انتشار بينهم ، ويروى أن زوجة هولاكو كانت نصرانية ، كمايبدو أنه كانت توجد صلات وتحالف بين الجانبين الأمر الذى دفع بعض المؤرخين الى القول ان حملة هولاكو على العراق اتخذت سمات الحرب الصليبيه المغوليه . (١)

وقد ظهر أثر هذا التحالف عندما دخل التتر بغداد وعاثوا فيها قتلا وسلبا ..... فانهم لم يمسوا النصارى من أهلها بسوء ، بل ان بعض بيوتهم كانت مأمنا لجأ اليه أناس من المسلمين فنجوا من الهلاك والأمر الأكبر من ذلك كله أن هولاكو عندما دخل قصور الخليفة فى بغداد وهب أحدها لبطريرك النساطره ليتخذه مقرا وكنيسة ، وأغدق عليه العطايا والأحباس . (٢) ومثل هذا أيضا حصل عند فتح المغول للشام ، فقد كانت رسل هولاكو الى أهل البلاد من القسس والرهبان . (٣) يقول ابن تغرى بردى :

---

(١) هوفؤاد الصياد ، المغول فى التاريخ : ص ٢٨٢ .

(٢) ستيفن رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبيه : ٣/٥٢٢ - ٢٢٥ . الترجمه العربيه .

(٣) النجوم الزاهره : ٥/٨٠ .

" وكان النصارى بدمشق قد شمخوا وتجرؤوا على المسلمين ، واستندا السوا بترد د التتار الى كنائسهم ، وذهب بعضهم الى هولاكو وجاءوا من عنده بفرمان يتضمن الوصية بهم والاعتناء بأمرهم ودخلوا بالفرمان وصلبانهم مرتفعة وهم ينادون بارتفاع دينهم واتضاع دين المسلمين ، ويرشّون الخمر على الناس وفى أبواب المساجد " .

هذه الرعاية من قبل التتار للنصارى فى مقابل فعل الأفاعيل الشنيعة فى المسلمين زادت غيظ قلوب المسلمين وحزنهم وخاصة ذوو العاطفة الشفافة والاحساس المرهف كشاعرنا أبى اليسر الذى يكاد يحترق بنار الأسى وهو يرى الحرم المصونات تنتهب وتنتهك علانية والسيوف تقتلع أعناق الناس دون تمييز ، والقصور الشامخة المعروفه بالبدريه تحرق وتنتهب ثرواتها وذخائرها وترجع خرابا كان لم تغن بالأمس . فى وسط هذا الرعب النازل ، يصرخ الشاعر مبينا أن سبب هذه النقم هو غفلة الناس من أوامر الله ونسيانهم واجبات الاسلام حينما أبطرتهم النعم الوفيرة التى كانوا فيها ، فسلط عليهم جبار السماء جبابرة الأرض الذين لا يرحمون فجعلوهم عبرة لمن أراد الاعتبار .

ثم ينتقل الشاعر الى المقطع الأخير من القصيدة فيرثى آل بيت الخلافة من بنى العباس يقول :-

من بعد أسر بنى العباس كلهم * فلا أنار لوجه الصبح اسفار .

لم يبق للدين والدنيا وقد ذهبوا * شوق لمجد وقد بانوا وقد باروا .

ان القيامة فى بغداد قد وجدت * وحدها حين للاقبال ادبار .

ال النبى وأهل العلم قد سبيوا * فمن ترى بعدهم تحويه أمصار ؟ :

ماكنت آمل أن أبقى وقد ذهبوا * لكن أتت دون مااختار أقدار .

ان الشاعر يأخذه الحزن على فقد الخلافة التى كانت شعارا من شعارات الاسلام البارزه ونتج عن سقوطها أسر الخليفة العباسى المستعصم بالله وجميع أبنائه ونسائه الذين بلغوا سبعمائة شخص ، فاضطربت الأمور وماجت وكأن القيامة قد قامت فى بغداد ، فالناس غير الناس ، والبلاد غير البلاد ، فلا غرابة أن نجد الشاعر يتمنى الموت ، ويأسف لبقائه حيا بعد أن ذهبت عليه القوم من بنى العباس . ولعله من الملاحظ على القصيدة خلوها من الاستصراخ وطلب الغوث وذلك لأن حالة العالم الاسلامى لا يمكن معها ذلك فالدولة الخوارزميه القوية سقطت من قبل ـ كما ذكرنا ـ وفى الشام الدولة الأيوبية التى أصابها الهرم (١) وانقسمت الى سبعة أقسام صغيره متناحره بعضها استقل عن مصر وبعضها ظل تابعا لها اسميا ، وفى المغرب والأندلس صراعات وحروب داخلية بالاضافة الى مواجهة غزوات النصارى الصليبيين .

ورثى بغداد ـ أيضا ـ الشيخ شمس الدين الكوفى (٢) بقصيدتين احداهما نونيه والأخرى ميمية يقول فى قصيدته الأولى :- (٣)

ان لم تقرح أدمعى أجفانى * من بعد بعدكم فما أجفانى .
انسان عينى مذ تناءت داركم * ماراقه نظر الى انسان .
ياليتنى قدمت قبل فراقكم * ولساعة التوديع لا أحيانى .

---

(١) حافظ حمدى ، الشرق الاسلامى قبيل الغزو المغولى : ١٣٠ .

(٢) هو محمود بن أحمد بن عبد الله الهاشمى الحنفى الكوفى ، كان أديبا فاضلا وعالما شاعرا ، ظريفا كيسا اشتغل بالتدريس والخطابه ، ولد سنة ٦٢٣هـ وتوفى ٦٧٥ . أنظر : فوات الوفيات : ٤/ ١٠٢ . تحقيق عباس .

(٣) القصيدة فى المصدر نفسه : ١/ ٤٩٩ - ٥٠١ . تحقيق محمد الدين عبد الحميد .

مالى وللأيام شتت شملها * حالى وخلانى بلا خلانى .
ماللمنازل أصبحت لا أهلها * أهلى ولا جيرانها جيرانى .
وحياتكم ماحلها من بعدكم * غير البلى والهدم والنيران .

ان أول ماتحسه عند قراءة هذه الأبيات هو صدق عاطفة الشاعر واخلاصه للقوم المرثيين الذين فنوا وخلفوه من بعدهم رهين حزنه وانكساره فهو لا يرى أنه يوفيهم حقهم من البكاء والندب حتى تتقرح أجفانه ، بل انه يتمنى الموت ليستريح مما يلاقى من الأحزان . وكيف لا يتمناه من بعد أن أودى الدهر بأحبائه ، وشتت شملهم ، فتلك هى منازلهم خالية من الأنيس ويد البلى تعيث فيها هدما واحراقا . ولعله من الملاحظ تكرر فكرة تمنى الموت عند شعراء رثاء الدول وبخاصة من يرثون الدول والمدن العظيمة - كبغداد - عندما يحل بها الدمار الشامل والسقوط الذى ينتهى به عهد وتنهار به حضاره . ثم ينتقل الشاعر الى الوقوف على ديار الراحلين وقد تغيرت وخربت ويجرى معها حوارا آسيا ينقلك الى ذلك الجو ويجعلك تشاطره آلامه . يقول :-

ولقد قصدت الدار بعد رحيلكم * ووقفت فيها وقفة الحيران .
وسألتها لكن بغير تكلم * فتكلمت لكن بغير لسان .
ناديتها يادار ماصنع الأولى * كانوا هم الأوطار فى الأوطان .
أين الذين عهدتهم ولعزهم * ذُلاً تخِرُّ معاقدُ التيجان .
كانوا نجوم من اقتدى فعليهم * يبكى الهدى وشعائر الأيمان .
قالت : غدوا لما تبدد شملهم * وتبدلوا من عزهم بهوان .
كدم الفصاد يراق أرذل موضع * أبدا ويخرج من أعز مكان .
أفنتهم غير الحوادث مثل ما * أفنت قديما صاحب الايوان .

لما رأيت الدار بعد فراقهم * أضحت معطلة من السكان .

مازلت أبكيهم وألثم وحشة * لجمالهم مستهدم الأركان .

حتى رثى لى كل من ماوجده * وجدى ولا أشجانه أشجانى .

ان الشاعر حيران قد طلكت عليه الدهشة كيانه . وذلك عندما وقف على ربوع بغداد وهى دراسة بلاقع ، بعدما كانت بالأمس القريب جنة غناء/ فراح يضخ آلامه عن طريق حوار صامت مع تلك الديار التى أجابته بواقع الحال لا بالمنطق والمقال. إن الذين كان عهده بهم ملوك الدنيا الأعزاء ، وقدوة أهل الخير والتقى قد تبدد شملهم شذر مذر وأصابهم الذل بعد العز فعليهم تبكى الدنيا والدين فما أشبههم بعد انحطاط قدرهم بدم الحجاقة الذى يخرج من رأس الانسان ويراق فى الأماكن القذره ، عندئذ يتيقن الشاعر أن القوم قد ساروا الى غير رجعه فيخر على بقايا آثارهم باكيا ومقبلا بحرارة شديدة استدرت عطف كل من لا يعرف الوجد والشوق ، وفى غمار حالته هذه تسبح نفسه فى مايشبه أحلام اليقظة فيقول :-

أترى، تعود الدار تجمعنا كما * كنا بكل مسرة وتهان .

اذ نحن نغتنم الزمان ونجتنى * بيد الأمان قطوف كل أمانى .

والدهر تخدمنا جميع صروفه * والوقت يعدينا على العدوان .

والعيش غصن والدنو ممزق * بيد الوصال ملابس الهجران .

ولكنه بعد ذلك يصحو ليجد مايتمناه شيئا صعب التحقق لأن يد الحدثان قد أودت بالأحباب والاخوان فينقلب يائسا من الحياة لا يرى فيها نديما غير الحسرات والأحزان يقول :

هيهات قد عز اللقاء وسَدّدت * طرقَ المزار طوارقُ الحدثان .

مالى أردد ناظرى ولا أرى الـ * أحباب بين جماعة الإخوان .

والهفتى واوحدتى واحيرتى * واوحشتى وآحر قلبى العانى .
سرتم فلاسرت النسيم ولا زها * زهد ولا ماست غصون البان .
مالى أنيس بعدكم غير البكى * والنوح والحسرات والأحزان .
ياليت شعرى أين سارت عيسكم * أم أين مواطنكم من البلدان ؟.

وأسلوب الشاعر سهل بعيد عن التوعر فى المعانى والألفاظ تبرز من خلاله ثقافة الشاعر الأدبية ، وقد وشى قصيدته هذه بألوان من المحسنات كان أبرزها الجناس الذى استعمله تاما وناقصا - مشتقا - ويأتى بعد ذلك الطباق والمقابلة وغير ذلك ، ورغم اكثاره من هذه الأصناف فانك لا تجد فى القصيدة تكلفا ولا استكراها ، وقد بلغ الشاعر حدا كبيرا من التأثير ، واستطاع أن يطبع فى نفوس السامعين أو القارئين مايحس به هو فى نفسه كما أنه لم يخرج عن أسلوب عصره الأدبى الذى كان مقياس الجودة فيه مقدار مايأتى به الشاعر من الزخارف اللفظية والمحسنات البديعيه وحسن الاقتباس والتضمين ، مع الاحاطة بالمعلومات والحوادث التاريخيه . من الجدير بالذكر هنا أننا لا نلاحظ أثر ثقافة الشاعر الدينيه - رغم كونه واعظا - فى هذه القصيدة فلم يأت فيها بأحاديث وقصص وعظية ، فى قالب شعرى ولعل اهتمامه بالزخرفة شغله عن ذلك .

أما قصيدته الميمية فيقول فيها :- (١)

عندى لأجل فراقكم آلام * فالام أعذل فيكم وألام .
من كان مثلى للحبيب مفارقا * لا تعذلوه فالكلام كلام .
نعم المساعد دمعى الجارى على * خدّى الا أنه نمام .
وينيب روحى نوح كل حمامة * فكأنما نوح الحمام حمام .

---

(١) فوات الوفيات : ٤٩٧/١ . تحقيق محى الدين عبد الحميد .

في هذا المطلع يبوح الشاعر بما في نفسه من الآلام لفقد الأحبة ، ويتبرم بلوم اللائمين والعذال الذين لا يقدرون حالته الحزينه ، التي يكشف عنهـا دمعه الجاري ، وروحه التي تكاد تزهق عندما يهيج وجدها نوح الحمـام وكما في قصيدته السابقة عندما انتقل من وصف حالته وحزنه الى الوقـوف بالديار فانه يفعل هذا - أيضا - في قصيدته هذه فيقول :-

ان كنت مثلي للأحبـة فاقـدا * أو في فؤادك لوعة وغـرام .

قف في ديار الظاعنين ونادهـا * (ياد ار ماصنعت بك الأيام) . (١)

أعرضت عنك لأنهم مذ أعرضـوا * (لم يبق في بشاشة تستام) . (٢)

ياد ار أين الساكنون وأين ذيـ * يـاك البهاء وذلك الاعظـام .

ياد ار أين زمان ربعك مونقـا * وشعارك الاجلال والاكـرام .

ياد ار مذ أفلت نجومك عمنـا * والله من بعد الضياء ظـلام .

فلبعدهم قرب الردّى ، ولفقدهم * فقد الهدى وتزلزل الاسلام .

فمتى قبلت من الأعادي ساكنـا * بعد الأحبة لاسقاك غمام .

ياسادتي أما الفؤاد فشـيـق * قلق وأما أدمعي فسجـام .

والدار مذ عدمت جمال وجوهكـم * لم يبق في ذاك المقام مقام .

لا حظ فيها للعيون وليس لـلا * أقدام في عرصاتها اقـدام .

ان الشاعر قد عظمت مصيبته بفقد أحبائه في بغداد فهو لذلك لا يفتـأ يكرر ذكرهم وكأنه يتسلى بذلك ، وقد شغله مصير هؤلاء الأحبة المفجوع عن وصف الدمار والخراب والاحراق الذي لحق بالمدينة ذاتها ، فكان رثاءه رثـاء أشخاص فنوا لا رثاء مدينة عظيمة هدمت ، وذوت حضارتها ، وحتى في وقوفـه على أنقاض بغداد لم يصف تلك الانقاض وماحلّ بها ، وانما أعرض عنهـا

---

(١) ، (٢) المعجزان لأبي نواس . الديوان : ٥٤ . وعنده فعلت بدل صنعت ، فيك بدل فيّ .

لذهاب بهائها وأقول نجمها برحيل أولئك الأحباب الذين كانوا هم نور الظلماء ، وكانت بهم بغداد روضا يانعا ، وقلعة الاسلام الحصينة ، وبعد هذا يعود الشاعر ليؤكد صدق مودته ووفائه بعهد الظاعنين الذى تركوه عليه فيقول :-

وحياتكم انى على عهد الهوى * باق ، ولم يخفر لدىّ ذمام .
فدمى حلال ان أردت سواكم * والعيش بعدكم علىّ حرام .
ياغائبين وفى الفؤاد لبعدهم * نار لها بين الضلوع ضرام .
لاكتبكم تأتى ولا أخباركم * تروى ، ولا تدنيكم الأحلام .
أقصتكم الدنيا علىّ وكلما * جد النوى لعبت بى الأسقام .
ولقيت من صرف الزمان وجوره * مالم تخيله لى الأوهام .
ياليت شعرى كيف حال أحبتى * وبأى أرض خيموا وأقاموا .؟

ان القصيدتين تتشابهان من حيث الأسلوب والبناء والأفكار ، فالسجع والجناس والطباق والتضمين وغيرها من المحسنات تزدحم فى أبياتهما ازدحاما شديدا بحيث يؤدى ذلك الى خفوت صوت العاطفة بعض الشئ ، فيذهب بعضهم الى وصف الشاعر بالتكلف ، وهو محق فى ذلك لأول وهلة ، ولكننا لابد أن نعامل الشاعر حسب العصر الذى عاش فيه ، والنظر الى أسلوب ذلك العصر على أنه قيد قل من الشعراء من يستطيع الافلات منه ، وبهذا تكون أحكامنا أقرب الى الصواب فنشير الى صدق عاطفة شاعرنا الكوفى وحدة انفعاله الذى يظهر رغم كثافة الصنعه . أما من ناحية بناء القصيدتين فمطلعهما يبدأ بوصف الالام والأحزان التى يكابدها الشاعر وربما نلاحظ بعض الضعف فى مطلع القصيدة الثانية الذى قد يكون السجع والجناس سببين فيه ، وهو قوله : عندى لأجل فراقكم آلام * فالام أعذل فيكم وألام .

فهذه المباشرة التى تخلو من الايحاء (عندى لأجل فراقكم آلام) تشبه أن تكون ادعاء للآلام وليس احساسا حقيقيا بها ، وقد جاء بهذا الشطر هكذا ليقع السجع بين آلام ، والام ، وألام ، ثم ينتقل الى الى الوقوف بديار الأحبة ويخاطبها ويبكى ويتلهف على رحيلهم .

ويختم القصيدتين بالاستفهام الذى يفيد التمنى المشرب باليأس من اللقاء :

ياليت شعرى أين سارت عيسكم * أم أين موطنكم من البلدان ؟ :

والثانية تختم بقوله :

ياليت شعرى كيف حال أحبتى * وبأى أرض خيموا وأقاموا ؟ :

أما أفكار القصيدتين فتتمثل فى حزن الشاعر واصراره على البكاء ،والاقامة على عهد المحبة والوفاء لأولئك الراحلين ، ثم ذكره لغير الحوادث وصروف الدهر التى قصمت ظهره ، وبددت آماله فى العودة الى حياته الأولى بين الأحباب .

رثاء الشام :

بعد أن فرغ هولاكو من تدمير بغداد وقتل أهلها مع خليفتهم المستعصم بالله العباسى صرف جهوده لاحتلال الشام . ففى رمضان سنة سبع وخمسين وستمائة تحرك الجيش المغولى الكبير من أذربيجان قاصدا الشام (١) ، وماأن بلغ مشارفها حتى أرسل هولاكو رسله الى الملك الناصر محمد بن قلاوون سلطان حلب يطلب منه الاستسلام . ومماجاء فى كتابه الى السلطان : " .... أجب ملك البسيطة ولا تقولن قلاعى المانعات ، ورجالى المقاتلات ...."

---

(١) ابن العبرى ، تاريخ مختصر الدول : ٢٧٧ .

فلما سمع السلطان هذا الكلام خاف وهرب الى دمشق ، فتولى الأمر بعده الملك المعظم توران شاه ابن صلاح الدين ، حيث رفض تهديد المغول وقال ليس لكم عندى الا السيف ، عندئذ تقدموا الى حلب وحاصروها ونصبوا حولها عشرين منجنيقا وأخذوا يمطرونها بوابل من القذائف ، حتى اضطرت الى التسليم ، فاستباحوها سبعة أيام قتلوا خلالها خلقا كثيرا - امتلأت بهم الطرقات وسبوا النساء والذرية ونهبوا الأموال وفعلوا أفاعيل تقشعر لها الأبدان وهزت هذه النكبة الشاعر الحلبى ابن العديم (١) فقال (٢) :-

هو الدهر ماتبنيه كفاك يهدم * وان رمت انصافا لديه فتظلم .
أباد ملوك الفرس جمعا وقيصرا * وأصمت لدى فرسانها منه أسهم .
وأفنى بنى أيوب مع كثر جمعهم * ومامنهم الا مليك معظم .
وملك بنى العباس زال ولم يدع * لهم أثرا من بعدهم ، وهم هم .
وأعتابهم أضحت تداس وعهدها * تباس بأفواه الملوك وتلثم .

---

(١) هو كمال الدين عمر بن عبد العزيز الحلبى ، كان فقيها على مذهب الامام أبى حنيفة وشاعرا مجيدا ، عاش فى مدينته حلب ، ثم غادرها الى مصر ثم عاد اليها وقد خربها التتار ، وتوفى فيها سنة ٦٦١هـ ، ومن مصنفاته : بغية الطلب فى تاريخ حلب . انظر / تاريخ أبى الفداء : ٣/ ٢١٥ ، السخاوى ، الضوء اللامع : ٦/ ٩٣ - ٩٤ .

(٢) القصيدة فى تاريخ أبى الفداء : ٣/ ٢١٥ . وقد ذكر بأنها طويلة ولكنى لم أعثر على بقيتها فيما رجعت اليه من مصادر هذه الفترة من الزمن .

يبدأ ابن العديم قصيدته بداية الحكيم المجرب المعتبر بفعل الدهر في هدم أمجاد الأمم العظيمة ، ويأتي بأمثلة قديمة مثل دولة الفرس والروم وأمثلة معاصرة له كدولة بني أيوب ودولة بني العباس اللتين حكمتا العالم الاسلامي على اتساعه حينا من الدهر ثم فنيتا ولم يبق لهما أثر . ومنها :-

فيالك من يوم شديد لغامه * وقد أصبحت فيه المساجد تهدم .
(١)
وقد دوست تلك المدارس وارتمت مصاحفها فوق الثرى وهي ضخم .

وختمها بقوله :

ولكنما لله في ذا مشيئة * فيفعل فينا مايشاء ويحكم .

هذا هو مقدار ماوصلنا من القصيدة وليس فيها مايخص وقعة حلب سوى البيتين اللذين يصف فيهما شدة أهوال ذلك اليوم الذي هدمت فيه المساجد والمدارس وديست المصاحف الشريفة بكميات كبيرة الأمر الذي زاد المسلمين ألما فوق آلامهم الكثيرة . ويروي أن " هيتوم " ملك أرمينية الصليبي الذي (٢) تحالف مع المغول هو الذي استغل هذه الفرصة وأحرق جامع حلب الكبير الذي جلّ عن الوصف في حسن الصنعة وبهائها .

وفي ختام قصيدته يرجع الأمر الى قضاء الله ومشيئته المتحققة لا محالة فهو - سبحانه - المتصرف في أمور عباده وبلاده . ثم تقدمت جيوش المغول نحو دمشق فأدرك أهلها أن لا طاقة لهم بالمقاومه . فتقدم وجهاء المدينة الى هولاكو بالطاعة والانقياد وسلّموه مفاتيح المدينه عندها دخل المغول المدينه دون اراقة دماء الا ماكان من قلعة دمشق فانها استعصت على

---

(١) المدارس المذكوره كانت بحلب ملاصقة للجامع الكبير من الجهة الغربيه ، ومن فوقها غرف ومساكن ولا يقل بناؤها روعة عن بناء الجامع / أنظر : الروض المعطار : مادة (حلب) .

(٢) فؤاد الصياد ، المغول في التاريخ : ٢٩٤ .

الفاتحين فدكوها بالمجانيق حتى استسلمت فقتلوا حاميتها ونهبوا جميع مافيها . ثم توجه هولاكو بجنوده نحو مصر ليتم له بفتحها السيطرة على العالم الاسلامى كله ، وأرسل -على عادته- الى السلطان المملوكى قطز خطاب التهديد والوعيد اذا هو نوى المقاومة والتصدى ، ولكن ذلك السلطان الشجاع بعد استشاره قواده وجنوده صمم على الجهاد وصد المغول ،فقتل رسل المغول وخرج بجيشه بقيادة الظاهر بيبرس والتقى بالجند المغولى بقيادة كتبغا نائب هولاكو الذى اضطرته ظروف مملكته فى أطراف الصين الى العودة اليها ، وكانت الوقعة العظيمة المسماه بمعركة عين جالوت (١) فى سنة ثمان وخمسين وستمائه فانهزم المغول هزيمة ساحقة لأول مرة فى تاريخهم بعد أن كانت القلوب قد يئست من النصر عليهم . ووقع قائدهم فى الأسر فضربت عنقه ، ثم تابع السلطان قطز سيره بالجيش حتى دخل دمشق دخول البطل المنتصر وسط أروع مظاهر التقدير والاعزاز - وسار بيبرس الى حلب وطرد التتر منها وأذاقهم ماأذاقوه للمسلمين من قبل ، وأدب النصارى عملاء المغول على مااقترفت أيديهم من الآثام فى حق المسلمين . (٢)

وبذلك بقيت بلاد الشام ومصر فى مأمن من شر المغول ولكن الى حين عندما جدد المغول الكره فى سنة اثنتين وثمانمائه فى عهد تيمورلنك حفيد هولاكو الذى هاجم حلب فى جيش كثيف واستباحها وقتل مايقرب من عشرين ألف انسان ، ونهبها وهتك حرماتها فى المساجد ثم زحف الى حماة وفعل بها مثل ذلك ثم أرسل تيمورلنك الى نائب دمشق رسولا فقتله النائب قبل

---

(١) هى بليدة بين بيسان ونابلس من أعمال فلسطين حدثت قربها المعركة معجم البلدان مادة (عين) .

(٢) ابراهيم العدوى : العرب والتتار : ١٢١ .

أن يسمع كلامه فهاجم المغول دمشق واستباحوها وهدموا مغانيها وخطب لهم على منابرها فقال فى ذلك بهاء الدين البهائى : (١)

لهفى على تلك البروج وحسنها * حفت بهن طوارق الحدثان .

لهفى على وادى دمشق ولطفه * وتبدل الغزلان بالثيران .

وشكا الحريق فؤادها لما رأت * نور المنازل أبدلت بدخان .

كانت معاصم نهرها فضية * والآن صرن كذائب العقيان (٢) .

يتحسر الشاعر على الدمار الذى حل بدمشق تلك البلدة الجميلة المبانى والمنازل والوديان والتى أشعل المغول فيها النيران فتغيرت صفحة وجهها وتبدل النور الساطع بالدخان المظلم وأصبحت الأنهار تجرى دما بعد أن كانت لجينا وذلك بسبب :-

وماذاك الا تركهم ولجت بها * فتخضبت منها بأحمر قان .

كرهت جداولها حوافر خيلهم * فتسابقت هربا كخيل رهان .

وبعد ذلك ينتقل الى وصف ماحل بدمشق ومعالمها البارزة كالمساجد والقصور وغيرها فيقول :-

---

(١) هو على بن عبد الله الغزولى الدمشقى ، أصله مملوك تركى اشتراه من يسمى ببهاء الدين فنسب اليه أديب وشاعر تردد بين القاهره ودمشق وفيها مات سنة ٨١٥ هـ ، من مصنفاته : مطالع البدور ومنازل السرور . انظر السخاوى ، الضوء اللامع : ٢٥٤/٥ ، الياس الدبس ، تاريخ سوريا : ١٥٧/٦ .

والقصيدة فى : كرد على ، خطط الشام : ١٧٢/٢ - ١٧٣ .

(٢) العقيان : الذهب .

لو عاينت عيناك جامع تنكـــز * والبركتين بحسنها الفتـــــان . (١)

وتعطش المرجين من أوراد هـا * وتهدم المحـراب والايـوان .

لأ تت جفونك بالدموع ملونـا * دمعا حكى اللؤلؤ على المرجان .

قطرات جفنى ترجمت عن حرقتى فكأنهن قلائـد العقيـــان .

أبنى أمية أين يمن وليدكـم * والمغل تفتل فى ذرى الأركان .

شربوا الخمور بصحنه حتى انتشوا. ألقوا عرابدهم على النسوان .

لهفى على كتب العلوم ودرسهـا. صارت معانيها بغير بيـان .

ان مازاد حرقة الشاعر وألمه تركيز أولئك التتر الوحوش على ازالة معالـم الاسلام ممثلة بالمساجد فقد أهدروا قدسيتها وكرامتها فهدموا محاريبهـا ومنابرها وخاصة الجامع الأموى الذى بناه الوليد بن عبد الملك الخليفـة الأموى ورصعه بالجواهر الثمينة حلاه بالزخارف البديعه ، وقد اتخـذه المغول مجالا للسكر والعربدة بعدا احراق مصاحفه والقضاء على عبـاده والمجاورين فى زواياه ولم يكتفوا بذلك بل أتلفوا كل ماوصلت اليه أيديهـم الخبيثة من كتب العلوم المختلفة التى كانت دمشق منارا يشع بها الـى العالم . وفى غمرة هذا المصاب الجلل يتذكر الشاعر ماجرى للمدن الشاميـة الأخرى كحماة وحلب فيقرنهما بدمشق لتكون دموعه أغزر عليهن معا :-

أعروسنا لك أسوة بحماتنـا * فى ذا المصاب فأنتما أختـان .

غابت بدور الحسن عن هالاتها * فاستبدلت من عزهـا بهـوان .

ناحت نواعير الرياض لفقدهـم * فكأنها الأفلاك فـى الدوران .

حزنى على الشهباء (٢) قبل حماتنا * هو أول وهى المحـل الثانـى .

---

(١) جامع تنكز : ينسب الى بانيه (تنكز) الذى كان واليا على دمشق من سنة ٧١٢ - ٧٣٨ هـ / خطط الشام : ٦/ ٧٤ .

(٢) الشهباء : هى حلب .

لا تدعى الأحزان ياشقرائنـــا * السيف للشهباء فى الأحـــزان .

وقعت كلاب المغل فى غزلانها * وتحكمت فى الحور والـــولدان .

لهفى عليك منازلا ومنازهـــا * ومقام فردوس وبان جنـــان . (١)

ان مدينة حلب الشهباء هى أول ماسقط فى أيدى المغول واستبيحت بفظاعة فهى أول مايبكيه الشاعر ثم تبعتها حماة التى ناحت نواعيرها الشهيرة على فقد أهلها وتبدل عزهم ذلا وقهرا ثم عظمت المصيبة بسقوط دمشق ، وقد رثاهن الشاعر كوحدة متسلسلة لا انفصال بينها وان كان رثاؤه لمدينة دمشق أشد وأعمق . وعلى العموم فأسلوبه سهل فيه رقه مع العناية بالصناعة والزخرفة .

ويقول الأوتارى (٢) فى رثاء دمشق أيضا (٣) :-

لك علم بماجرى ياسهـــادى * من جفونى على افتقاد رقادى .

لم أجد عند شدتى مؤنسالى * غير سهدى ملازما الســـوادى .

وحبيب العين الرقاد جفاهـــا * مذ رآها حليفـــة الأنكـــاد .

يبدأ الشاعر قصيدته بهذا المطلع التقليدى الذى يشكو فيه ماأصابه من الهم والحزن حيث جفاه الرقاد ، ولازمه الأرق والسهاد حتى ألفه وصار يأنس به ، ومن حالته تلك يتوجه الى دمشق معزيا :-

---

(١) مقام فردوس : من أبواب دمشق ، باب جنان : من أبواب حلب / انظر الروض المعطار : ماده (دمشق) .

(٢) هو أبو الحسن علاء الدين الدمشقى ، قيل انه من قريش . كان يشتغل بصناعة الطب ، وله فى ذلك كتب ومؤلفات ، توفى فى آخر القرن العاشر انظر تاريخ سوريه : ٦/٣٢٨ .

(٣) القصيدة فى نهاية الأرب : ٥/٢٢٧ - ٢٢٩ ، عمر موسى باشـــا ، أدب الدول المتتابعه : ٥٢٩ .

أحسن الله يادمشق عـزاك * فى مغانيك ياعماد البـلاد .

ورستاق نيربيك مع المزّ * ة مع ونق بذاك الـوادى . (١)

وبأنس بقاسيون ونـاس * أصبحوا مغنما لأهل الفساد . (٢)

طرقتهم حوادث الدهر بالقتـ * ـل ونهب الأ دمـوال والأولاد .

وبنات محجبات عن الشمـ * ـس تناءت بهن أيدى الأعادى .

وقصور مشيدات تقضـ * ـت فى ذراها الأيـام كالأعيـاد .

وبيوت فيها التلاوة والذكـ * ـر وعالى الحديث بالاسـنـاد .

حرقوها وخربوها وبـادت * بقضاء الاله رب العبـاد .

ولكم سورها حوى من معـنى * مفرح القلب والحشى والفؤاد .

ان بكى لا يفيده أو تشكـى * وجد المشتكى حليف سهـاد .

يشتكى فوق ما اشتكاه بأضعـا * ف فيفدو وهمه فى ازديـاد .

فالغلا والجلا مع الجوع والعر * ى ونهب الأقـوات والأزواد .

والحصار الشديد والحبس والخو * ف مع السادة العراة المكادى . (٣)

---

(١) رستاق نيرب : قرية مشهورة على نصف فرسخ من دمشق ، تقع فـى أنزه موضع تحف بها البساتين ويقال أن فيها مصلى الخضر عليه السلام معجم البلدان : ماده (نيرب) .

المزة : قرية كبيرة غناء من قرى دمشق / المصدر نفسه (المزه) .

(٢) قاسيون : جبل يشرف على مدينة دمشق ، فيه عدة مغاور فيها آثـار الأنبياء ، وفى سفحه مقبرة أهل الصلاح ، وأهل دمشق يعظمون هـذا الجبل ، ويسكن فى كهوفه كثير من العباد والزهاد . / معجم البلدان مادة (قاسيون) .

(٣) المكادى : اللصوص والمحتالون ، والكدية فى اللغة تعنى الأرض الصلبه وسمى هؤلاء بذلك لصلابة وجوههم . / اللسان (كدى) .

اننا نحس أن الشاعر يرسل بتعزيته من بعيد ، فأسلوبه لم يكشف عن عاطفة قوية ، وانفعال يشعرك بالتأثر الحقيقي ، والانصهار في تمثل التجربة التي مر بها ، فهو دمشقي وشاهد للحوادث المفجعة ورغم ذلك يقول : " أحسن الله يادمشق عزاك " فهو يعزي دمشق بقراها ومرافقها التي شملها الخراب ، ودمشق في الواقع هي المدمرة المستباحة التي كان الواجب على الشاعر أن يبكيها لا أن يعزيها . والشاعر في رثائه للناس الصالحين الأبرياء وفي أسفه للنسوة المصونات اللواتي وقعن في أيدي الأعادي ، وذقن الهوان والذل بعد العز في ذرى القصور الشامخات ، في ذلك كله لا يرسم صورا وظلالا من خلال شرحه لوحشية التتر واستهتارهم بالدماء والحرمات ، وانما يقول : " طرقتهم حوادث الدهر ..... " . وفي وصفه لحالة الناس المحاصرين داخل الأسوار نجده يقف عند المظاهر العامه كالجوع والشكوى والخوف والعري .... الخ ولم يحاول تحليل النفوس والدخول الى أغوارها ، وربما كان لاهتمامه بالصنعة البلاغية أثر في صرفه عن ذلك . ويبرز الجانب الديني عند الأوتاري بوضوح عندما يتحدث بحزن عن الأماكن ذات القدسيه كجبل قاسيون أوعند ذكره لتلك البيوت التي كانت تعج بالآيات والأحاديث ثم أقفرت وخربت وسرعان مايرجع الى الحقيقة الأزليه المتمثلة بقضاء الله الذي يقدر مايشاء على من يشاء .

ثم تلتهب مشاعر الشاعر حينما لا يجد نصيرا الا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيذهب يستشفع به في لون من الوجد الصوفي الملتهب :-

ياترى هل لكربنا من مجير * أم لتشديد أسرنا من فادي (١)

---

(١) تشديد الأسر : الشد بأسباب القوة ، وهو مقتبس من قوله تعالى : (نحن خلقناهم وشددنا أسرهم واذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا) سورة الانسان ، الآيه ٢٨ .

لست أرجو غير البشير شفيعا * عند ربى فى المن والانجاد .

فهو الصادق الذى وعد الدين * ن ينصر جار على الآباد .

غير أن الفساد يكسب ذلا * ويمحو الفساد طرق السداد .

وارتكاب الفساد يورث فقرا * وخراب البيوت عقبى الفساد .

ياحبيب الاله قد مسنا الضر * ر فجد بالاسعاف والاسعاد .

ياحبيب الاله تبنا الى الله * ه وأنت العماد حتى المعاد .

من الأسرى كسرى حيارى دهتهم * دهمتهم جياد أهل العناد .

منهم الطفل والصبية والشاب * ب ينادى فمن يجيب المنادى .

وينادى عليهم برغيف * وبنزر بخس بسوق الكساد .

عوضوا عن سرورهم بغرور * وقصور البلاد سكنى البوادى .

وبأهل الوداد شر أناس * وبلين المهاد شوك القتاد .

أى عين عليهم ليس تبكى * أى قلب عليهم غير صادى .

فلأنت الرحيم قلبا ولبا * ولأنت الهادى لسبل الرشاد .

ولأنت البديع خلقا وخلقا * ولأنت السميع للانشاد . (١)

---

(١) كان الأولى أن يتوجه الشاعر بدعائه الى الله - سبحانه وتعالى - دون واسطه ، غير أن الصوفيين لغموض فلسفتهم يكثرون من التوسل بالرسول - عليه الصلاة والسلام - بغلو شديد ، حتى يتصوروا أنهم فى حضرته وأنه سامع لمايقولون وقادر على النفع والضرر فى هذه الدنيا على الرغم من وفاته واعتقادهم هذا مخالف لنصوص الاسلام الصحيحه .

وهكذا يستمر فى مدح الرسول - صلى الله عليه وسلم - الى نهاية القصيدة والشاعر هنا يشير الى الفساد الذى انغمس فيه الناس ، وتنكبهم لطرق الخير والسداد حتى جلبوا لأنفسهم الذل والعار والدمار ، ومع هذا فهو مطمئن الى أن عاقبة الدين الى نصر ، لأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قد وعد بذلك اذا صلحت نفوس الناس وأعمالهم ، ولذلك نرى الأوتارى يبادر الى اعلان التوبة بين يدى الله سائلا اياه - بواسطة رسوله - أن يلطف بقومه الذين وقعوا فى أسر المغول وخاصة الأطفال والنساء والصبيان الذين يباعون كالرقيق بثمن بخس .

وأسلوب القصيدة سهل ، ومعانيها واضحة مطروقة ليس فيها ابتكار ، وقائلها لم يكن من الشعراء المشتغلين بالشعر ، وانما هو رجل شهد نكبة وطنه ، وتشرد قومه ، فهاله ذلك المشهد وجادت قريحته بهذه القصيدة .

البـــاب الثانـــي

الشعر العربي ورثاء الأندلس والمغرب

توطئه : منذ أن دخل عبد الرحمن الداخل الى الأندلس وأصبح أميرا لها فى سنة ثمان وثلاثين ومائه أخذ يخطط ويدبر لاقامة دولة أموية قوية منفصلة عن الخلافة العباسية فى كل شئ . وقد كان هذا الرجل ذا همة عالية وطموح وثاب مع عزم وحزم صارمين . فاستطاع أن يجند الجيوش الجراره لحماية امارته من العدوان الخارجى المتمثل بقوات الفرنج النصارى الذين أزعجهم أشد الازعاج قيام قوة فتية بجوارهم فأخذوا يتحينون الفرص لاضعافها ، واتخاذ الوسائل لمهاجمتها ، كما قاموا بتحريض العناصر الثائره فى الداخل ومدها بوسائل القوة الممكنة وقد تجلى ذلك عندما تمردت شرذمه من أهل مدينة سرقسطه على حكم عبد الرحمن الداخل وطلبوا معونة النصارى فجرد ملكهم شارلمان جيشا وغزا سرقسطه ولكن جيش الداخل تصدى له ورده خائبا . (١)

وبعد أن توطد أمر الحكم للداخل ، واستطاع أن يضبط أمور مجتمعه على اختلاف طبقاته وأجناسه انصرف الى الناحية العمرانية الحضارية فأنشأ فى قرطبه -عاصمته- دارا لضرب النقود الاسلامية وبنى فيها مسجدها الجامع الذى يعد من أبرز المنشآت العمرانية فى الأندلس عامة . (٢)

وانتشرت العلوم الاسلامية وازدهرت وبخاصة الفقه على مذهب الامام الأوزاعى ثم مذهب الامام مالك وظهر فى الأندلس جملة من الفقهاء كان لهم مكانة مرموقة فى الدولة وبين الناس . (٣)

---

(١) عبد الرحمن الحجى ، التاريخ الأندلسى : ٢٢٥ .

(٢) عنان ، دولة الاسلام فى الأندلس : ١/ ٨٥ ، ابن عذارى ، البيان المغرب : ٢/ ٢٢٩ .

(٣) انظر ، ابن الفرضى ، تاريخ علماء الأندلس : ١/ ٢٠٢ - ٢٠٤ .

وقد سار الأمراء الأمويون الذين خلفوا الداخل على نفس سياسته في القوة والحزم والاهتمام بمرافق الدولة المختلفة فشجعوا العلم والأدب فكثر العلماء والشعراء والكتاب وانتشرت معاهد التعليم ومدارسه وأصبحت اللغة العربية هي لغة العلم والثقافة حتى في معاهد النصارى واليهود الذين أسلم منهم الكثير بعد دراستهم للاسلام بلغته الأصلية (١). ثم تحولت الامارة في الأندلس الى خلافة على يد عبد الرحمن الناصر سنة ست عشرة وثلاثمائة وقد امتد حكمه أكثر من نصف قرن بلغت الأندلس خلاله أقصى ازدهارها السياسي والحضاري ، وغدت مركزا ترنو اليه الأنظار سواء في ذلك حكام الدول الأوربيه الذين سعوا الى كسب ود الأندلسيين ورضاهم أو طلاب العلم الذين وجدوا أنفسهم مشدودين نحوها بحثا عن فنون العلم المختلفة .

قال ابن خلدون عن الناصر (٢) : " .... ومدت اليه الأمم النصرانية من وراء الدروب يد الاذعان ، وأوفدوا عليه رسلهم وهداياهم من رومة والقسطنطينيه في سبيل المهادنة والسلم والاعتمال فيما يعن في مرضاته ووصل الى سدته الملوك من أهل جزيرة الأندلس المتاخمين لبلاد المسلمين بجهات قشتالة وبنبلونة وماينسب اليها من الثغور ، فقبلوا يده ، والتمسوا رضاه ...." .

ويقول ابن الأبار - أيضا - (٣) " أذعن له ملوك الروم ورغبوا في مصاهرته " .

---

(١) اتخذ هذا الاجراء الأمير هشام الأول خليفة عبد الرحمن الداخل سنة ١٨٠ هـ أنظر : عنان ، دولة الاسلام في الأندلس : ٢٢٦/١ .

(٢) العبر : ٢٩٦/٤ .

(٣) الحلة السيراء : ٢٦٦/١ ، وفي النفح ٣٥٤/١ روايات مشابهه .

ثم توفى الناصر بعد أن ترك الأندلس مستقرة موحدة آمنة الحدود رضخ لقوتها حكام الشمال الأسبانى وغيرهم ، وخلفه ابنه الحكم المستنصر فأكمل مشاريع البناء والازدهار ، وعرف بحبه الشديد للعلم وأهله وقد كان هو نفسه عالما كبيرا ، جلب الكتب من البلاد الاسلامية وبذل فيها الأموال الكثيرة وكان شجاعا يقود الجيوش بنفسه لرد المعتدين ، وبعد حكم دام ست عشرة سنه توفى الحكم وتولى بعده وليده هشام الملقب ب (المؤيد بالله) البالغ من العمر احدى عشرة سنة وذلك سنة ست وستين وثلثمائه وبخلافة هذا الصبى تتبدل أحوال الأندلس وتضطرب لعجز المؤيد عن النهوض بأعباء الحكم فى دولة كالأندلس . وكادت الفتن تعصف بالخلافة لولا أن قيض الله لها رجلا قويا هو المنصور بن أبى عامر الذى استطاع أن يحجر على هشام المؤيد ويكون هو الحاكم الفعلى للبلاد باسم هشام وكان رجلا حازما داهية يثنى عليه المؤرخون لشجاعته وكثرة غزواته (١) . وبعد موته حكم ابنه المظفر ثم ابنه عبد الرحمن الملقب ب (شنجول) وبمقتله تنتهى الخلافة فى الأندلس ويبدأ عهد الفوضى والتنازع ويبدأ الانهيار التدريجى لصرح المجد العظيم الذى شاده أبطال الاسلام . فمنذ بداية القرن الخامس الهجرى الذى يسمى فى الأندلس بعصر ملوك الطوائف بدأت خيوط المأساه تتضح بسقوط المدن الاسلامية بيد النصارى واستمر هذا التساقط خلال العصور التى تلت هذا العصر ليشمل معظم المدن والحصون وتأتى المرحلة الأخيرة المروعة بسقوط غرناطه آخر المدن الاسلامية فى نهاية القرن التاسع

---

(١) انظر : ابن خيره الاشبيلى ، ريحان الألباب وريعان الشباب ،لوحه : ١٣٩ . قال (والروم تعظم قبره لشجاعته) ، ابن بسام ،الذخيره : ق٤ ، ج١ ص٣٩ .

ويمكن القول انه تخلل هذه المدة التاريخية الطويلة المظلمة فترات مضيئة نعمت فيها الأندلس بالأمن والرخاء وخاصة فى عهد المرابطين والموحدين حيث استعيدت بعض المدن الأندلسية المحتلة ولكن هذا الوضع لم يدم طويلا لوجود العدو المتربص (النصارى) الذى تدفعه روح صليبية لارجاع الأندلس الى النصرانية ، فكانت الغارات تتوالى بشدة على الأندلس من جهاتها المختلفة . الأمر الذى يتطلب وجود قوة كبيرة دائمة فى الأندلس وذلك من الصعوبة بمكان بالنسبه لحكام المغرب من المرابطين أو الموحدين أما قوة الأندلس الذاتية فهى قد وهنت بعد ذهاب الخلافة الأموية بسبب النزاع والحروب الداخلية بين الأمراء الطامعين الذين نالوا من قوة البلاد وساهموا فى سقوطها أكثر مافعله العدو الخارجى .

والواقع أن مأساة الأندلس من أشد المآسى التى وقعت فى التاريخ فهو تحطم حضارة زاهره ومعالم اسلامية ، وأمة فقدت سمات حياتها الدينيه والفكريه والحضاريه ، فقد مست النكبة كل شئ ، مست الأرض التى درج عليها قوم حرروها من الظلم والقهر ونشروا فيها نور الاسلام وضياءه ، الأرض التى تمكن حبها من أعماق الأندلسيين ، وامتزجت ظلالها وأنهارها ، وأشجارها وكل شئ فيها بأرواحهم ودمائهم . كما مست النكبة الدين فى معالمه الكثيرة ... فى مساجده ومآذنه ومحاريبه .... ومست معاهد النور والعلم ومراكز الاشعاع ، وحولتها الى أطلال ورسوم يؤمها الجهل والظلام . ومست الانسان الأندلسى من خلال تلك المذابح والمجازر الرهيبة التى كان يقوم بها العدو الصليبى ضد العجزة والأطفال والنساء . ولقد تتبع الشعر الأندلسى هذه المحن والنكبات مسجلا مراحلها ، مخلدا شعور الأندلسيين فيها ، معبرا بالدمع والدم عن تلك الاحساسات الصادقة العميقة التى قل نظيرها فى الأدب العربى ككل .

وتسهيلا للدراسة ، وحرصا على استقصاء المادة الشعرية قسمت أشعار الرثاء التى جمعتها الى رثاء مدن ، ورثاء ممالك ، وشعر استغاثة واستصراخ وشعر فى رثاء الأندلس عامه حينما غربت شمسها أو كادت ولم أراع فى هذا التقسيم التسلسل التاريخى لاختلاط الأحداث وتقاربها فربما سقطت امارة أو مملكة قبل مدينة أو سقطا معا أو استرجعت مدينه بعد سقوطها ثم أخذت مرة أخرى ولهذا لجأت الى التقسيم حسب الموضوع ، فلاعجب أن تجد فى هذا الباب قصيدة فى رثاء مدينة سقطت فى القرن السابع تقدمت على رثاء امارة سقطت فى القرن الخامس وهكذا .

الفصل الأول : رثاء المدن :-

الفتنة البربرية وتدمير قرطبة :، ذكرنا فيما تقدم كيف آل أمر الخلافة الأموية الى هشام المؤيد الذى كان صبيا صغيرا وكيف استطاع المنصور بن أبى عامر (١) أن يتولى الأمور فى قرطبه وأن يحجر على هشام ويستبد دونه حتى غدا هو الخليفة الفعلى وان لم يحمل هذا اللقب ، ولا نبعد عن الصواب ان قلنا ان حكمه يعتبر بداية لعهد جديد ودولة جديدة وخاصة عندما أصبح

---

(١) هو محمد بن عبد الله بن عامر بن عبد الملك المعافرى ، وجده عبد الملك هذا كان من أول الداخلين مع طارق الى الأندلس من المغرب ، تولى قضاء كورة ريه أيام الحكم بن الناصر فأبدى همة وعزيمة فأضيفت اليه ولاية الشرطة والسكة مقرونة بقضاء اشبيليه ، فعلت حالته وعمر بابه وكانت السيدة صبح زوجة الحكم تشمله برعايتها لحسن خدمته لها . فلما مات الحكم دعته ليكون وزيرا لابنها الضعيف هشام المؤيد ،فاستبد بالأمر بدهائه وتلقب (بالحاجب المنصور) وجعل الحكم فى أبنائه من بعده ، حتى كان هناك مايسمى بالدولة العامرية ضمن الخلافة المروانية . / الذخيرة : ق٤ ، ج ١ ، ص ٦٠ ، ٦١ .

أبناؤه يتوارثون منصبه من بعده وبالرغم من قوة الرجل وشجاعته فى الجهاد وعدله وحسن سياسته واظهاره هيبة الأندلس التى كادت تعصف بها الحوادث برغم ذلك فانه وجد من يعارض حكمه ويعتبره مغتصبا للخلافة والحكم ولا أدل على ذلك من قول الشاعر يستثير بنى أمية ضده :- (١)

فيما أرى عجبا لمن يتعجب * جلت مصيبتنا وضاق المذهب .

انى لأكذب مقلتى فيما أرى * حتى أقول غلطت فيما أحسب .

أيكون حيا من أمية واحد * ويسوس ضخم الملك هذا الأحدب .

تمشى عساكرهم حوالى هودج * أعواده فيهن قرد أشهب .

أبنى أمية أين أقمار الدجى * منكم ومالوجوهها تتغيب .؟:

ان هذه الأبيات تظهر نوعا من التبرم بحكم ابن أبى عامر لدى الناس وبخاصة أنصار بنى أمية أصحاب الخلافة الشرعية . ولكن حزم ابن أبى عامر وكرمه الفياض واصطناعه للرجال كان حائلا دون النيل منه ومن خليفته عبد الملك المظفر ولده . ثم تولى بعدهما ولده الآخر عبد الرحمن الملقب ب (شنجول) وكان جاهلا عابثا اتخذ بطانة سوء أغرته بالتضييق على هشام المؤيد وطلب ولاية العهد منه وبالفعل تم له ماأراد وكتب الخليفة المستضعف كتابا بذلك أشهد فيه طبقات أهل قرطبه على تولية عبد الرحمن ولاية العهد ، وقرئ الكتاب على العامة ، فأحدث استياء بالغا جعل طبقات الشعب تبحث عمن يقودها لقلب الدولة العامرية وازهاقها وتم ذلك على يد أحد رجال الدولة الأموية وهو محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر

---

(١) ابن عذارى ، البيان المغرب : ٢/ ٢٨١ .

(٢) انظر أخبار هذه الفتنة فى المصدر السابق : ٣/ ٤٠ ومابعدها .

الملقب بالمهدى الذى استغل غيبة شنجول عن قرطبة فى غزوة الى نواحى طليطلة ودخل قرطبه بجيشه فأيده الناس ، فمضى بمن معه الى الزاهره مدينة ابن أبى عامر فنهبها ثم هدمها ودخل قصر الحكم بقرطبه وقبض على الخليفة المؤيد الذى سرعان ماتنازل عن الخلافة وبايع المهدى بها ثم تتابع الناس من بعده بالبيعة وانفضوا من حول شنجول ثم قبضوا عليه أخيرا وجزوا رأسه وطافوا به سنة تسع وتسعين وثلاثمائه وهكذا ينتهى نفوذ بنى عامر فى قرطبه ولم تهدأ الأحوال بعد ذلك بل اشتعل الصراع داخل البيت الأموى نفسه حيث ظهر أموى آخر هو سليمان بن حكم بن الناصر وجمع حوله أشتاتا من البربر الذين رفض المهدى أن يقربهم ويجعلهم من جيشه لكراهية أهل قرطبه لهم ، فبايع هؤلاء سليمان بالخلافة ولقبوه ب " المستعين بالله " ووصل الأمر بهم الى الاستنجاد بالنصارى المتربصين بزعامة ملكهم (شانجه بن فردلند) الذى جهز جيشا كبيرا ودخل قرطبة مع البربر والمستعين وهزموا المهدى وولى هاربا ، واستغل النصارى هذه الفرصة فاستباحوا قرطبة ودمروها وقتلوا مايقرب من ثلاثين ألف انسان (١) فكانت هذه الوقعة أول ثارات النصارى من المسلمين ، كما كانت بداية سيئه لعصر جديد ساهم مساهمة فعاله فى ضياع الأندلس كلها ذلك هو عصر ملوك الطوائف الذى وصف مؤرخ الأندلس ابن حيان سنيه بقوله : " ..... سنينا شدادا نكدات ، صعابا مشئومات ، كريهات المبدأ والفاتحه ، قبيحات المنتهى والخاتمه ، لم يعدم فيها حيف ، ولا فورق فيها خوف ، ولا تم سرور ، ولا فقد محذور ...." .

---

(١) ابن عذارى ، المصدر السابق : ٣/ ٥١ .

(٢) الذخيرة : ق ١ ، ج ١ ص ٣٦ .

وفى رثاء قرطبة المنكوبة يقول ابن شهيد الأندلسى (١) :-

مافى الطلول من الأحبة مخبر * فمن الذى عن حالها نستخبر ؟ (٢)

لا تسألن سوى الفراق فانه * ينبيك عنهم أنجدوا أم أغوروا .

جار الزمان عليهم فتفرقوا * فى كل ناحية وباد الأكثر .

جرت الخطوب على محل ديارهم * وعليهم فتغيرت وتغيروا .

يقف الشاعر وقفة حزينة فى طلول أحبته التى أصبحت خاوية لا يجد فيها من يسأله عما حلّ بها وأهلها ، وهو هنا انما يسائل نفسه لأنه على علم بماحصل لبلده - قرطبه - وانما فعل ذلك لبيان الذهول الذى أصابه عند مشاهدته لمدينته المدّمره . لذلك نراه يرجع الى نفسه ليستيقظ على الحقيقة الواقعة بأن ذلك من فعل الزمان الذى طرقت خطوبه المدينة فغيرت أحوالها من الازدهار الى الانهيار ، وفعل الفراق فعله فى تشتيت أهلها شذر مذر بعد أن فنى أكثرهم فلمثل هذه الحالة يحق للشاعر أن يستقل غزير البكاء ، وبخاصة أنه ذاق فى هذه البلدة حلاوة

---

(١) هو أبو عامر أحمد بن أبى مروان عبد الملك بن شهيد ، من أشجع وهى بطن من قبيلة غطفان العربية ، كان جده عبد الملك وزيرا للخليفة عبد الرحمن الثالث ، وأول من تلقب بذى الوزارتين فى الأندلس . ولد أديبنا فى خلافة هشام المؤيد والأمر يومئذ بيد ابن أبى عامر فعاش فى كنفه عيشة راضيه شطرا من حياته حيث كان أبوه نديما خاصا لابن أبى عامر . نشأ محبا للأدب والشعر ، وبرع فى ذلك حتى أصبح فى الذروة من شعراء الأندلس وكتابها . من آثاره ديوان شعر ، " رسالة التوابع والزوابع " ، كتاب " كشف الدك وايضاح الشك " ، وحانوت عطار " وغيرها . توفى بداء الفالج سنة ٤٢٦هـ / أنظر : الفتح بن خاقان مطمح الأنفس : ١٦ ، ابن دحيه ، المطرب : ١٧٤ ، ابن سعيد المغرب : ١/٧٨ .

(٢) القصيدة فى ديوان ابن شهيد : ١٠٩ - ١١١ .

العيش وتنعم فى ظل قصور الحكم أيام بنى عامر يقول :-

فلمثل قرطبة يقل بكاء من * يبكى بعين دمعها متفجر .

دار أقال الله عثرة أهلها * فتبربروا وتغربوا وتمصروا .

فى كل ناحية فريق منهم * متفطر لفراقها متحير .

عهدى بها والشمل فيها جامع * من أهلها والعيش فيها أخضر .

ورياح زهرتها تلوح عليهم * بروائح يفتر منها العنبر .

والدار قد ضرب الكمال رواقه * فيها وباع النقص فيها يقصر .

والقوم قد أمنوا تغير حسنها * فتعمموا بجمالها وتأزروا .

ياطيبهم بقصورها وخدورها * وبدورها بقصورها تتخدر .

والقصر قصر بنى أمية وافر * من كل أمر والخلافة أوفر .

والزاهرية بالمراكب تزهر * والعامرية بالكواكب تعمر . (١)

والجامع الأعلى يغص بكل من * يتلو ويسمع مايشاء وينظر .

ومسالك الأسواق تشهد أنها * لا يستقل بسالكيها المحشر .

يرجع الشاعر بذاكرته الى الماضى القريب حيث كان شمل الأحباب بقرطبة مجتمعا وعيشهم بها رغيدا يفتخرون بها على سائر البلاد ، فهى درة جبين الحضارة تزهو بعمرانها ومنشآتها العامة والخاصة وشوارعها الواسعة المضاءة بالقناديل (٢) ، وحدائقها التى تتمايل مزهرة شذية ولاعجب أن تكون قرطبة كذلك فهى قصبة الملك ودار الخلافة فى وسطها يقع قصر الخلفاء الأمويين الضخم وبقربها تقوم مدينة الزاهرة التى بناها المنصور بن أبى عامر وبالغ فى تحسينها لتنافس قرطبة نفسها وفى هذه المدينة أطلق ابن شهيد

---

(١) الزاهرية : قصد بها الزاهره ، وهى العامرية من مدن الدولة العامرية وقد أحرقها البربر سنة ٤٠٣ هـ فى فتنة قرطبة . / ابن عذارى ، البيان المغرب : ٣/ ١٠١ .

(٢) انظر وصف قرطبة فى النفح : ١/ ٤٥٦ ، عبد الرحمن الحجى ، أندلسيات ٢/ ١٦١ .

لسانه فى المديح ، وجرّرسته فى البطالة واللهو . ولا ينسى فى هذا المجال جامع قرطبة الكبير الذى تتابع عليه الخلفاء بالزيادة والتحسين حتى غدا آية فى الروعة ومنارا للعلم والعبادة .

يقول ابن عذارى : "كانت قرطبة فى زمان الفتح الداخل الى الأندلس قد نسي بها بغداد فى زمان الرشيد ، وعظم بها ملكهم فاشتد أمرهم وضخم حالهم ، وأعظم ماكانت فى زمان الناصر ثم فى زمان الحكم واتصل ذلك لها الى آخر المنصور بن أبى عامر فتناهى بها كل فضل وكمل ، وذلك للادبار الذى يكون بعقب الاقبال ، والنقص الذى يوافى بعد الكمال فما من شئ كمل الا ودنا نقصه لا محاله . " وبقدر ماكان الحسن والازدهار أصبح الخراب والتدمير وانقلب كل شئ فيها الى نقيضه :

ياجنة عصفت بها وبأهلها * ريح النوى فتدمرت وتدمروا .
آسى عليك من الممات وحق لى * اذ لم نزل بك فى حياتك نفخر .
كانت عراصك للمجيم مكة * يأوى اليها الخائفون فينصروا .
يامنزلا نزلت به وبأهله * طير النوى فتغيروا وتنكروا .

ان الشاعر يصف المفارقة الحاصله بين الحالتين اللتين عاشتهما المدينة بالحياة والموت فبينما كانت موضع الفخر فى حال حياتها اذ هى اليوم ميتة تستحق البكاء والأسى ، وهذه الصورة النابضة بالحياة جديدة فى شعر رثاء المدن أبدعها ابن شهيد وربما نجدها فى شعر من جاء بعده . ومادامت المدينة قد ذوت وماتت فانه يدعو لها بالسقيا لعلها تحيا من جديد وتزهر رياضها :-

جاد الفرات بساحتيك ودجلة * والنيل جاد بها وجاد الكوثر .
وسقيت من ماء الحياة غمامة * تحيا بها منك الرياض وتزهر .

ثم يعود بعد ذلك الى تأسفه وحزنه على أيامه الخوالى بها حين كان الأمر مجتمعا على أمير واحد حازم يخضع له الجميع ، ثم يمتد أسفه ليشمل أصنافا من الناس كالجند الحماة والعلماء والأدباء والحكماء يقول :

أيام كان الأمر فيها واحدا * لأميرها وأمير من يتأمر .

أيام كانت كف كل سلامة * تسمو اليها بالسلام وتبدر .

حزنى على سرواتها ورواتها * وثقاتها وحماتها يتكرر .

نفسى على آلائها وصفائها * وبهائها وسنائها تتحسر .

كبدى على علمائها ، حكمائها * أدبائها ، ظرفائها تتفطر .

لقد كانت قرطبة كعبة العلماء بأصنافهم ، والشعراء والأدباء ، وكان ابن شهيد من جملتهم ، كما كانت تزخر بالمدارس والجامعات والمكتبات ، حتى انه كان يحتج بعض أهلها فى الأحكام يقول المقرى : "واعلم أنه لعظم أمر قرطبة كان عملها حجة بالمغرب ، حتى انهم يقولون فى الأحكام هذا ماجرى به عمل قرطبة ." (١)

ان ابن شهيد بالرغم من مقامه السياسى والاجتماعى فى العاصمة - قرطبة - وشهوده للفتنه عن كثب ، فان قصيدته جاءت دون المستوى الذى ينبغى لها من حيث حرارة العاطفة وصدق الاحساس وقوة التأثير ، ولعل شدة وقع المصاب عليه أفقده القدرة على التفاعل مع الأحداث ، فهو لم يعرض فى قصيدته الى رؤوس الفتنة ، ولم ينح باللائمه على أحد وانما أرجع سبب الدمار والهلاك الى فعل الدهر فأتى بضروب من العبارات الدالة على ذلك كقوله : "جار الزمان" ، "جرت الخطوب" "ريح النوى" ، "طير النوى" وأمثال

---

(١) النفح : ٥٥٦/١ .

هذه العبارات تبعث في النفس لونا من الحزن المشرب باليأس من أي مقاومة أو أمل في الانتعاش أضف الى ذلك أن الشاعر لم يتفنن في رسم الصور التفصيلية لما أصاب المدينة وأهلها ، ليجعل الموقف الشعرى في ذروة التأثير وانما أجمل اجمالا لا يغني عن التفصيل في كثير من الأحيان ، فلم يتحدث عن الحقد الصليبي على المسلمين ولم يذكر التهافت على الحكم من قبل المتنازعين ولو على حساب مصلحة الأمة التي ذاقت الويلات قتلا وسلبا وأسرا من جراء ذلك . ان الشاعر كما يبدو استغل شعر الأطلال في رثائه لقرطبة فهو - كما يظهر من القصيده - كمن يقف بأطلال داثره لها ماض عريق فهو يستعمل قاموس الأطلال اللغوى كقوله "عهدى بها " "عهدت ربوعها " ، "يامنزلا " .... الخ كما أنه يدعو لتلك الأطلال بالسقيا والخصب الذى يكثر وروده في المقدمات الطلليه . وعلى هذا يكون رثاؤه أقرب الى السلبية والاستسلام . أما أسلوبه فلم يخرج عن أسلوب الشعر بعامه في القرن الخامس الهجرى في الأندلس حيث كان مدار الحسن عندهم ينبني على مقدار مايستعمله الشاعر من المحسنات اللفظية والمعنوية وغيرها فهو عصر السجع بحق حتى اننا نجد معظم المؤلفات غير الأدبية - كالتاريخية والتراجم وغيرها فيه كتبت بطريقة مسجوعة تجعل الحصول على المعلومات منها في غاية الصعوبة أحيانا . لذا نجد ابن شهيد رغم كونه شاعرا مطبوعا وذا قريحة وقاده مخترعه وسباقه فانه حشد في قصيدته معظم أنواع البيان والبديع ، كالاستعارات والتشبيهات ، والجناس والطباق وغير ذلك .

وهناك - أيضا - عدة مقطوعات في رثاء قرطبه يسلك بعضها سبيل الوعظ وارشاد الناس الى الصراط القويم الذى اصابتهم المحن بسبب ابتعادهم عنه ، وزجرهم عن الغي الذى أعمى بصائرهم فلم يضعوا الأمور في نصابها

يقول بعضهم : (١)

أضعتم الحزم فى تدبير أمركم * ستعلمون مما عقبى البوار غدا .

فلو رأيتم بعين الفكر حالكم * بكيتم بدم أن دمتم بددا .

لكن سبل العمى أعمت بصائركم * فألبستكم ثيابا للبلى جددا .

ياأمة هتكت ستور سينبوتهما * ماكل من ذل أعطى بالصغار يدا .
(٢)
فى سورة الحشر آيات مفصلة * فى شأنكم أنزلت لم تعدكم أحدا .

نعم وفى الكهف فى العشرين خاتمة * تقضى عليكم بأن لا تفلحوا أبدا .

فاستشعروا سوء عقباكم فقد شملت * جميعكم محنة لا تنقضى أبدا .

ان هذه الأبيات - كمايبدو - صرخة تعنيف من عالم : قد عرف مكمن الداء وسبب الهلاك الذى أصاب الناس فى هذه الفتنة المبيرة وهو الابتعاد عن الجدية والحزم فى تصريف الأمور حتى غدت حالتهم تستوجب البكاء دما بعد التفرق والتشتت الذى لا يرجى بعده اجتماع . وهو يشير كذلك الى أمر هام زاد الأمة ذلا على ذلها وكشف ضعفها وهوانها وهو الاستنجاد بأعداء الدين النصارى على المسلمين فى سبيل تحقيق شهوات ومطامع خسيسه ، وذلك قوله " ماكل من ذل أعطى بالصغار يدا " . وفى الآيات التى ألمح اليها تفسير قوله هذا ، وبخاصة قوله تعالى عن الكفار (انهم ان يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم فى ملتهم ولن تفلحوا اذا أبدا .) (٣) .

---

(١) البيان المغرب : ٣/ ١١١ .

(٢) يريد الآيات ٢، ٣ ، ٤ من سورة الحشر .

(٣) الآية ٢٠ من سورة الكهف .

ان هذه المقطوعة وان كنا نعدها من شعر الوعظ والزجر لا من شعر الرثاء الخالص - لخلوها من وصف ماحل بقرطبة من الدمار تفصيلا - الا أنها قد أدت غرضها بايجابية فى تنبيه الناس الغافلين ، وايقافهم على الواقع الماثل أمامهم ، فقد تميز صاحبها بصدق عاطفته والتهاب شعوره وحماسه .

ولبعضهم أيضا مقطوعة قصيرة فى رثاء عاصمة الخلافة (قرطبة) وهو يرجع مادهاها الى العين والحسد وهذا النوع من القول يتردد كثيرا فى شعر الرثاء ، كما لاحظناه فى رثاء بغداد أيام فتنة الأمين والمأمون .

يقول : (١)

أبك على قرطبة الزين * فقد دهتها نظرة العين .

انظرها الدهر باسلافه * ثم تقاضى جملة الدين .

كانت على الغاية من حسنها * وعيشها المستعذب اللين .

فانعكس الأمر فما ان ترى * بها سرورا بين اثنين .

فاغد و ودعها وسر سالما * ان كنت أزمعت على البين .

ان الشاعر - كما يبدو - ذو نزعة تشاؤمية انهزامية قادته الى البكاء والحزن على مدينته المدمرة دون أن يرفع صوته محذرا قومه أسباب الفتن والانقياد للحكام الخونه الذين هم رأس الداء وسبب البلاء . ولعل الخوف من البطش به هو الذى دفعه الى أن يجعل سبب خراب قرطبة ، وانعكاس حالها من الحسن والسرور الى البؤس والشقاء هو نظرة العين الحاسدة ، وتصاريف الدهر المتلونه التى قطعت الوشائج بين الناس . فلا عليهم الا أن يفارقوها مودّعين الى غير لقاء .

---

(١) البيان المغرب ، ٣/١١٠ .

ويقول الفقيه ابن القبرى :- (١)

ياليت شعرى والأيام تجمعنا * ونأخذ البين مغلوبا فنصفعه .

فى جنة الأرض أعنى أرض قرطبه * فكل شئ بديع فهى تجمعه .

استودع الله أهليها فانهم * كالمسك قد ملأ الدنيا تضوعه .

وهذه الأبيات أقرب الى الحنين منها الى الرثاء ، فهى تعبير عن أشواق قائلها الى أيامه الماضية بقرطبه حين كان الشمل ملتئما والفراق منهزما ، وكل مالذ وطاب موفورا فيها .

وفى حوالى سنة أربعين وأربعمائه جاء الشاعر المعروف بالسميسر (٢)

---

(١) هو عبد الواحد بن محمد بن موهب التجيبى يكنى بأبى شاكر ويعرف بابن القبرى . كان فقيها محدثا ، وخطيبا شاعرا ولد بقرطبه سنة ٣٧٧هـ ونشأ وتعلم بها ثم تحول بعد الفتنة الى شاطبه وولى بها الأحكام والمظالم وكان من أهل النبل والذكاء والتواضع ، توفى سنة ٤٥٦ بشاطبه ودفن ببلنسيه . انظر : بغية الملتمس ، ترجمه رقم ١١٠٧ ، القاضى عياض ، ترتيب المدارك : ٤ / ٨١٨ . والأبيات فى نفس المصدر والصفحه .

(٢) هو أبو القاسم خلف بن فرج الالبيرى ، من أعلام شعراء ألبيره ، وبيته فى غرناطه . أدرك الدولة العامرية وانقراضها ، اشتهر بالهجاء والاقذاع وألف فى ذلك كتابا سماه "شفاء الأمراض فى أخذ الأعراض" قال فيه ابن بسام : "كان باقعة عصره ، وأعجوبة دهره ، له طبع حسن وتصرف مستحسن فى مقطوعات الأبيات وخاصة اذا هجا وقدح توفى سنة ٤٨٠هـ الذخيرة ق ١ ، ج ٢ ص ٣٧٢ ط القاهرة . وانظر ابن دحيه ، المطرب : ٩٣ ، ابن سعيد ، المغرب : ٢ / ١٠٠ .

الى قرطبه وجال فى عراصها وشاهد ماحلّ بها ثم انتقل عنها الى مدينة الزهراء المجاورة لها ، وكانت قد خربت وأصبحت أطلالا بعد أن كانت عاصمة الخلافة الأموية أيام الخليفة عبد الرحمن الناصر الذى جعلها زينة الدنيا لشدة مبالغته فى زخرفتها وتحسينها ، وذلك لتناسب مقام الخلافة الكبير ، فيروى أنه جلب اليها الرخام الأبيض من المريه ، والوردى والمجزع من افريقية وقرطاجنه ، وبنى فى وسطها مجلسه المسمى بقصر الخلافة ، وكانت فراقده من الذهب والفضة وفى وسطه صهريج عظيم مملوء بالزئبق . وقيل ان هذا المجلس كان يدور ويستقبل الشمس . وهذا المجلس لم يتقدم لأحد بناؤه فى الجاهلية ولا فى الاسلام . (١) فلما حدثت فتنة قرطبة هجم البربر على هذه المدينة ومعهم النصارى ونهبوا كل مافيها ودمروها بشناعة فلما وقف السميسر بها أخذ يناجيها باكيا ومستخرجا للعبرة مماآل اليه حالها . يقول :-

وقفت بالزهراء مستعبرا * معتبرا أندب أشتاتا . (٢)

فقلت : يازهرا ألا فارجعى * قالت وهل يرجع من ماتا ؟

فلم أزل أبكى وأبكى بها * هيهات يغنى الدمع هيهاتا .

كأنما آثار من قد مضى * نوادب يندبن أمواتا .

ان تبدل حال الزهراء وخرابها جدير أن تأخذ منه العبرة بأن مصير كل شئ على الأرض - مهما كان عظيما - الى الفناء والزوال ، ولقد أحسن الشاعر فى وقفته بأطلالها وبهذا الحوار الذى يجريه معها ويضفى عليها فيه صفات

---

(١) انظر وصف الزهراء فى : ابن خلدون ، العبر : ١٤٤/٤ ، عنان الآثار الباقية فى أسبانيا والبرتغال : ٣٥ ، عبد العزيز سالم ، قرطبه حاضرة الخلافة الإسلامية : ٢٢٩/١ .

(٢) نفح الطيب : ٥٢٧/١ .

الأحياء الذين يؤلون الى الموت " قالت : وهل يرجع من ماتا " أو يجعل الأطلال نوادب يندبن من عمروهن فيما مضى . وربما قال قائل : لماذا أعجبتنا وقفة السميسر بالأطلال رغم كونها سلبية فهو يبكى ويستبكى من حوله ولا غير ؟ والجواب على ذلك أن الشاعر جاء الى الزهراء بعد خرابها فيما يقارب عشرين عاما فلم يجد غير آثار وأطلال دراسه ، كما أنه لم يكن فى الأصل من أهلها ليكون قد شهد دمار قرطبة والزهراء فى الفتنة البربرية سنة أربع وأربعمائه .

عصر الطوائف وبداية السقوط :

رأينا - فى ماتقدم - كيف اشتعلت الفتنة البربرية وقوضت حكم العامريين ، ورجع الأمر الى بنى أمية بجهود أنصارهم من البربر والمرتزقة النصارى الذين لم يدخروا وسعا فى تدمير البلاد وافسادها . وظل الأمر كذلك فى الفترة القصيرة التالية بسبب تعدد الفئات والأحزاب المتنازعة ، وتوالى الخلفاء من الأمويين والبربر حتى بلغ عددهم فى مدة لا تزيد عن خمس عشرة سنة أربعة عشر خليفة (١) وكان من جراء هذه الفوضى العارمة أن تمزقت وحدة الدولة وخيم عليها شبح الكوارث المحرقه التى أصابت كل شئ ، وختمت هذه المحن بانهيار صرح الخلافة ، وأطيح بآخر الخلفاء الأمويين هشام المعتد بالله ونودى فى آخر سنة اثنتين وعشرين وأربعمائه بأن لا يبقى فى قرطبة وسائر أحيائها وأرباضها أحد من بنى أميه ولا يؤويهم أحد . وهكذا انقطع ذكر الأمويين من على منابر الأندلس الى الأبد (٢) . وعلى أثر ذلك أصبحت الفرصة سانحة أمام كل ذى قوة من الزعماء المحليين ليصبح ملكا على دويلة يقيمها فى منطقته ، فاذا بنا أمام عشرين دويلة مستقلة استقلالا تاما فى ادارتها وجيشها وحياتها الفكريه والأدبيه ، وعرفت هذه الدويلات بدول الطوائف ورؤساؤها بملوك الطوائف . وهم مابين وزير سابق ، وشيخ للقضاء ، وحاكم لمدينه ، وقائد له نفوذ وأتباع (٣) ومن أشهرهم موالى بنى عامر مثل خيران العامرى وزهير العامرى فى شرق الأندلس أى فى (ألمرية ، ومرسية ، وبلنسية ، ودانية)

---

(١) ابن شهيد ، رسالة التوابع والزوابع : ١٢ .

(٢) عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس : ٣٦٣ ، عبد الكريم خليفه ، ابن حزم الأندلسى حياته وأدبه : ٥٠ .

(٣) عنان ، دول الطوائف : ١٤ .

وموالى الأمويين الجهاورة فى قرطبة ، وفى غرناطة ومالقة وبطليوس وطليطلة قام البربر بالحكم وهم : (بنو زيرى ، وبنو الأفطس وبنو ذى النون) وفى اشبيلية وسرقسطة والبونت حكم العنصر العربى وهم : (بنو عباد اللخميون ، وبنو هود الجذاميون ، وبنو القاسم الفهريون ، وبنو حمود الحسنيون) (١).

وهذه الممالك كانت تسلك - فى الغالب - نهجا سياسيا واداريا واحدا . فالملك وحده يستبد بأمور الدولة ويتخذ بطانة سوء على شاكلته لا تقبل شورى ولا معارضة . أما الاداره فتنظر فى المقام الأول الى جمع الأموال من الرعية المغلوبة على أمرها لتنفق على الجند المستأجر لحماية العروش المتهاويه وعلى الشعراء الذين حرص كل ملك منهم على استقطابهم ليدبجوا قصائد الملق ، وملاحم البطولات المزعومة لأولئك الأقزام . أما أنواع اللذات فقد أفتنوا فى اقتناصها وأنفقوا عليها بسخاء . ونستثنى منهم أبا الحزم بن جهور حاكم قرطبة فقد كان شهما عادلا حكم مملكته بالشورى وأعطى جزءا كبيرا من السلطة لفضلاء الناس فى مملكته فساعدوه على نشر الأمن ، وقاموا باصلاحات عظيمه انسدل بها الستر على أهل قرطبه (٢) وقد كانت العلاقات بين هذه الممالك علاقات خصام وتناحر وتحين للفرص من قبل كل ملك للانقضاض والتوسع على حساب ماجاوره من الممالك وقد كان هؤلاء الملوك يعتمدون فى حروبهم مع بعضهم اعتمادا كبيرا على قوات النصارى مقابل جزية عظيمة يدفعونها لهم . حتى أصبح للأذفنش (٣) ملك قشتاله النصرانى عمال

---

(١) عبد العزيز سالم : تاريخ مدينة المرية الاسلامية : ٥٧ - ٥٨ .

(٢) انظر الذخيرة ق ١ ، ج ٢ ص ٦٠٣ - ٦٠٤ .

(٣) هو أذفونش بن فرذلند بن غرسيه بن شانجه ، من أشجع ملوك النصارى ، ويرد فى المصادر بلفظ الفونس . ملك بطليطله سنة ٥٠٢ هـ بعد أن ملك نيفا وخمسين سنه . / انظر البيان المغرب : ٤/ ٥٠ - ٥١ ، السلاوى ، الاستقصاء : ١/ ١٢٤ .

يجبون له الجزيه من ملوك الطوائف ومع هذا الذل الذى كانوا يرزحون (١) تحت وطأته اتخذوا الألقاب الفخمة ، كالمقتدر والمعتضد والمعتمد والمستكفى والمتوكل .... مما دفع ابن رشيق القيروانى الى القول (٢) :-

مما يزهدني فى أرض أندلس * أسماء معتضد فيها ومعتمد .
ألقاب مملكة فى غير موضعها * كالهر يحكى انتفاخا صولة الأسد .

وقد أدى تفرق هؤلاء الملوك وانكارهم لكل صوت يدعو الى الوحدة والتكاتف الى جعلهم غنيمة سهلة للنصارى والنورمان الذين بدأوا تحركهم باحتلال مدينة بربشتر الأندلسيه سنة ست وخمسين وأربعمائه .

رثاء بربشتر : كانت بربشتر تحت حكم سليمان بن هود الملقب بالمستعين بالله حاكم سرقسطة والثغر الأعلى ، وكان هذا قد قسم مملكته قبل موته بين أولاده الخمسه حيث أصبح كل منهم حاكما مستقلا بما تحت يده من البلاد . وسرعان ما بدأ التنافس ، وظهرت الرغبة فى السيطرة والتوسع . وكان أشدهم أطماعا الأخ الأكبر أحمد المقتدر الذى استطاع بالحيلة والوعيد أن يتغلب على ثلاثة من اخوته ويستولى على أملاكهم ثم يودعهم السجن مع

---

(١) ابن أبى دينار ، المؤنس : ١٠٠ - ١٠١ ، عبد الكريم التوانى ، مأساة انهيار الوجود العربى فى الأندلس : ٣٠٩ .
(٢) العماد الأصفهانى ، الخريده ، ق٤ ، ج ٢ ، ص ١٥ .
(٣) مدينة تقع على فرع صغير من أفرع نهر ابره ، فى الشمال الشرقى لسرقسطه وهى من أمهات مدن الثغر الفائقه فى الحصانة والامتناع / انظر الحميرى الروض المعطار : مادة (بربشتر) ، عنان ، دول الطوائف : ٢٧٥ .

التعذيب بيد أن أخاه الرابع الملقب بحسام الدولة كان له ندا وقف في وجهه وحد من أطماعه ، فوقعت الحرب بين الأخوين،وقد استغل النورمان الصليبيون هذه الظروف فزحفوا الى بربشتر سنة ست وخمسين وأربعمائه . تقول الرواية الاسلامية :[1] " ان الفرنج خرجوا من الأرض الكبيرة (أى فرنسا) الى الأندلس في جموع كبيرة ليس لها حد ، ولا يحصى لها عدد الا الله " وقيل ان جموعهم بلغت أربعين ألف فارس ، فضربوا حولها حصارا شديدا استمر أربعين يوما ، ودافع المسلمون عن مدينتهم دفاعا مجيدا ، غير أن الأقوات فيها قد قلت ووقع التنازع بين أهلها فاستطاع النورمان أن يقتحموا المدينه الخارجية فتحصن الناس بالمدينة الداخلية وقتلوا من المهاجمين نحو خمسمائة شخص ، ولكن النورمان اهتدوا أخيرا الى مكان سقيا المدينه الداخليه فهدموه ، فالتقى على المحاصرين العطش والجوع والخوف فطلبوا الأمان على أن يخرجوا من المدينة آمنين دون أموال ، فوافق النورمان . ولكن هؤلاء لا عهد لهم فدخلوا المدينة بوحشية وأخذوا يقتلون ويأسرون وينهبون كل مايجدون وخاصة الأبكار المسلمات يروى ياقوت الحموى[2] أنه قد أهدى من أبكار الجوارى المسلمات ، وأهل الحسن منهن الى صاحب قسطنطينية سبعة آلاف بكر منتخبه . ويقول ابن حيان :[3] " زعموا أنه صار لأكبرهم في حصته نحو ألف وخمسمائه جاريه أبكار ، ومن أوقار الأمتعه والحلى والكسوة خمسمائه جمل " أما عدد القتلى والأسرى فهو أعظم من أن يوصف

---

(١) مجهول ، الحلل الموشيه : ٥٤ ، ابن الكردبوس : تاريخ الأندلس : ٧١ .

(٢) معجم البلدان ، مادة (بربشتر) .

(٣) البيان المغرب : ٣/ ٢٥٥ سرح الحادثه بالتفصيل .

أو ينقص . وربما كان فى الأرقام المذكورة فى هذه الروايات شئ من المبالغة ، ولكنها تدل على فداحة الخطب والوحشية الصليبية التى ماتت فيها كل الصفات الانسانية . وقد حصل كل هذا والمقتدر بن هود لم يحرك ساكنا جبنا منه ونذاله ، ولأن هذه المدينة واقعة فى ملك أخيه الذى يناصبه العداء . وفى هذه الحادثة قال الزاهد الفقيه ابن العسال (١) يرثى المدينة وأهلها :-

(٢)
ولقد رمانا المشركون بأسهم * لم تخط لكن شأنها الاصماء .
هتكوا بخيلهم قصور حريمها * لم يبق لا جبل ولا بطحاء .
جاسوا خلال ديارهم فلهم بها * فى كل يوم غارة شعواء .
ماتت قلوب المسلمين برعبهم * فحماتنا فى حربهم جبناء .
كم موضع غنموه لم يرحم به * طفل ولا شيخ ولا عذراء .
ولكم رضيع فرقوه من أمه * فله اليها ضجة وبغاء .
ولرب مولود أبوه مجدل * فوق التراب وفرشه البيداء .
ومصونة فى خدرها محجوبة * قد أبرزوها مالها استخفاء .
وعزيز قوم صار فى أيديهم * فعليه بعد العزة استخذاء .

---

(١) هو أبو محمد عبد الله بن فرج اليحصبى ، من أهل طليطله . شيخ فقيه ، وشاعر مؤلف ، وعالم بالتفسير واللغة والآداب توفى سنة ٤٨٧هـ . انظر ابن بشكوال ، الصلة : ١/ ٢٨٥ ، وفيات الأعيان : ٥/ ٢٧ - ٢٨ .

(٢) القصيدة ذكرها الحميرى ، صفة جزيرة الأندلس : ٤٠ - ٤١ .

ان الشاعر فى هذه القصيدة يصل الى غرضه الأصلى مباشرة بدون مقدمات تمهيدية وذلك لأن الموقف يتطلب هذا ، فهو يصف حادثة مروّعة وقعت بالقرب منه ، وأثارت مشاعره وأحزانه فالنصارى قد احتلوا المدينة بقسوة شنيعة ، فدكوا البيوت وانتهكوا الحرمات وجاسوا خلال الديار . وبالرغم من أن تصويره للنكبة كان من النوع المألوف فى شعر الرثاء فانه أضاف الى ذلك تلمسه لسبب البلاء وهم الحكام الجبناء فقال فى صراحة "فحماتنا فى حربهم جبناء" وقد جرّ هذا الجبن والرعب الى اظهار قوة الأعداء بمظهر لا تجدى معه مقاومة مما أدى الى موت قلوب المسلمين وتخاذلهم عن نصرة اخوانهم . ويضيف ابن العسال سببا آخر للمصائب النازلة بالناس ، وهى الذنوب التى لحقتهم من جراء معاصيهم فيقول :-

لولا ذنوب المسلمين وانهم * ركبوا الكبائر مالهن خفاء .

ماكان ينصر للنصارى فارس * أبدا عليهم فالذنوب الداء .

فشرارها لا يختفون بشرهم * وصلاح منتحلى الصلاح رياء .

وهذا السبب الذى يرجع ابن العسال اليه النكبة وهو الاستهتار بالدين والمجاهرة بالكبائر يمثل الداء الحقيقى للنكبات الجماعية ، ويكثر وروده فى شعر رثاء الدول والمدن وخاصة فى الأندلس لكثرة لذاتها المحرّمه .

ولقد كان لهذه الحادثة أثر كبير فى الأندلس قاطبه حيث توجس الناس من امتداد هذا الشر الى باقى الممالك فقد أصبحت بربشتر ثغرا للنورمان داخل الأندلس يسهل عليهم التحرك منه الى حيث شاءوا يقول ابن حيان :(1)
"بلغ خبر استيلاء النورمانيين عليها قرطبة فى رمضان من ذلك العام ، فصك الأسماع وأطار الأفئدة وزلزل أرض الأندلس قاطبة ، وصير لكل شغلا يشغل

---

(1) الذخيرة ، ق ٣ ، ج ١ ، ص ١٨٠ .

الناس فى التحدث به والتساؤل عنه ، والتصور لحلول مثله ، ومن ثم بدأت الجهود تبذل لاستعادتها ، وراح المخلصون من العلماء وغيرهم يحسون الحكام لافتكاكها بالمديح تارة وبالتوبيخ أخرى ، وكان من أشهرهم أبو حفص الهوزنى (١) الذى آلمته النكبة فراح يستحث المعتضد بن عباد أكبر ملوك الطوائف ، وكان صديقه الحميم فبعث اليه بهذه الأبيات :-

أعباد جلّ الرزء والقوم هجع * على حالة من مثلها يتوقع . (٢)

فلق كتابى من فراغك ساعة * وان طال فالموصوف للطول موضع .

اذا لم أبث الداء رب دوائه * أضعت ، وأهل للملام المضيع .

وأردف الأبيات برسالة منها " .... وكتابى عن حالة يشيب لشهودها مفرق الوليد ، كما يخبر لورودها وجه الصعيد . بدؤها ينسف الطريف والتالد ، ويستأصل الوليد والوالد . تذر النساء أيامى ، والأطفال يتامى ..... طمت حتى خيف على عروة الايمان الانفصام ، وطمت حتى خشى على عمود الاسلام الانقصام .... ان حاربوا موضعا أرسلناه أو انتسفوا قطرا سوّغناه ، وان هذا الأمر له مابعده الا أن يسنى الله على يديك دفعه وصده " .

وقد أصم ابن عباد أذنيه عن هذه الرسالة بل اعتبرها نوعا من التوريط لاظهار عجزه وتقاعسه فى الدفاع عن حوزة الاسلام ، أو لكسر هيبته لدى ملوك

---

(١) هو عمر بن الحسن بن عبد الرحمن الهوزنى من أهل اشبيليه . عالم محدث رحل الى المشرق سنة ٤٤٤ هـ . كان متفننا فى العلوم قد أخذ بطرف من كل منها مع ثقوب فهمه وصحة ضبطه ، قتل باشبيلية سنة ٤٦٠ هـ / انظر : ابن سعيد ، المغرب : ١/ ٢٢٤ ، النفح : ٢/ ٩٣ الصله : ١/ ٣٨١ .

(٢) الذخيرة ق ٢ ، ج ١ ص ٨٣ .

الطوائف اذا هو حارب وأخفق . لذلك أرسل للهوزني يحثه على المجيء الى اشبيلية . فلما جاء قبض عليه المعتضد وقتله بيده . (١)

وممن كان له دور في استنهاض الهمم الشاعر السميسر ، يقول موبخا الملوك والمتقاسمين :- (٢)

نادِ الملوك وقل لهم * ماذا الذي أحدثتم ؟

أسلمتم الاسلام في * أسر العدا وقعدتم .

وجب القيام عليكم * اذ بالنصارى قمتم .

لا تنكروا شق العصا * فعصا النبي شققتم .

انه ينعى على هؤلاء الملوك تخاذلهم عن نصرة الاسلام وأهله الذين ساقهم العدو أسارى وفعل بهم الأعاجيب ، ويذكرهم أن القيام بنصرتهم واجبة . وفي الوقت نفسه ينكر على ملوك الطوائف عملهم الشائن وهو الاعتماد على قوة النصارى أعداء الله الأمر الذي فيه مخالفة صريحة لهدى النبي -عليه الصلاة والسلام .

وفي هذه المحنة -أيضا- كتب ابن عبد البر (٣) كتابا وزع على أنحاء الأندلس

---

(١) الذخيره ، ق ٢ ، ج ١ : ص ٨٣ .

(٢) المصدر نفسه ، ق ١ ، ج ٢ ، ص ٨٨٥ .

(٣) هو يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري يكنى أبا عمر ، ولد بقرطبة سنة ٣٦٢ ، ونشأ بها وأخذ عن شيوخها ثم تحول عنها الى شرق الأندلس بلنسية وشاطبة وبها توفي سنة ٤٦٣هـ ، كان يعرف بشيخ علماء الأندلس لسعة حفظه في الحديث . له كتب كثيرة منها الاستيعاب وجامع بيان العلم وفضله / انظر : ابن فرحون ، الديباج المذهب : ٣٦٧/٢ ، عياض ، ترتيب المدارك : ٨٠٨/٤ ، بغية الملتمس : ٤٧٤ .

تعميما للشعور بالمشكلة ، جاء فيه " ..... فما ظنكم معشر المسلمين وقد سيقت النساء والولدان مابين عارية وعريان قودا بالنواصي الى كل مكان طورا على المتون وطورا على البطون ، وشيخة الرجال مقرنين بالحبال مصفدين في السلاسل والأغلال ، مقتادين في الشعور والسبال ، ان استرحموا لم يرحموا ، وان استطعموا لم يطعموا ، وان استسقوا لم يسقوا ، وقد طاشت أحلامهم وذهلت أوهامهم فياويلاه وياقرآناه ويامحمداه " . (١)

ويبدو أن هذه الأصداء قد وجدت من ملوك الطوائف أذنا صاغيه وفي مقدمتهم المقتدر ابن هود الذى شعر بتقصيره الشديد تجاه المدينة وكأنه أراد أن يمحو العار الذى لزمه من جراء ذلك ، فاستنفر الناس للجهاد فتجمع لديه عدد هائل من الفرسان والرماه من مختلف جهات الأندلس وسار بهم الى بربشتر فحاصروها بشدة ودكوا أسوارها ثم اقتحموها وفتكوا بالنصارى النورمان فتكة شديدة جبرت الصدع وأثلجت صدور المسلمين ، وكان استردادها في سنة سبع وخمسين وأربعمائه بعد أن احتلها النصارى تسعة أشهر . (٢)

رثاء طليطله (٣) :-

أما النكبة الثانية التى حلت بالمدن الأندلسيه في هذا العصر ، وكانت

---

(١) الذخيرة : ق٣ ، ج١ ، ص ١٧٦ .

(٢) ابن الكردبوس ، تاريخ الأندلس : ٧٣ .

(٣) مدينة كبيرة حصينة تسمى مدينة الملوك ، كانت عاصمة مملكة القوط قبل فتح المسلمين لها عام ٩٢هـ تقع على ضفة النهر الكبير على مسافة ٩١ كم جنوبى غرب مدريد ، تحدق بها البساتين ، وتخترقها الأنهار ويحيط بها سياج من القلاع المنيعه في مختلف جهاتها . / معجم البلدان ، والروض المعطار تحت كلمة (طليطله) .

نقطة تحول فى التاريخ الأندلسى عامة فهى سقوط مدينة طليطلة الشهيرة بيد الأذفونش ملك قشتاله ، وترجع أهمية هذه المدينة الى كونها من أكبر دول الطوائف بالاضافة الى موقعها الحربى الهام حيث تقع على مشارف الأندلس من الشمال متاخمة لحدود الممالك النصرانية ، فهى بذلك تمثل حاجزا مانعا فى وجه أى عدوان من تلك الجهات فعرفت لذلك بالثغر الأوسط (١) . وقد كانت هذه المنطقة الشاسعة (طليطلة وماتبعها) غنما للبربر من بنى ذى النون بعد سقوط الخلافة الأموية فى الأندلس .

وكان من أبرز حكامها يحيى بن اسماعيل بن ذى النون الملقب بالمأمون الذى أقام فيها حضارة زاهره وبنى القصور الفخمه ومن أشهرها مجلسه المعروف (بالمكرم) (٢) ، غير أنه كان كباقى ملوك الطوائف يدفع الجزية للنصارى مقابل امداده بالمرتزقه ليقاتل بهم جيرانه بنى هود أصحاب سرقسطه وبنى عباد أصحاب اشبيليه واستطاع فى النهاية أن يحتل قرطبة من يد ابن عباد الذى كان قد أخذها من يد بنى جهور بعد أن قضى على حكمهم بخطة دنيئه سنة اثنتين وستين وأربعمائه ووضع عليها ولده سراج الدولة ودخل المأمون قرطبة سنة سبع وستين وأربعمائه دخول الفاتحين ولكنه لم يلبث أن مرض مرضا شديدا ثم توفى فى نفس العام . وفى عهد هذا الحاكم جاء الاذفونش لاجئا الى طليطلة بعد أن تغلب عليه أخوه سانشو واغتصب ملكه ، فأكرمه المأمون اكراما زائدا ربما نعتبره نوعا من الغفلة ، لأن الاذفونش كان فى تلك المدة يدرس أحوال المدينة من جميع نواحيها تمهيدا لاحتلالها فى المستقبل يقول

---

(١) عنان ، دول الطوائف : ٩٤ .

(٢) انظر وصف المجلس فى : الطرطوشى ، سراج الملوك : ٥٤ .

ابن الخطيب : " وسكناه بطليطلة واطلاعه على عوراتها هو الذى أوجب تطلك النصارى بها " وقد كان المأمون يعتمد اعتمادا كبيرا على جهود شيخ الجماعة ابن الحديدى ولا يقطع أمرا دون مشاورته وقد أوصى حفيده الملقب بالقادر أن يشد يديه على ابن الحديدى ويستعين برأيه اذا هو ولى الملك ولكن القادر هذا كان حدثا قليل الخبرة ضعيف الرأى ، فلم تمض فترة قصيرة على حكمه حتى سعى اليه نفر من خاصته بابن الحديدى وأوغروا صدره عليه وأقنعوه بالتخلص منه حتى يكون حاكما فعليا فاستدعاه الى القصر ، وجمع له قوما من الحاقدين عليه ففتكوا به ، وانتهبوا دوره ومايطك .[1][2][3]

ولم يلبث القادر أن أخذ يجنى ثمار جريمته وعقوقه عندما بدأ أولئك الأعيان الحاقدون الذين شاركوه فى الجريمة يحوكون الدسائس ضده ويثيرون الشعب عليه حتى ظهر شبح الثورة فى نواحى البلاد جليا . عندها لجأ القادر الى الاذفونش ملك قشتالة يلتمس حمايته ، فاشتط فى طلب المال ، وطلب بعض الحصون القريبة من الحدود وأخذ بعضها فعلا ، ولكن الثورة فى الداخل اضطرمت ففر القادر بأهله الى حصن من حصونه الشرقية هو

---

(١) أعمال الأعلام : ٢/ ٢٣٠ .

(٢) هو يحيى بن سعيد بن أحمد الحديدى ، يكنى أبا بكر من أهل طليطله ، كان نبيلا متفننا وفصيحا مقدما فى الشورى احتل مكانة عظمى فى دولة بنى ذى النون ، قتله القادر بالله سنة ٤٦٨ هـ . /
انظر الصله : ٢/ ٦٦٩ ، المغرب : ٢/ ١٣ .

(٣) انظر أخبار الحديدى فى الذخيرة ق ٤ ، ج ١ ص ١٥١ .

حصن وبذه[1] وبقيت طليطلة بلا أمير فاستدعى أهل الرأى منهم المتوكل بن الأفطس حاكم بطليوس فقدم الى طليطلة كارها وتولى أمرها الى حين ، وذلك أن القادر أخذ يراسل الاذفونش من ملجئه ويذكره بالأيدى البيضاء التى كانت لبنى ذى النون عليه فاستجاب له الاذفونش وهو فى الحقيقة يضمر فى نفسه الاستيلاء على المدينه ، فقدم اليه فى سرية من فرسانه ففر أمامه ابن الأفطس ورجع القادر الى عرش طليطلة تحت حماية الجيش النصرانى الذى نكل بأهل المدينة ، وأحرق ماحولها من الزروع والثمار واستمر على ذلك فترة طويلة ليضعف المدينة التى كانت من المنعة والحصانة بمكان . وفى هذه الآونة الخطيرة كان موقف ملوك الطوائف مخزيا ومثيرا للألم والحسرة ، فقد أسرع أعظمهم شأنا المعتمد بن عباد الى تقديم ولائه للاذفونش وأرسل اليه وزيره البارع ابن عمّار[2] حيث عقد معه معاهدة سرية تنص على أن يساعد الاذفونش المعتمد ضد الأمراء المسلمين ، مقابل أن يسكت الأخير على أعمال الأول ضد طليطلة ويمده بجزية كبيرة يدفعها بصغار تأباه نفس المسلم ولما شعر الاذفونش أن السبيل تمهد أمامه للهجوم على المدينة ، أخذ استعداده واقترب من المدينة فى سنة سبع وسبعين وأربعمائة وذلك بعد أربع سنوات كاملة من الغارات المتواصلة التى أهلكت الحرث والنسل . ثم أحكم الحصار حولها مدة تسعة أشهر أصاب الناس خلالها من الجوع والجهد واختلاف الرأى ، وانعدام النصير بلاء شديد اضطرهم الى تشكيل وفد لمفاوضة العدو المحاصر

---

(١) حصن بالأندلس على نهر جار بقرب مدينة اقليش ./ الروض المعطار : تحت كلمة (وبذه) .

(٢) عنان ، تراجم اسلاميه : ٢١٣ - ٢١٤ .

وعرضوا عليه شروطا لتسليم المدينة تظاهر بقبولها (١) ومنها أن تسلم المدينة وقصور الحكام وحدائقهم الى الاذفونش ويؤدون اليه ماكانوا يؤدونه لملوكهم من الضرائب ويخرج حاكم طليطلة القادر بالله الى بلنسيه ويتبعه من يشاء وأن يأمن الناس على دمائهم وأموالهم وأن يبقى المسجد الجامع بأيدى المسلمين يقيمون فيه شعائرهم بحرية تامة وغير ذلك . وبعد الاتفاق دخل الاذفونش المدينه فى صفر سنة ثمان وسبعين وأربعمائه ونزل بقصر الحكم وعهد بحكم المدينة الى وزيره الداهيه (سسنندو) الذى عامل الناس باللين حتى استمال قلوب الكثيرين ولكن هذا لم يدم طويلا حيث نقض الاذفونش العهود المبرمة وراح "يأسر ويقتل ويحرق ويمثل وسما السعر ، وتفاقم الأمر ، وأنكرت الموارد والمصادر ، وبلغت القلوب الحناجر ...... وقضى قضاءه باستباحة الحريم ، واستئصال الراحل والمقيم ....." (٢) وطفق أهل طليطلة يستصرخون ملوك الطوائف ، ولكن هيهات أن يستجيب الأموات ، الذين هم فى الحقيقة عمال يحكمون باسم الاذفونش وقد أدى هذا الخذلان الى تمادى النصارى فى تعذيب المسلمين وبدأوا يحولون المسجد الجامع الى كنيسه ويمدون أعينهم الى الممالك المجاورة لطليطله تنفيذا لسياسة الاسترداد الصليبيه التى شجعتها الكنيسه (٣) . وهكذا سقطت طليطلة قاعدة الأندلس الكبرى وخرجت من قبضة الاسلام الى الأبد حيث لم تفلح كل الجهود التى بذلت لاسترجاعها ، ومن ذلك الحين تغدو طليطله عاصمة لمملكة قشتاله .

---

(١) عنان ، دول الطوائف : ١١٣ .

(٢) انظر خبر استيلاء النصارى على طليطله فى الذخيره ق٤ ، ج١ ص ١٦١ - ١٦٣ .

(٣) على الجارم ، قصة العرب فى أسبانيا : ١٦١ - ١٦٣ .

وكان سقوطها يمثل نذير السقوط النهائي لجزيرة الأندلس ، فبدأ النـــاس يفكرون في ايجاد حكم بديل . وبدأت أصوات الشعراء تنطلق محــــذرة بطش العدو الطامع وراثية المدينة الغاربه يقول ابن العسال :- (١)

يا أهل أندلس حثوا مطيكــم * فما المقام بها الا من الغلـط .

الثوب ينسل من أطرافه وأرى * سلك الجزيرة منسولا من الوسط .

ونحن بين عدو لا يفارقنـــا * كيف الحياة مع الحيات في سفط .

وقال آخر بيتين تنحوان هذا المنحى وهما :

يا أهل أندلس ردوا المعار فما * في العرف عارية الا مردات .

ألم تروا بيدق الكفار فرزنـــه * وشاهنا آخر الأبيات شهمات . (٢)

ان صوت ابن العسال هنا يختلف عما ألفناه منه فيماسبق حين كـــان في نكبة بربشتر داعيا الى الجهاد ومحذرا من الغفلة عن مكائد الأعداء . أما هنا فصوته ينطلق بهذه الأبيات التي تشيع جوا من الانهزام واليأس ، فهو بـدل أن يشجع الناس على التمسك والثبات في أوطانهم يدعوهم الى هجرها بـــل والى الرحيل من جزيرة الأندلس كلها لأنها - كمايرى - أصبحت مهــــددة بالسقوط بعد أن حلّ الدمار في وسطها ، والوسط هو أمنع جزء فيهـــا ، أضف الى ذلك أن العدو قد ملك المدينة واستوطنها بالأهل والولـــد ماجعل الحياة مستحيلة في هذه الظروف . ولكن هل يكون علاج المشكلـــة بهذه السلبية (الرحيل) في الوقت الذي يجب فيه على الشاعر أن يتسامــى فوق المصائب ليبعث في النفوس بصيصا من الأمل ؟ اننا اذا أنعمنا النظـــر

---

(١) شهمات : أصلها مات الشاه (أي الملك) يقولها الغالب للمغلـــوب في لعبة الشطرنج ويعني ذلك انتهاء الدور انظر النفح : ٣٥٢/٤ ، الحاشيه .

(٢) المصدر نفســه : ٤٨٣/٤ .

فى الأبيات وربطناها بظروف سقوط طليطله تبينا مقدار الجرح الذى أصاب قلب الشاعر وهو يرى مدينته الحصينة الضخمة تتهاوى تحت معاول الصليبيين وسط الخضم الزاخر من ممالك الطوائف الذين لم يحركوا ساكنا ، فتعمد هذا اللون من التعبير السلبى ليكون أبلغ فى تذكيرهم ، وكأنه يقول تنبأوا بمصيركم مماترون أمامكم من النكبات التى ساهمتم فى حدوثها .

أما صاحب البيتين فهو قد حذا حذو ابن العسال ولكنه أفرط فى التشاؤم ودق ناقوس الخطر بتشبيهه بلاد الأندلس بالعارية المستردة التى حان وقت ارجاعها ولعل الجو النفسى الذى كان يعيشه الناس فى ظلال تلك الحروب والنكبات والنتيجة التى كان يؤكدها منطوق المعارك لعل ذلك هو السبب الذى أدى الى خلود مثل هذه الأبيات .

وقد نقل الينا المقرى قصيدة طويله لشاعر مجهول فى رثاء طليطله يبدأها بقوله :- (١)

لثكلك كيف تبتسم الثغور * سرورا بعد ما سبيت ثغور .
أما وأبى مصاب هد منه * ثبير الدين فاتصل الثبور .
لقد قصمت ظهور حين قالوا * أمير الكافرين له ظهور .
ترى فى الدهر مسرورا بعيش * مضى عنا لطيته السرور .
أليس بها أبى النفس شهم * يدير على الدوائر اذ تدور .
لقد خضعت رقاب كن غلبا * وزال عتوها ومضى النفور .
وهان على عزيز القوم ذل * وسامح فى الحريم فتى غيور .

---

(١) المصدر نفسه : ٤٨٣/٤ .

يمهد الشاعر لقصيدته بهذه الأبيات التي يظهر فيها عظم المصاب الذى ألمّ بالمسلمين بعد سقوط طليطله ، وبدّل سرورهم حزناً ملازماً خيم على أنفسهم حتى انهم يعجبون اذا رأوا سروراً فى هذه الحياة ، وكيف لا ؟ وهم فى ذل وقهر خضعت له أنفسهم الأبيات ، فهان العزيز ، وأغضى على الضيم الغيور . والشاعر هنا يجمل ليبين بعد ذلك بتفجع التحول الخطير الذى وصلت اليه حالة المدينة الكبرى :

طليطلة أباح الكفر منها * حماها ، ان ذا نبأ كبير .
فليس مثالها ايوان كسرى * ولا منها الخورنق والسدير .
محصنة محسنة بعيد * تناولها ومطلبها عسير .
ألم تك معقلاً للدين صعباً * فذلله كما شاء القدير .
وأخرج أهلها منها جميعاً * فصاروا حيث شاء بهم مصير .
وكانت دار ايمان وعلم * معالمها التى طمست تنير .
فعادت دار كفر مصطفاة * قد اضطربت بأهليها الأمور .
مساجدها كنائس ، أى قلب * على هذا يقرّ ولا يطير ؟ .
فيا أسفاه يا أسفاه حزناً * يكرر ماتكورت الدهور .
أديلت قاصرات الطرف كانت * مصونات مساكنها القصور .
وكان بنا وبالقينات أولى * لو انضمت على الكل القبور .
لقد سخنت بحالتهن عين * وكيف يصح مغلوب قرير .

انه لنبأ عظيم يفاجأ به الشاعر ويضطرب له قلبه . ذلك هو سقوط طليطله واستباحتها من قبل جيوش الكفر . ان هذه المدينة العظيمة لم تعد فى نفس الشاعر مجرد مدينة عادية داخل اطار البلاد الاسلامية بل يعتبرها رمزاً كبيراً للحضارة الاسلامية . فهى معقل الدين ، ودار الايمان والعلم التى

يصغر بجانب عظمتها وحسنها ايوان كسرى المشهور وغيره . فكيف حال من يراها وقد تفرق أهلها شذر مذر وسكنها بعدهم الكفار الحاقدون الذين لا يطيقون رؤية المعالم الاسلامية الشامخه فأسرعوا فى تحويل المساجد الى كنائس ولم يتورعوا عن هتك الحرم المصونه ، الأمر الذى يذهب العقل ويطير القلب حتى ان الشاعر لشدة ماتلجلج فى صدره من الأسف والحسره التى لا انقضاء لها يتمنى لو حوت القبور جميع من شاهد هذه المأساة ، لأن الموت أهون من مكابدة هذه الحياة النكداء . ثم يحاول الشاعر تلمس أسباب هذه المصيبة فيدرك أنها عقاب من الله أرسله على الناس عندما طغوا وبغوا وأكلوا الحرام ثم يستغل هذه الفكره لينبّه من حوله ويحذرهم عاقبة الاسراف فى المعاصى فيقول :-

فان قلنا العقوبة أدركتهم * وجاءهم من الله النكير .
فانا مثلهم وأشد منهم * نجور وكيف يسلم من يجور .
أنأمن أن يحلّ بنا انتقام * وفينا الفسق أجمع والفجور .
وأكل للحرام ولا اضطرار * اليه فيسهل الأمر العسير .
ولكن جرأة فى عقر دار * كذلك يفعل الكلب العقور .
يزول الستر عن قوم اذا ما * على العصيان أرخيت الستور .

وبعد أن يزجرهم الشاعر عن الذنوب التى تجرهم الى مصير بئيس ، يهيب بهم - وبحماس - أن يعلنوا حرب الانتقام لفك أسر الاسلام واتباعه الممتحنين بل ويدعوهم الى الموت الكريم بدل أن يجوروا أو يجار عليهم .

خذوا ثأر الديانة وانصروها * فقد حامت على القتلى النسور .
ولا تهنوا وسلوا كل عضب * تهاب مضاربا منه النحور .
وموتوا كلكم فالموت أولى * بكم من أن تجاروا أو تجوروا .

أصبرا بعد سبى وامتحـــان * يلام عليهما القلب الصبــور .

فأم الثكل مذكـــار ولـــود * وأم الصقر مقلات نـــزور .

نخور اذا دهينا بالرزايـــا * وليس بمعجب بقر يخـــور .

ونجبن ليس نزأر ،لو شجعنا * ولم نجبن لكان لنا زئـــير .

لقد ساءت بنا الأخبار حتى * أمات المخبرين بها الخبــير .

أتتنا الكتب فيها كل شـــر * وبشرنا بأنحسنا البشـــير .

ان عاطفة الشاعر قد جاشت حتى بلغت حد الثورة العارمه فراح يحمس الناس على تجريد السلاح وخوض الحرب وينعى على المتخاذلين الذين تذرعوا بالصبر ، وماذا يجدى الصبر ، والمسلمون يقتلون وتسبى نساؤهم وذراريهم ان هذا الصبر ماهو الا نوع من الجبن الذى يجلب النكبات . ثم يشبه الشاعر الأمة عندما يسيطر عليها الجبن بالبقر الذى يخور عند وقع الحوادث ان ثورة نفس الشاعر المستمدة من الواقع المرير الذى يعيشه هى التى جعلته يستعمـل أمثال هذه العبارات اللاذعه "بقر نجور" ، " الكلب العقور" وهو فى حقيقة الأمر محق فى هذا لأنه لا يكاد يسمع بنخوة الشجعان الذين لهم زئير الأسود ولا يكاد يسمع خبرا يبعث فى النفس الأمل المنشود بل غاية ماهنا لك تناقـــل أخبار الهزائم النحسه والفرار وهجر الديار :-

وقيل تجمعوا لفراق شمـــل * طليطلة تملكها الكفـــور .

فقل فى خطة فيها صغـار * يشيب لكربها الطفل الصغير .

لقد صمّ السميع فلم يعـول * على بناء كما عمى البصـــير .

ثم ينتقل صاحب القصيدة الى تصوير مشهد آخر من حال الناس الذيـــن بلغوا من الذل مبلغا عظيما ونحن نحس بالألم القاسى الذى يعانيه الشاعـــر ويدفعنا الى مشاركته اياه وذلك أن الناس قد استمالهم الأعداء ، ورضـــوا

بالخضوع طمعا فى المال واستهانته بالدين :-

تجاذبنا الأعادى باصطنـــاع * فينجذب المخول والفقـير .

فباق فى الديانة تحت خـزى * تثبطه الشويهة والبعـير .

وآخر مارق هانت عليـــه * مصائب دينه فله السعير .

ان الشاعر بالرغم من الحزن والأسى الذى تطفح به نفسه وأبياته فانـــه لا يستسلم لليأس كما فعل غيره بل نراه يثور مدفوعا بالغيرة الاسلامية ، ويصب جام غضبه وتعنيفه على أولئك الذين يزينون للناس الرضى بالواقع المهـــزوم ويدعونهم لفكرة الاستسلام على حساب الحرية والشرف طمعا فى مكاسب دنيئـه يقـــول :-

كفى حزنا بأن الناس قالـــوا * الى أين التحـول والمسير .

أنترك دورنا ونفـرّ عنهــا * وليس لنا وراء البحـور دور .

ولا ثم الضياع تروق حســنا * نباكرها فيعجبنا البكـور .

وظل وارف وخريـر مـــاء * فلا قر هناك ولا حــرور .

ويؤكل من فواكهها طـرى * ويشرب من جداولها نمـير .

يؤدى مغرم فى كل شهـر * ويؤخذ كل صائفة عشـور .

فهم أحمى لحوزتنـا وأولـى * بنا وهم الموالى والعشـير .

لقد ذهب اليقين فلا يقـين * وغرّ القوم بالله الغــرور .

فلا دين ولا دنيا ولكـــن * غرور بالمعيشة ماغــرور .

رضوا بالرق يالله : مـــاذا * رآه وماأشار به مشــير . : :

ان الشاعر فى هذه الأبيات يشعر بالغربة الروحية فى أرضه وبين أولئـــك الناس من بنى قومه وذلك لأنه يحس بأن صوته قد ضاع وذهب بلاصدى أو أثر . فبينما هو يدعو جمهوره الى الجهاد والصمود والموت الكريم اذا بهم يركنـــون

الى حماية النصارى أعداء دينهم ويوالونهم ويدفعون لهم المغارم والعشور مقابل أن يبقوا فى دورهم ليتمتعوا بالضياع الرائقة والماء النمير والفواكه الطرية ولو كانت مغموسة بالذل . ولعل الذى دفع الناس الى هذا العمل هو فقدانهم الثقة بقدرة حكامهم الأقزام على فعل شئ من أجل طليطلة المنكوبة ويذكر المؤرخون أنه كان فى طليطلة جماعة كبيرة من أهلها يميلون الى الأذفونش ويعملون لمصلحته ، وهم الذين دعوه لاحتلال المدينة منذ بدء غزواته لها ، وتسمى الرواية القشتاليه هؤلاء القوم (بالحزب المدجن) (١)
أى الموالى لملك النصارى . ثم يقف الشاعر عند هذه الحالة المؤسفه مطرقا كيف يرضى هؤلاء بالرق وغرهم بالله الغرور ؟ ثم يتبع تعجبه بزفرة حاره حين يقول :

مضى الاسلام فابك دما عليه * فما ينفى الجوى الدمع الغزيز .
ونح واندب رفاقا فى فلاة * حيارى لا تحط ولا تسير .

ولكنه لا يطيل الندب والتحسر لأن ذلك لا يغير من الواقع شيئا وانما الجهاد هو الكفيل برد الحق الى نصابه :

ولا تجنح الى سلم وحارب * عسى أن يجبر العظم الكسير .
أنعمى عن مراشدنا جميعا * وما ان منهم الا بصير .
ونلقى واحدا ويفر جمع * كما عن قانص فرت حمير .
ولو أنا ثبتنا كان خيرا * ولكن مالنا كرم وخير .
اذا مالم يكن صبر جميل * فليس بنافع عدد كثير .

وهو هنا يقارن بين واقع المسلمين وواقع أعدائهم ويعجب من انقلاب الوضع لصالح أعداء الله فهم مصرون بينما الشاعر ورهطه قد عميت بصائرهم والأعداء

---

(١) عنان ، دول الطوائف : ١١٠ .

ثابتون صابرون على الشدائد والآخرون منهزمون (كأنهم حمر مستنفره فرت من قسوره) لا صبر لهم ولا خير فيهم .

والشاعر هنا يستثير من حوله بهذا الأسلوب لعل النخوة والأريحية تدركهم فيهبون لمقارعة الأعداء . ولذلك نراه يتلفت باحثا عن قائد شجاع يحسن قيادة هذه الأمه لأن ذلك يمثل جانبا كبيرا من المشكله . يقول :

ألا رجل له رأى أصيـــل * به مما نحاذر نستجـير .
يكرّ اذا السيوف تناولتـه * وأين بنا اذا ولت كرور .
ويطعن بالقنا الخطار حتى * يقول الرمح ماهذا الخطير ؟ :
يبادر خرقها قبل اتسـاع * لخطب منه تنخسف البدور .
يوسع للذى يلقاه صـدرا * فقد ضاقت بما تلقى صدور .

وفى ختام القصيدة يرينا الشاعر أن حياته قد تكدرت وعيشه فيها قد تنغص ولكنه مع ذلك لا يفقد الأمل فى النصر :

تنغصت الحياة فلا حيـاة * وودع جيرة اذ لا مجـير .
فليل فيه هـم مستكـن * ويوم فيه شر مستطـير .
ونرجو أن يتيح الله نصـرا * عليهم انه نعم النصـير .

وبعد فلقد أدت القصيدة هدفها فى تنبيه الناس وحثهم على الجهاد وبيان قيمة المدينة المرثيه وما لسقوطها من أثر على مابعده من بلاد الأندلس أما أسلوبها فهو سهل سائغ ولا عورة فيه ولا تكلف وقد ابتعد الشاعر عن المحسنات الا ماندر ، كما أنه التزم الواقع وتجافى عن الصور الخيالية لأنه ملتزم بقضية هامة ، فشعره صادق العاطفه ينبع من قلبه وليس لزخرفة اللسان فيه كبير عمل ، وهذا مايتضح من تلون مواقفه ، فهو تارة يبكى طليطله

وماحدث لأهلها وحرمها المصونات ويتفجع على ذلك حتى انه ليتمنى الموت للخلاص من بحسرات قلبه ، وتارة نراه يثور ثورة عنيفة مطالبا بالجهاد وبذل النفوس في سبيل انقاذ المدينة باعتبارها رمزا اسلاميا ولا ينسى من خلال ذلك أن ينهال على المتقاعسين والجبناء بسياط التوبيخ والتقبيح فيصفهم بالبقر الذى يخور وبالحمر المستفزه وهى من الأوصاف البليغة للعجز والفرار التى تدافع من وصم بها الى التخلص منها بفعل مادعا اليه الشاعر .

وفى بعض أجزاء القصيدة نجد الشاعر يسرد علينا الأخبار التاريخية وأخبار الناس وأحوالهم بأسلوب قصصى يقترب فيه من النثر . ولعل الشىء المستغرب فى القصيدة أنها على طولها - لم تتعرض للتفاصيل الدقيقة فى احتلال المدينة ومافعله الصليبيون بأهلها . وربما كان هذا لاشتغاله بأمور أهم من ذلك وأخطر .

والملاحظ أنه لا يوجد فى رثاء طليطله - على عظمها - من الشعر الا هذه القصيدة ، ويمكن أن نعزو ذلك الى أن الحرب لم تنته بعد ، وأن الأمل لا يزال واردا فى استردادها ، ولو درى شعراؤها أنها ستذهب الى الأبد وتصبح معقلا للعرب المنتصرين لرأينا سيولا من الدموع والمشاعر الانسانية الحزينه التى تظل ترثى كل بقعة من بقاعها ، وتتحدث عن كل ماهو جميل من خصالها .

أما بالنسبة لقائل هذه القصيدة فلم يتعرض أحد من الباحثين لذكـــــر اسمه أو البحث عن شخصيته (١) . ولعلـه الشاعر أبو الوليد الوقشى ، فهـــــو من أهل طليطلة وشهد نكبتها حيث يذكر أنه كان بها فى منتصف القـــــرن الخامس الهجـرى (٢) .

---

(١) هو هشام بن أحمد بن هشام الكنانى يعرف بالوقشى ، من أهل طليطلة يكنى أبا الوليد ولد سنة ٤٠٨ هـ . كان شاعرا مجيدا ، وأحد رجـــال الكمال فى وقته باحتوائه على فنون المعارف ، وجمعه لكليات العلـــوم من أعلم الناس بالنحو واللغه والعروض ومعانى الأشعار ، بصيرا بأصـــول الاعتقادات والفقـه ، واقفا على كثير من فتاوى فقهاء الأمصار توفى سنـة ٤٨٩هـ / انظر الصله : ٢/٦٥٣ ترجمة رقم ١٤٣٧ .

(٢) ابن الأبار : التكملـه : ٢/٨٢٢ .

رثـاء بلنسيه :- (١)

كانت بلنسية ومايتبعها من المناطق تتبع مملكة طليطله طيلة حكم المأمون بن ذي النون ، وكان قد وضع عليها واليا من قبله يعرف بأبي بكر محمد بن عبد العزيز وكان عالما حازما ضبط المدينة بالعدل وأجزل العطاء للجند والعمال . ثم استغل فرصة موت المأمون وتولي القادر بالله حكم طليطله وقيام الثورات الداخلية ضده فأعلن استقلاله بحكم بلنسيه . ولما سقطت طليطلة بيد القشتالين سنة ثمان وسبعين وأربعمائه وعد زعيمهم الاذفونش القادر بالله أن يوليه بلنسية التى كان ينازعه الأطماع فيها المستعين بن هود وبالفعل أرسل الاذفونش مع القادر سرية من الجند القشتالى تحت امرة القائد البرهانس حتى اذا وصلوا بلنسية أرسل القادر رسائله الى أهلها وفيها الوعود المعسوله ..... وانتهى الأمر بموافقة أهل المدينة على دخول القادر حاكما ، وخلع ابن عبد العزيز ومالبث القادر أن أبدى صولة الجبان الضعيف اذا تحكم ففرض على المدينة حكم طغيان شامل واشتد فى فرض الضرائب على الناس لارضاء مطالب الجنود القشتاليين الذين أخذوا يعيثون فسادا فى المدينة ، ويرهقون الأغنياء والأعيان بالمغارم حتى اضطروا

---

(١) مدينة مشهورة وقاعده من قواعد الأندلس ، تقع شرق قرطبه على نهر جار يسقى المزارع والبساتين التى تحف به ، وبينها وبين البحر ثلاثة أميال فهى برية بحريه جامعة لخيراتهما ، كانت تعرف بمدينة التراب وأهلها يسمون عرب الأندلس . / انظر معجم البلدان (بلنسية) والروض المعطار تحت نفس الكلمه .

(٢) الحجى ، التاريخ الأندلسى : ٣٦٨ .

(١)
الى الفرار من بلنسيه نجاة بأنفسهم . وفى هذه الأثناء كانت جيوش المرابطين قد وصلت الى الأندلس لاغاثة المسلمين ، وحطمت قوة النصارى القشتالين فى معركة الزلاقة المشهوره . على ماسنذكره فى فصل قادم - فتنفس أهل بلنسية الصعداء الى حين ،ذلك أن سياسة القادر الخرقاء أدت الى نشوب الاضطرابات فى مختلف نواحى البلاد وأعلن كثير من حكام الحصون العصيان . عندها شعر القادر أنه عاجز عن السيطرة على الموقف فاستنجد بالمستعين ابن هود صاحب سرقسطه المجاور لبلنسيه ، وكان المستعين يتوق الى افتتاح بلنسيه وضمها الى مملكته فلبى النداء مسرعا ولكنه لم يكن وحده بل كان
(٢)
يرافقه جيش قشتالى بقيادة السيد القمبيطور صديق المستعين وصديق أبيه وجده من قبل وكان هذا الفارس المغامر يعد من أشهر الفرسان وأوسعهم ذكرا عند الأسبان ، حيث صاغوا فى بطولاته الملاحم والقصص والأساطير الخيالية . وهو فى حقيقة أمره زعيم عصابة للنهب والسلب يؤجر نفسه ومن معه لمن يدفع له أكثر سواء كان من المسلمين أو النصارى ، ولعل شهرته ظهرت من مغامراته ببلنسية وربطه مصيره بها حتى هلك فى سبيلها ،وعندما وصل السيد والمستعين الى بلنسية أخمدا مابها من القلاقل وأرادا احتلال

---

(١) عنان ، دول الطوائف : ٢٢٨ .

(٢) اسمه الأصلى رود ريجو ديازدا فيفار ، يلقب بالقنبيطور وتعنى (المحارب) ولد فى مدينة برغش عاصمة مملكة قشتاله وكان أبوه قاضيا لها سنة ١٠٤٣م ، بدأ حياته فى خدمة ملوك قشتاله ثم قدم الى بلنسية وتملكها حتى هلك سنة ٤٩٣هـ . ويرد فى المصادر العربية بلفظ رذريق الكنبيطور ، والسيد القمبيطور / انظر . دائرة المعارف الاسلاميه ، (السيد) .

المدينة ، ولكن القادر اتصل بالسيد سرا ووعده بمبلغ كبير من المال مقابل حمايته له من سائر أعدائه فقبل ذلك وخابت بذلك آمال صديقه المستعين ورجع الى بلده سرقسطه ليبحث عن نصير آخر . عندها بدأ السيد بالتفكير فى امتلاك بلنسيه فأرسل الى سيده الاذفونش ملك قشتاله يخبره أنه ومن معه رهن اشارته وأنهم يحاربون " الكفرة " لارجاع مجد الصليب[1] ، وذهب السيد نفسه الى هناك تأكيدا للولاء ، فأقره الملك وأذن له أن يجول بفرسانه كيفما شاء فى أرض المسلمين بل جعل له ماينتزعه منهم من الأرض ميراثا شرعيا لأولاده من بعده ، فعاد السيد من قشتالة وبصحبته سبعمائة فارس وأخضع ماحولها من الامارات من الشمال والجنوب وفرض على أصحابها مبالغ ضخمة من المال كجزية سنويه ، ثم زحف الى بلنسية وعسكر فى ضاحيتها الشماليه المعروفه " بالكدية " فبادره القادر بالأموال والهدايا ووضع نفسه تحت حمايته ، وتطورت الأمور باقتراب جيش المرابطين من سرقسطه وطلب صاحبها المستعين بن هود النجده من السيد فتوجه هذا اليها ومكث فيها يرتب أمورها ويخطط لملاقاة المرابطين يقول ابن بسام[2] : " ولما أحس أحمد بن يوسف بن هود المنتزى الى وقتنا هذا على ثغر سرقسطه ، بعساكر أمير المسلمين تقبل من كل حدب ، وتطلع على أطرافه من كل مرقب ، آسد كلبا من أكلب الجلالقة ، يسمى برذريق ويدعى بالكنبيطور ، وكان عقالا ، وداء عضالا له فى الجزيرة وقائع ، وعلى طوائفها بضروب المكاره اطلاعات ومطالع " .

---

(١) عنان ، دول الطوائف : ٢٣٦ .

(٢) الذخيرة ، ق٣ ، ج١ ص٩٥ .

أدى اقتراب المرابطين من شرق الأندلس الى سريان روح الثورة عند أهل بلنسيه فقرروا تحطيم قيد الذل والاستعباد الذى فرضه السيد على المدينة وذلك بالتخلص من السيد والقادر معا وتزعم القاضى ابن جحاف (١) الثوره وقبض على القادر وقتله واستولى على ذخائره وجلس مكانه سنة خمس وثمانين وأربعمائه ، بانتخاب من أهل المدينة ، فأخذ فى حشد الجند وتحصين المدينة واتصل بالمرابطين طالبا عونهم فأمدوه بسرية من جندهم (٢) استعز بها وقويت شوكته . ولما علم السيد بالأمر الخطير جمع قواته وتوجه الى بلنسيه وضرب الحصار حولها وأخذ يحرق ويدمر الضياع والزروع التى حولها ، وقاومته قوات ابن الجحاف المكونه من المرابطين والبلنسيين فلم يستطع اقتحام المدينه ولكنه بقى محاصرا لها مدة عشرين شهرا حتى فتك الجوع بالناس وبلغ بهم الضيق منتهاه حتى أكلوا الجلود والجيف واستحكم الوباء فأفنى عددا كبيرا من الناس ، فاجتمع عندئذ من بقى الى القاضى ابن جحاف وأرغموه على اللجؤ للصلح فوقع الاتفاق بين الطرفين على أن (٣) يبقى القاضى حاكما للمدينة ويؤمن جميع أهل بلنسية على الأنفس والأموال والشرائع والأحكام مقابل أن يؤدى الجزية السابقه مع تسليم ذخائر القادر

---

(١) هو أبو أحمد جعفر بن عبد الله بن جعفر بن جحاف . رئيس بلنسيه وآخر قضاتها من بنى جحاف أحرقه القنبيطور - لعنه الله - سنة ٤٨٨هـ بعد احتلاله بلنسيه . انظر : بغيه الملتمس : ترجمة رقم ٦١٥ . الذخيره : ق٣ ج١ ص٩٩ . الحلة السيراء : ٢/١٢٥-١٢٦ .

(٢) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام : ٢/٢٠٣ .

(٣) عنان ، دول الطوائف : ٢٢٤ . وانظر تفاصيل الاستيلاء على بلنسيه فى البيان المغرب : ٣/٣٠٥ ومابعدها .

التى كانت عند ابن الجحاف . وفى سنة ثمان وثمانين وأربعمائه فتحت بلنسيه أبوابها للسيد وجنده وسرعان ما احتلوا أبراجها وجلس السيد فى القصر وبدأ بنقض شروط المعاهده وأخذ يعيث فى نواحى البلاد ويشتط على القاضى بطلب الأموال ثم اتهمه باخفاء أموال القادر وذخائره وهدده ان وجدها بالقتل ، وبعد البحث ، زعموا أنه عثر عليها فقبض على القاضى وعذبه عذابا شديدا ثم أضرم له نارا وأحرقه حيا "فأضرم هذا المصاب الجليل أقطار الجزيرة يومئذ نارا ، وجلل سائر طبقاتها خزيا وعارا"(١) . ثم مال بعد ذلك على المسلمين بصنوف التعذيب والمغارم حتى غادرها كثير من أهلها واحتل النصارى دورهم وأحياءهم وغدا السيد باستيلائه على بلنسيه حاكم شرقى الأندلس كله الى أن مات سنة ثلاثه وتسعين وأربعمائه وتولت بعده زوجته (خمينا) التى لم تستطع الصمود أمام جيش المرابطين فأحرقت المدينة قبل تسليمها سنة خمس وتسعين وأربعمائه فدخلها المرابطون بقيادة الأمير مزدلى(٢) بعد أن أصبح معظمها أطلالا دارسه . وفى هذا الحادث يقول ابن خفاجه(٣) :

---

(١) الذخيره ، ق٣ ، ج١ ص٤٤ .

(٢) هو أبو محمد مزدلى بن تلكان اللمتونى البربرى ، ابن عم أمير المسلمين يوسف بن تاشفين . كان من أبرز قادة المرابطين وولاتهم . ولى تلمسان سنة ٤٩٧ هـ ثم تولى قرطبه وغرناطه والمريه الى أن توفى سنة ٥٠٨ هـ . انظر الذخيره ق٣ ج١ ص١٠١ ، البيان المغرب ، ٤/٦٠ .

(٣) هو أبو اسحاق ابراهيم بن أبى الفتح بن عبيد الله بن خفاجه ، ولد فى جزيرة شقر من أعمال بلنسيه سنة ٤٥١ هـ وكانت أسرته على جانب من اليسار مكنه من طلب العلم ومجالسة الشيوخ فى مختلف مدن الأندلس وبخاصة شاطبه ومرسيه وبلنسيه غلب عليه الأدب والشعر حتى أصبح من الفحول . وقد ولع بشعر الطبيعة والأزهار حتى لقب بالجنان . وكان لا يتكسب بالشعر مدح كثيرا من أمراء المرابطين اعجابا بهم وتقديرا لشجاعتهم / انظر : قلائد العقيان : ٢٦٦ ، بغية الملتمس : ٢٠٢ ، رضوان الدايه ، ابن خفاجه : ٢٦ - ٢٨ .

عاثت بساحتك العدى يادار * ومحا محاسنك البلى والنار .

فاذا تردد فى جنابك ناظر * طال اعتبار فيك واستعبار .

أرض تقاذفت الخطوب بأهلها * وتمخضت بخرابها الأقدار .

كتبت يد الحدثان فى عرصاتها * لا أنت أنت ولا الديار ديار .(١)

يقف ابن خفاجة وقفة حزينة بساحة مدينته التى ذهبت محاسنها بفعل ماسلطته الأقدار عليها من التدمير والاحراق حتى خربت وأصبحت عينه تنكرها لتغير شكلها ولونها وهو فى وقفته بهذه الأبيات القليلة - ان لم تكن جزءا من كثير لم يصلنا - لا يتفجع على المدينة ولا يصور ماحل بها وهو شاعر الوصف ، وانما يردد ناظريه فى عرصاتها المدمره بخشوع وسكون معتبرا بذلك وداعيا الى الاعتبار ، كما أنه لم يسجل موقف قاضيها فى الدفاع عنها وكيف كان مصرعه المروّع بسبب " شدة صبره على تلك الأزمة ، واجتهاده فى طلب النصره ..... رجاء استمساك البلدة وابقاء الكلمة ." (٢) ولعل شاعرنا قد هاله الأمر وأذهله فرجع الى العقل بدل العاطفه كما يمكن القول ان حياة ابن خفاجه المترفه وعيشه الناعم كان لها تأثير كبير فى شعره فنراه لا يجارى عندما يصف الأشجار والأزهار والأنهار ، أو يتغنى بمغانى بلنسيه وجمالها ، أما الرثاء الذى لم يعتده فجاء سلبيا متعثرا ، وكثير من الشعراء يجيد فى جانب ويخفق اذا انتقل الى آخر . ولذلك نرى ابن خفاجه نفسه عندما يسمع بارجاع بلنسيه الى الاسلام على يد المرابطين يقول قصيدة

---

(١) ديوان ابن خفاجه : ٣٥٤ . والعجز الأخير لأبى تمام وبقيته "خف الهوى وتولت الأوطار" / ديوانه : ٢/ ١٦٦ .

(٢) البيان المغرب : ٤/ ٣٧ .

رائعـه منها (١) :-

الآن سح غمام النصر فانهمـلا * وقام صغو عمود الدين فاعتدلا .

ولاح للسعد نجم قد خوى فهوى * وكرّ للنصر عصر قد مضى فخلا .

من عسكر رجفت أرض العدو بـه * حتى كأن بها من وطئه وهلا (٢) .

مابين ريح طراد سميت فرسـا * جورا وليث شرى يدعونه بطلا .

من أدهم أخضر الجلباب تحسبه * قد استعار رداء الليل فاشتملا .

واشقر قانئ السربال ملتهـب * قد جال يوقد نار الحرب فاشتعلا .

الى أن يقول :

وأقشع الكفر قسرا عن بلنسيـة * فانجاب عنها حجاب كان منسدلا .

وطهر السيف منها بلدة جنبا * لم يجزها غير ماء السيف مغتسلا .

فى موقف يذهل الخل الصفى به عن الخليل وينسى العاشق الغزلا .

ترى بنى الأصفر البيض الوجوه به * قد راعها السيف فاصفرت له وجلا .

وفى احراق بلنسيه قال الأستاذ ابن خلصة البلنسى (٣) :-

وروضة زرتها للأنس مبتغيـا * فأوحشتنى لذكرى سادة هلكوا .

تغيرت بعدهم حزنا وحق لها * مكان نوارها أن ينبت الحسـك .

لو أنها نطقت قالت لفقدهـم * "بان الخليط ولم يأووا لمن تركوا" (٤) .

---

(١) ديوانه : ٢٠٨ - ٢٠٩ .

(٢) الوهل : الفزع . الصحاح ماده (وهل) .

(٣) هو أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن خلصة الشذونى ، من النحويين المتصدرين ، والشعراء المجودين أخذ عن ابن سيده / انظر : جذوة المقتبس : ٥٤ ، بغية الوعاة : ١/ ١٠٠ .

(٤) تضمين من زهير ، وعجز البيت : "وزودوك اشتياقا أية سلكوا" ديوانه : ١٦٤ .

والملاحظ على مقطوعة ابن خلصه ، وقبلها مقطوعة ابن خفاجه ورود التضمين فى أحد أشطرها وهو مما ناسب المقام من شعر فحول المشرق كزهير وأبى تمام وذلك اظهار لسعة ثقافة الشاعر واطلاعه على شعر المشرق الذى كان يعتبره الأندلسيون هو الأصل ، وينظرون اليه باعجاب كبير ، كما أن أسلوب الشعر الأندلسى فى القرن الخامس ومابعده كان شديد التركيز على التضمين والاقتباس ، والأمثال ، والصنعة البلاغيه بحيث تقاس جودة القصيدة بماحوت من ذلك . والواقع أن ماوصلنا من الشعر فى رثاء بلنسيه فى هذه الحادثه قليل جدا بالرغم من كثرة شعرائها ، ولعله قد ضاع فى وسط ذلك المعترك المضطرم ، والقسوة البالغة التى كان يتبعها القمبيطور فى معاملة أهلها . ثم تأتى نكبة بلنسية الثانيه التى أصبحت بعدها مدينة نصرانيه فى منتصف القرن السابع الهجرى . وذلك بعد أن عاشت ردحا من الزمن فى كنف المرابطين نعمت خلاله بالأمن والاستقرار والرخاء . واستمرت على هذه الحال مايقرب من قرن خلال حكم الموحدين الذين قضوا على حكم المرابطين فى المغرب سنة احدى وأربعين وخمسمائه ودانت لهم الأندلس تبعا لذلك[1] وقد اعتنى الموحدون بالأندلس عناية فائقة فحكموها بواسطة حكام من أهلها ينوبون عنهم ، ووفروا لهم قوة دفاعية كافية . كما كان الخلفاء الموحدون يجوزون بأنفسهم على رأس الجيوش الضخمه من مراكش الى الأندلس لتأديب النصارى عندما يعتدون على الأراضى الأندلسيه ومن أبرز ذلك ماقام به الخليفة أبو يوسف يعقوب الملقب بالمنصور - ثالث الخلفاء الموحدين - فى سنة احدى وتسعين وخمسمائه حيث توجه الى الأندلس بجيش كبير ليدفع عنها عادية القشتاليين الذين أخذوا يشنون الغارات على

---

(١) الحلة السيراء : ٢/١٩٩ .

نواحى الأندلس وبخاصة منطقة اشبيليه عاصمة الأندلس آنذاك ، والتقى الجمعان عند حصن (الأرك) (١) وكان القشتاليون بقيادة طكهم الفونش الثامن الذى جمع جموعا لم يجتمع له مثلها قط حتى ساءت ظنون الجيش الموحدى لما رأى من كثرة العدد (٢) . يقول الضبى عن هذا الجيش (٣) : " ينيف على خمسة وعشرين ألف فارس ومئتى ألف راجل ، وكان معه جماعات من تجار اليهود قد وصلوا لاشتراء أسرى المسلمين وأسلابهم وأعدوا أموالا ، فهزمهم الله تعالى " . واشتبك الطرفان فى معركة فاصله أخلص الموحدون فيها النيه وثبتوا ثبات الشم الرواسى فمنحهم الله النصر فقتلوا من الكفار ثلاثين ألفا (٤) وفر الباقون مع قائدهم . وكانت هذه المعركة من أيام الاسلام المشهودة التى أعادت أمجاد الجهاد القديمه ، ولبثت القوات القشتاليه بعدها عدة سنوات صامته تتهيب لقاء الموحدين . ولم يلبث المنصور أن توفى سنة خمس وتسعين وخمسمائه وخلفه ولده الشاب محمد الناصر لدين الله الذى شغل عن الأندلس مايقرب من اثنتى عشرة سنة فى مقاومة الثورات التى قامت ضده فى المغرب (٥) فور ارتقائه عرش الخلافة مما دفع النصارى الى التفكير فى

---

(١) حصن منيع بالقرب من قلعة رباح ، وهو أول حصون الادفونش بالأندلس يقع على أحد فروع نهر آنه وتقوم اليوم على انقاضه كنيسه تعرف بكنيسة القديسه مريم صاحبة الأرك . / الروض المعطار : (الأرك) ، عنان عصر المرابطين .

(٢) المراكشى ، المعجب : ٣٥٨ - ٣٥٩ / والموحدين فى المغرب والأندلس: ٢٠٣/٢ .

(٣) بغية الملتمس : ٤٥ - ٤٦ .

(٤) الروض المعطار : تحت كلمة (الأرك) ، ابن أبى زرع : الأنيس المطرب : ١٥٦ .

(٥) عنان ، عصر المرابطين والموحدين : ٢٨٣/٢ .

فى غزو الأندلس ليردوا اعتبارهم وكرامتهم التى ديست فى معركة " الأرك " ، وبالفعل سار الفونش الثامن بجيشه نحو جيان (١) وبياسه فقتل وسبى وأهلك الزرع والضرع ، وكرر هذا الفعل سنتين متواليتين غير مكترث بقوة الأندلسيين الضعيفه ، فكان لابد لهؤلاء من الاستغاثة بالخليفة الناصر الذى انزعج لسماع هذه الأخبار وأعد على الفور جيشا عرمرما قاده بنفسه وعبر به البحر الى الأندلس حيث استقر فى اشبيليه فى آخر سنة سبع وستمائه وأخذ فى استنفار الحشود الأندلسيه وضمها الى جيشه حتى اجتمع لديه جيش لم يجتمع لحاكم مسلم قبله قط . قيل ان تعداده بلغ خمسمائه الى ستمائة ألف مقاتل (٢) " واهتزت جميع بلاد الروم بجوازه ، ووقع خوفه فى قلوب ملوكهم وأخذوا فى تحصين بلادهم ، واخلاء ماقرب من المسلمين من قراهم وحصونهم وكتب اليه أكثر أمرائهم يسألون سلامته ويطلبون منه عفوه (٣) " . وفزع الفونش الثامن ملك قشتاله الى البابا (انوصان الثالث) الذى كان يضطرم حقدا على المسلمين فبعث رسله من القسس والرهبان الى مختلف ملوك أوروبا من البرتغال الى القسطنطينيه يدعوهم الى حرب صليبيه فأجابوا دعوته وجمعوا مايقرب من سبعين ألف مقاتل مددا لجيوش الأسبان النصرانيه التى كانت

---

(١) جيان : مدينة فى وسط الأندلس موصوفه بالحصانة لوقوعها فى سفح جبل عالى ، كثيرة الجنات والمزارع ، ويتبعها آلاف من القرى تشتهر بتربية دود الحرير وينتمى الى جيان جلة من العلماء / الروض المعطار : (جيان) .

بياسه : بينها وبين جيان عشرون ميلا ، على النهر الكبير المنحدر الى قرطبة ، وهى مدينة ذات أسوار وأسواق ومتاجر وزراعات / المصدر نفسه (بياسه) .

(٢) السلاوى ، الاستقصا : ١ / ١٩١ .

(٣) الأنيس المطرب : ١٥٥ .

تتألف من جيوش مملكة قشتاله ، ومملكة أراجون ومملكة ناقارا كما جاءت النجدات أيضا من الصليبيين الذين كانوا قد توجهوا الى الشرق الاسلامى فيما نسميه بالحملات الصليبيه التى تزامنت مع هذه الأحداث (١) . وفى سنة تسع وستمائه التقى الجيشان فى موضع يعرف ب (العقاب) (٢) ودارت بينهما معركة حاميه رجحت فيها كفة الموحدين فى البداية ولكن تغير مجراها فى النهاية لصالح النصارى ، وانجلت عن عشرات الآلاف من القتلى ، وتمزق الجيش الموحدى شر ممزق وفر الخليفة الناصر بمن بقى معه بعد أن كان واثقا كل الثقة بالنصر لكثرة جيشه وعتاده . وأخذ النصارى يطاردون الفارين ويوقعون فيهم أشنع ضروب السفك والتقتيل حتى فنى أكثرهم ولقد كانت هذه الهزيمة المروعه التى لم يقع مثلها فى تاريخ الأندلس كله وبالا وشؤما ينذر بسقوط دولة الموحدين وغروب شمس الأندلس ، وقد تحدث المؤرخون عن أسباب هذا الانهزام (٣) وأفاضوا فى ذلك ، ومهما تكن تلك الأسباب والمبررات فقد اغتم الناصر غما شديدا (٤) أودى بحياته فى العام التالى للهزيمة . وقد تردد صدى هذه الوقعة وما ستجره على الأندلس نتائجها فى الشعر آنذاك فقال ابراهيم بن الدباغ الاشبيلى : (٥)

---

(١) البيان المغرب : ٣/ ٢٤٠ - ٢٤١ .

(٢) منطقة جبلية بالأندلس بين جيان وقلعة رباح وفى قمتها حصن يعرف بحصن العقاب . / الروض المعطار (جيان) الأنيس المطرب : ١٥٩ .

(٣) المراكشى ، المعجب : ١٨٣ - ١٨٥ .

(٤) الحلل الموشيه : ١٢٢ .

(٥) نفح الطيب : ٤/ ٤٦٤ . ولم أعثر له على ترجمه .

وقائلة أراك تطيل فكـــرا * كأنك قد وقفت لدى الحســـاب .

فقلت لها أفكر فى عقـــاب * غدا سببا لمعركـــة العقـــاب .

فما فى أرض أندلس مقـــام * وقد دخل البلا من كل بـــاب .

ولقد صدق حدس الشاعر بدخول أنواع البلاء الى الأندلس ، فلما توفـــى الخليفة الناصر بويع ولده يوسف المستنصر وكان فتى لم يجاوز السادســـه عشره من عمره فعكف على اللذات وأضاع الحزم فى تدبير الملك وفوض الأمـــور الى غير أهلها (١) فاضطربت الأندلس وماجت بالفتن والحرب الأهليه بين الموحدين المتنافسين على السلطه وبين أبناء الأندلس أنفسهم أيضا وعادت الى الصـــورة التى كانت عليها أيام حكم ملوك الطوائف فتهيأ المجال للنصارى لكى يستثمروا نصرهم فبدأوا باحتلال الحصون والمناطق الاسلامية . فى غرب الأندلس تمهيدا لاحتلال القواعد الكبرى وشجعهم على ذلك توالى الخلفاء الضعاف علـــى عرش الدولة الموحديه الذين لم يستطيعوا السيطرة على بلادهم نفسهـــا ناهيك عن الأندلس التى فسدت ادارتها وأصبحت المناصب تباع وتشـــرى بالأموال والرشاوى ، وكان الذين يشترونها يمتصون دماء الناس بشراهه ،" فليس عجيبا أن يصبح الصياد أو الحائل بين عيشة وضحاها وزيرا أو أمـــيرا " (٢)

وفى تصوير هذه الحاله يقول الكاتب أبو عبد الله الفازازى :- (٣) .

الروم تضرب فى البـلاد وتغنم * والجور يأخذ مابقى والمغرم .

والمال يورد كله قشتالـــة * والجند تسقط والرعية تسلم .

وذوو التعين ليس فيهم مسلم * الا معين فى الفساد مسلـم .

أسفى على تلك البلاد وأهلها * الله يلطف بالجميع ويرحـــم .

---

(١) تاريخ ابن خلدون (العبر) : ١٦٩/٧ .
(٢) ابن سعيد المغربى ، القدح المعلى : ١٤٣ .
(٣) نفح الطيب : ٤٦٧/٤ .

وقيل ان هذه الأبيات وجدت فى جيب صاحبها يوم موته ، ولما وقف عليها سلطان بلده قال بعدما بكى : صدق رحمه الله ، ولو كان حيا لضربت عنقه وهذا يدل على أن الحكام أنفسهم كانوا يعلمون الحالة المترديه التى وصلت اليها أمور الأندلس ، ولكنهم من جهة أخرى لا يسمحون لأى صوت ناقد أو معارض خوفا من ثورة جمهور الناس ضدهم . ولقد رسم قائل هذه الأبيات صورة صادقة لحالة البلاد والحكام الظالمين مع العدو وفى ظلم الرعية التى أهلكتها المغارم وعصفت بها المجاعات ولا غرو أن تكون الأبيات على درجة كبيرة من التأثير لأن صاحبها قد مارس السياسه وعايش الحكام فقد كان أحد كتاب الخليفه الموحدى الناصر . (١)

وفى الوقت الذى كانت فيه أحوال الأندلس تتردى وتشملها الفوضى المدمره كانت أحوال ملوك النصارى المنتصرين على خير مايرام من الانسجام والتفاهم ، فاتفقوا على أن يسيطر كل واحد منهما على منطقة من الأندلس ويتحكم فى مصيرها فكان نصيب فرناند و الثالث ملك قشتالة وسط الأندلس وغربها ، ونصيب خايمى الأول ملك أراجون شرق الأندلس . فقام الأول سنة ثلاث وثلاثين وستمائه بمحاصرة قرطبه التى لم يكن عليها أمير بعد أن ثار شعبها بواليهم السيد أبى الربيع الموحدى وقتلوه ، ودام الحصار بضعة أشهر انتهى بتسليمها بعد مقاومة شديدة من أهلها كلفتهم الكثير من الدماء والضحايا . (٢) واضطروا بالتالى الى تركها وخناجر الحزن تنغمس فى قلوبهم كلما نظروا الى الصليب الضخم الذى علق على مئذنة جامعها الأعظم أو الاحتفالات الدينيه الصليبيه التى أقامها النصارى فى رحابه بعد أن أصبح

---

(١) عنان ، عصر المرابطين والموحدين : ٢/ ٣٢٦ .

(٢) أشباخ ، تاريخ الأندلس : ٤٣٠ (الترجمه العربيه) .

كنيسه ، ولا نجد تفاصيل فى كتب التاريخ عن كيفية احتلال قرطبه ، كما لا نجد قصائد رنانه فى رثائها ، ولعل ذلك راجع لقلة شعرائها وكتابها فى ذلك الوقت . أما خايمى الأول فقد اتجه الى افتتاح جزائر الأندلس الشرقيه ليصل الى مدينة بلنسية عاصمة تلك النواحى ، فتقدم فى سنة خمس وثلاثين وستمائه وحاصر حصن أنيشة (١) المنيع الذى يعتبر خط الدفاع الأول عن بلنسيه ودافع عنه البلنسيون دفاعا بطوليا بقيادة أميرهم أبى جميل زيان بن مدافع بن مردنيش الجذامى ولكنهم أصيبوا بهزيمة شنيعه فى النهايه ، وقتل منهم عدد كبير كان من جملتهم جماعة من علماء بلنسيه وصلحائها ، واستولى النصارى على الحصن وأصبح مركزا هاما لهم يغيرون منه على بلنسيه التى انهارت قواها الدفاعيه وأصبحت وشيكة السقوط . وفى السنة التاليه لسقوط الحصن نظم ملك أراجون قواته ، وتلقى تشجيعا من البابا جريجورى التاسع يحضه على سرعة مهاجمة بلنسيه وأمده بالآف من المتطوعة الفرنسيين والبرشلونيين حتى بلغت قواته المشتركه فى حصار بلنسيه عشرة آلاف فارس وستين ألف راجل (٢) ، فضيق الخناق على المدينة بشده وضربها بالآلات المدمره فرأى أميرها الاستنجاد بدولة بنى حفص الفتيه التى قامت فى المغرب أثناء احتضار الدوله الموحديه وأرسل الى أميرها كاتبه الشهير ابن الأبار الذى أنشد بين يديه قصيدة رائعه سنعرض لها فى فصل الاستصراخ ، واستجاب الأمير الحفصى للنداء (٣) وبعث أسطولا مشحونا بالأسلحة والأطعمه والأموال ولكنه جاء متأخرا فلم يستطع الوصول الى المدينة لشدة الحصار البرى والبحرى فعاد

---

(١) أنيشه : موضع على مقربه من بلنسيه ، يبعد سبعة أميال عن شمالها وحصن أنيشه على جبل معترض عال على البحر والصعود اليه صعب جدا ويشرف على مرج بلنسيه وحدائقها / الروض المعطار : (أنيشه) .

(٢) عصر المرابطين والموحدين : ٢/٤٤٤ .

(٣) النفح : ٤/٤٦٠ .

الى افريقيه بعد أن أفرغ حمولته فى ثغر دانيه(١) بعيدا عن منطقة الحصار ، وهكذا تركت بلنسيه تواجه مصيرها منفرده حتى اذا بلغ الجهد بأهلها غايته اضطروا الى تسليم المدينة بعد خمسة أشهر من الحصار صلحا على أن يغادرها البلنسيون حاملين ماشاءوا من أمتعتهم فى خلال عشرين يوما . فخرج منها مايقرب من خمسين ألفا بقلوب مكلومة وعيون دامعة فغيرت معالمها الاسلاميه على الفور وقسمت دورها وأموالها بين الأحبار والأشراف والفرسان النصارى وأصبحت هذه الأملاك وراثيه فى ذريتهم . وهكذا رجعت بلنسيه مدينة نصرانيه بعد أن استنارت بنور الاسلام مايزيد على خمسة قرون . وقد أذكت هذه المحنة فجيعه الشعر والنثر معا ، فراح أبناء بلنسيه يرثونها بطائفة من القصائد والرسائل المبكيه ، وسأقتصر هنا على ذكر القصائد تمشيا مع موضوع البحث الا اذا احتوت الرسالة على قصيدة فاذكر منها طرفا بسيطا كالرسالة الطويلة التى بعث بها ابن عميره(٢) الى ابن الأبار يصف حادث بلنسيه قائلا : " ..... فيا لله لأتراب درجوا ، وأصحاب عن الأوطان خرجوا قصت الأجنحة وقيل طيروا ، وانما هو القتل أو الأسر

---

(١) مدينة بشرق الأندلس على البحر كثيرة الشجر والخصب ، وهى دار انشاء الأسطول الاسلامى ومنها كان يخرج للغزو . انظر : الروض المعطار " دانيه " .

(٢) هو أحمد بن عبد الله بن عميره المخزومى . يكنى أبا المطرف ، ولد بجزيرة شقر سنة ٥٨٢ وعنى بالأدب حتى برع وعد من مجيدى النظم والنثر . كان كاتبا لزيان الجذامى والى بلنسيه ، ولما احتلت هاجر الى مراكش وكتب للموحدين ثم استقر أخيرا فى تونس ومات سنة ٦٥٦ هـ انظر : ابن فرحون ، الديباج الذهب : ١/٥٠٦ ، الاحاطة : ١/١٧٣ بلنشيا ، تاريخ الفكر الأندلسى : ٣٠٥ .

أو تسيروا ، فافترقوا أيدى سبا ، وانتثروا على الوهاد والربا ، ففى كل جانب عويل وزفره وبكل صدر غليل وحسره ..... ومالبث أن أخرس من مسجدها لسان الآذان ، وأخرج من جسدها روح الايمان . فبرح الخفاء وقيل : على آثار من ذهب العفاء ..... ثم زحفت كتبه الكفر بزرقها وشقرها حتى أحاطت بجزيرة شقرها (١) ، فآها لمسقط الرأس هوى نجمه ، ولفادح الخطب سرى كلمه ، وبالجنة أجرى الله تعالى الأنهار من تحتها ، وروضة أجاد أبو اسحاق نعتها (٢) ..... " .

ويشفع ابن عميره رسالته بالقصيدة التاليه :-

أقلوا ملامى أو فقولوا وأكثروا * ملومكم عما به ليس يقصر .

وهل غير صب ماتنى عبراته * اذا صعدت أنفاسه تتحدر ..

يحن ومايجدى عليه حنينه * الى أربع معروفها متنكر .

ويندب عهدا بالمشقر فاللوى * وأين اللوى منه وأين المشقر .

تغير ذاك العهد بعدى وأهله * ومن ذا على الأيام لا يتغير .

وأقفر رسم الدار الا بقية * لسائلها عن مثل حالى تخبر .

فلم تبق الا زفرة اثر زفرة * ضلوعى لها تنقد أو تتفطر .

والا اشتياق لا يزال يهزنى * فلا غاية تدنو ولا هو يفتر .

---

(١) تطلق على الجزيرة الكبيرة الواقعه فى نهر شقر قبل مصبه فى البحر المتوسط جنوبى بلنسيه ، وهى من أجمل البقاع فى تلك المنطقه وهى مسقط رأس ابن عميره وأبى اسحاق بن خفاجه . / الاحاطه الحاشيه : ١٧٩/١ .

(٢) الرسالة فى النفح : ٤٩٣/٤ وانظر رسائل أخرى فى المصدر نفسه : ٤٩٥ - ٤٩٦ ، الروض المعطار تحت كلمة (بلنسيه) .

وفى هذه الأبيات تبدو لنا حالة الشاعر النفسيه حيث سيطر عليه الحـزن والبكاء وأخذ منه الحنين والشوق المتوهج كل مأخذ حتى غدا لا يلتفت الـى كلام اللائمين مهما أبدأوا فيه وأعادوا وذلك لأنه أصبح طريدا شريدا ينـدب عهده السابق الذى تمتع فيه مع الأصحاب والأتراب فى ربوع وطنه قبـل أن تطرقهم الحوادث وتفرق جمعهم ، وتترك رسوم الدار منهم مقفرة . وهـو يرمز لبلنسيه بلفظ (المشقر ، واللوى) وفى قصيدة أخرى بلفظه (نجـد) وهى مواضع معروفة فى جزيرة العرب تغنى بها الشعراء وحنوا اليها بعـد الفراق ، ولعله هنا أراد البعد المعنوى ، فالأعداء يحولون بينه وبـين الدخول على بلاده رغم قربه منها ، لذلك نراه يهتز شوقا وتجرى عبرتـه كلما رأى وميض البرق فيخاطبـه :-

أقول لسارى البرق فى جنح ليلـة * كلانا بها قد بات يبكى ويسهر .
تعرض مجتازا فكان مذكـرا * بعهد اللوى والشئ بالشئ يذكر .
أتأوى لقلب مثل قلبك خافـق * ودمع سفوح مثل قطرك يقطـر .
وتحمل أنفاسا كومضك نارهـا * اذا رفعت تبدو لمن يتنـور .
يقر بعين أن أعاين مـن نـأى * لما أبصرته منك عيناى تبصـر .
وأن يتراءاك الخليط الذين هـم * بقلبى وان غابوا عن العين حضـر .
كفى حزنا أنا كاهـل محصـب (١) * بكل طريق قد نفرنا وننفـر .
وأن كلينا من مشوق وشائـق * بنار اغتراب فى حشاه تسعـر .

---

(١) المحصب : موضع بمكة معروف ، أو هو موضع رمى الجمار بمنى . / الروض المعطار (المحصب) معجم البلدان ، الماده نفسها .

ومخاطبة البرق وسؤاله عن الديار والأحبة غرض شعرى أفاض فيه شعراء الحنين منذ القديم . وشاعرنا هنا يشارك البرق وجدانيا فى ملامحه وهيئته فكلاهما خافق القلب منهمر الدمع ، واذا كان البرق يتميز بوميضه فان أنفاس الشاعر الملتهبة لا تقل عن ذلك لو ظهرت للعيان . ولا يكتفى الشاعر بذلك بل يحاول أن يمتزج بالبرق ليبصر من خلاله أحبابه النازحين بعيدا ، ويبصرونه هم أيضا بالطريقة نفسها اذ لا أمل فى اللقاء بعد أن سار كل فى طريق يكابد نار الشوق المضطرمة فى أحشائه ، وبعد هذه الصورة الجميلة ينتقل الى ذكر معاهد صباه متشوقا :-

ألا ليت شعرى والأمانى ضلة * وقولى ألا ياليت شعرى تحير .

هل النهر عقد للجزيرة مثلما * عهدنا وهل حصباؤه وهى جوهر .

وهل للصبا ذيل عليه تجره * فيزور عنه موجه المتكسر .

وتلك المغانى هل عليها طلاوة * بما راق منها أو بمارق تسحر .

ملاعب أفراس الصبابة والصبا * تروح اليها تارة وتبكر .

ويمضى الشاعر فى وصف الأنهار والجبال والخمائل والورود التى طالما تمتع بها وقضى أوقات لهوه بينها وبخاصة رحلات الصيد :

وكم قد هبطنا القاع نذعر وحشه * وياحسنه مستقبلا حين يذعر .

نقود اليه طائعا كل جارح * له منخر رحب وخصر مضمر .

اذا ما رميناه به عبثت به * مؤللة الأطراف عنهن تكشر .

ويختم هذه القصيدة بهذين البيتين :-

كذاك الى أن صاح بالقوم صائح * وأنذر بالبين المشتت منذر .

وفرقهم أيدى سبا وأصابهم * على غرة منهم قضاء مقدر .

والملاحظ على هذه القصيدة خلوها من معانى الرثاء الا ماجاء فى البيتين الأخيرين . فهى مفعمة بالحنين والشوق الى الوطن بكل أجزائه ولم تتطرق الى سقوط المدينة بيد الكفار وذهاب صبغتها الاسلاميه ، ولعل الشاعر الكاتب استنفد هذه المعانى فى الرسالة التى ختمها بهذه القصيدة فجاء نثره أقوى تأثيرا وعاطفة من نظمه ، كما أننا لا نجد فى القصيده دعوة للجهاد أو استصراخا بأحد لانقاذ المدينه ، فقد سد اليأس على الشاعر كل الأبواب . ويقول من قصيدة أخرى (١) :-

ألا أيها القلب المصرح بالوجد * أمالك من بادى الصبابة من بد .

وهل من سلو يرتجى لمتيم * له لوعة الصادى وروعة ذى الصد .

يحن الى نجد ، وهيهات حرمت * صروف الليالى أن يعود الى نجد .

فياجبل الريان (٢) لا رى بعدما * عدت غير الأيام عن ذلك الورد .

ويا أهل ودى والحوادث تقتضى * خلوى عن أهل يضاف الى الود .

ألا متعة يوما بعارية المنى * فانا نراها كلّ حين الى الرد .

أمن بعد رزء فى بلنسية ثوى * بأحنائنا كالنار مضرمة الوقد .

يرجى أناس جنة من مصائب * تطاعن فيهم بالمثقفة الملد (٣) ؟

ألا ليت شعرى هل لها من مطالع * فعاد الى ماكان فيها من السعد ؟

وهل أذنب الأبناء ذنب أبيهم * فصاروا الى الاخراج من جنة الخلد ؟

---

(١) النفح : ١/٣٠٥ - ٣٠٦ .

(٢) جبل فى ديار طيئ يسيل منه الماء . معجم البلدان تحت (ريان) .

(٣) الملد : الناعمه المصقوله . الصحاح (ملد) .

وقصيدته هذه تسير على نهج سابقتها ، فهى حنين وصبابة يطفح بهما قلب الشاعر المتيم الذى يأبى السلو عن تذكر الوطن ومن فيه مهما اقتضت الحوادث خلوه واقصاءه عنه ثم نراه ينهزم فى معركته مع الأيام العادية فيتشاءم من الحياة ويرى كل مافيها من جمال ومتع : لا يعدو كونه عارية مآلها الى الرد ، ولا أدل على ذلك من الواقع الذى يعيشه الشاعر بعد أن رماه الدهر بقاصمة الظهر ، وأشعل قلبه نارا بضياع وطنه بلنسيه ، تلك الجنه التى نال فيها السعادة حقبة ، وبفقدها أظلم نهاره فأصبح ينظر الى الدنيا بمنظار قاتم لا يشاهد فيه الا المصائب النازلة بالناس حيث لا يستطيعون لها دفعا ولا منها هروبا .

وفى قصيدته الثالثه يقول :- (١)

مابال دمعك لا ينى مدراره * أم مالقلبك لا يقرّ قراره .

ألِلوعة بين الضلوع لظاعن * سارت ركائبه وشطت داره .

أم للشباب تقاذفت أوطانه * بعد الدنو وأخفقت أوطاره .

أم للزمان أتى بخطب فادح * من مثل حادثة خلت أعصاره

بحر من الأحزان عب عبابه * وارتج مابين الحشا زخاره .

فى كل قلب منه وجد عنده * أسف طويل ليس تخبو ناره .

يقدم الشاعر لرثاء مدينته بحوار داخلى يجريه مع نفسه التى تسائله عن سبب دمعه المنهمر وقلبه الخافق المضطرب . وهو يتخذ من ذلك تعلة لتعداد المآسى الكثيرة التى نجمت عن فقد الوطن الغالى فالأحباب سارت ركائبهم وبعدت دارهم ، وتفرق شملهم ، ومعاهد الشباب قد أناخ عليها الزمان بكلكله فمسخ صورتها ، فالشاعر يغرق فى بحر من الأحزان يغشى

---

(١) الحميرى ، صفة جزيرة الأندلس : ٥١ - ٥٢ .

كل قلب مسته النكبة فيوقد فيه جمر الأسى . ثم ينتقل الى بلنسية ومآلت اليه حالها :-

أما بلنسية فمثوى كافر * حفت به فى عقرها كفاره .

زرع من المكروه حل حصاده * عند الغدو غداة لج حصاره .

وعزيمة للشرك جعجع بالهدى (١) * أنصارها اذ خانه أنصاره .

قل كيف تثبت بعد تمزيق العدا آثاره أم كيف يدرك ثاره .؟

والشاعر هنا يذكر السبب الأهم الذى ضاعف حزنه وألمه ذلك أن بلنسيه عاصمة الاسلام فى شرق الأندلس قد أصبحت موطنا للكفار والمشركين الذين لم يدخروا وسعا فى التضيق على المسلمين بعد أن تأكدوا من انعدام ناصريهم أولئك الذين يصفهم الشاعر بالخيانة لخذلانهم دين الهدى ، وهنا تشتد عاطفة الشاعر الاسلامية قليلا . لكنه سرعان مايعود الى الحزن اليائس عندما يتذكر قوة الأعداء فى مقابل الضعف الشامل الذى يسيطر على المسلمين بحيث يصعب معه ادراك الثأر . ويعود ابن عميره بعد ذلك - كما هى عادته - الى التغنى بجمال بلنسية وكيف أظلم نهارها بالضلال بعد أن كان ليلها يضىء بالهداية والنور فيقول فى صوت كئيب :-

ماكان ذاك المصر الا جنة * للحسن تجرى تحته أنهاره .

طابت بطيب بهاره آصاله * وتعطرت بنسيمه أشجاره .

أما السرار (٢) فقد عداه وهل سوى * قمر السماء يزول عنه سراره .

---

(١) جعجع : حبس وضيق ، اللسان ، ماده (جعجع) .

(٢) السرار : سرر الشهر ، آخر ليلة منه ، وفيها يختفى القمر . اللسان ماده (سرر) .

قد كان يشرق بالهداية ليلة * والآن أظلم بالضلال نهاره .

ودجا به ليل الخطوب فصبحه * أعيا على أبصارنا اسفاره .

وأسلوب الشاعر تغلب عليه السهوله الملونه بالمحسنات اللفظيه والبديعيه ولعل كونه ناثرا بارعا فى استخدام الزخرفه والتصنيع - كما يظهر من رسائله المشار اليها - أثّر بشكل ملحوظ فى شعره . ورغم ذلك فانه لم يأت بصور مبتكرة ذات ظلال وايحاء لابتعاده عن الخيال . أما عاطفته فجياشة يذكيها تذكره وحنينه الى جنته التى أخرج منها ، وشعره مفعم بالشكوى والتبرم والوجد . ففى قصائده التى مرت بنا كان يفتتحها بالدمع المدرار ، والقلب المصرح بالوجد ، ولغة فيها كثير من الانكسار وتكاد تخلو من الحماسة والاثارة وطلب الغوث ، فنراه يكثر من ذكر الأطلال والربوع الدارسة وهو بذلك يتكئ على شعر الأطلال فى مختلف عصوره فيذهب مع أولئك الشعراء ويذكر عهد (اللوى ، والمشقر) ويحن الى نجد ويخاطب جبل الريان كل ذلك تقليدا واتباعا . ولعله من الكثير أن نطالب ابن عميره بموقف ايجابى كالذى سلكه زميله ابن الأبار - كما سيأتى - ذلك أن ابن عميره قال قصائده بعد سقوط بلنسيه ومعها جملة من المدن والحصون الأندلسيه بل أصبحت الأندلس كلها تحت رحمة النصارى والدولة الموحديه كانت تلفظ أنفاسها الأخيرة ، وزاد الأمر سوءا اخفاق النجدة الحفصيه فى الوصول الى المدينه فغلف اليأس قلوب الناس فجاء تصوير ذلك على لسان أشدهم احساسا بذلك شاعرنا ابن عميره أما ابن الأبار فقد كانت قصائده كلها استصراخا واستغاثة لأن الأمل فى النصر لا يزال موجودا والمدينه لم تسقط بعد .

رثـاء اشبيليـه :(١)

بعد أن أنهى خايمى الأول ملك أراجون سيطرة المسلمين على ثغـور الأندلس الشرقيه ، جاء دور فرناند و الثالث ملك قشتاله ليواصل فتوحـه فى وسط الأندلس وجنوبها . وكانت أهم العقبات التى تقف فى طريقه هـى قوة ابن الأحمر سلطان غرناطه (٢) الذى شكل دولة قوية فى جنوب الأندلـس استطاعت سنة ست وثلاثين وستمائه أن تهزم القشتاليين غربى مدينة جيان . لذا فقد صمم الملك القشتالى على اخضاع ابن الأحمر لسلطته فجهز جيشا كثيفـا وسار به نحو جيان وأخذ يخرب ماحولها وينتسف زروعها ، وكانت هـذه المدينه من أخصب مناطق الأندلس وأمنعها لما تحوى من القلاع والحصـون والأسوار ، فضرب حولها طوقا من الحصار الشديد لمدة شهر وهى صامدة تنتظر المدد ، ولكن ابن الأحمر عجز عن ذلك ، وقرر التفاوض مع القشتاليين وذهب من توه الى معسكرهم تحت أسوار جيان وقدم الطاعة والولاء لفرنانـدو ثم عقد معه معاهدة سلام لمدة عشرين عاما تحوى شروطا قاسيه من أهمهـا (٣)

---

(١) من أمصار الأندلس الجليله ، تقع على نهر الوادى الكبير وبينها وبـين قرطبه ثمانين ميلا ، وهى قديمة البناء ، عظيمة الأسوار ، خصبة التربـه تكثر حولها أشجار الزيتون وغيرها . / الروض المعطار (اشبيليـه) .

(٢) هو أبو عبد الله محمد بن يوسف بن خميس بن نصر الخزرجى الأنصـارى ، يلقب بالغالب بالله ولد سنة احدى وتسعين وخمسمائه وملك غرناطـه سنة ٦٣٥ هـ ، دعا فى بداية أمره للعباسيين ثم للموحدين والحفصيين ثم نزع واستقل بذاته توفى فى ٦٧١هـ . / انظر ابن الخطيب : اللمحـه البدريه : ٤٢ - ٤٨ . عنان : تراجم اسلاميه : ٢٥٨ .

(٣) عنان ، عصر المرابطين والموحدين : ٤٦٨/٢ .

تسليم المدينة المحاصره فى الحال ، ودفع جزيه سنويه مقدارها خمسة عشر ألف قطعة ذهبية ، وأن يحكم ابن الأحمر غرناطه باسم ملك قشتاله ويحضر اجتماع مجلس قشتاله (الكورتيس) باعتباره أحد الأمراء التابعين للعرش . والأهم من ذلك أن يشارك ابن الأحمر بقواته الجيش القشتالى فى حروبه ضد المسلمين . وهكذا سلم العرش الغرناطى المهزوز لابن الأحمر على حساب شرفه ودينه . ثم دخل النصارى جيان وطردوا أهلها ووزع ملكهم دورها على الأشراف والفرسان وحول مسجدها الى كنيسه وذلك سنة ثلاث وأربعين وستمائه . ولما رأى الملك القشتالى حصول جيان فى يده أخذ يتطلع الى اخضاع اشبيلية عاصمة قواعد جنوب الأندلس حيث لم يبق غيرها من الحواضر الكبرى بيد المسلمين ، وكانت هذه المدينة تتمتع باستقلال محلى رغم انضوائها تحت لواء هذا الأمير أو ذاك ، فقد خلعوا طاعة الدولة الموحديه وبايعوا ابن الأحمر ثم ثاروا عليه بعد مدة بسيطه ورجعوا الى طاعة الموحدين شكليا ، حيث كان الحكم الفعلى بيد الزعيم المحلى أبى عمرو ابن الجد الذى كان صديقا لملك قشتاله وتربطه به معاهده على نمط معاهدة الملك وابن الأحمر (١) وأخيرا قرر ابن الجد خلع طاعة الموحدين ومبايعة الأمير أبى زكريا الحفصى صاحب الدوله الناشئه فى تونس والتى تستطيع الانجاد فى أى وقت ، فبعث الحفصى من قبله من يشرف على شئون اشبيليه الى جانب ابن الجد (٢) ووعد أهل اشبيليه بالمعونة ولكن أولئك النفر الذين قدموا الى اشبيليه أساءوا السيره وأحدثوا كثيرا من المفاسد فطردهم أهل اشبيليه وقتلوا ابن الجد الذى كان السبب فى مجيئهم ، فغضب فرناندو القشتالى لمقتل

---

(١) عنان ، المرجع السابق : ٢/ ٤٧٣ .

(٢) ابن خلدون ، تاريخ العبر : ٤/ ١٧١ .

صديقه واتخذ ذلك ذريعة لاحتلال اشبيلية التى لم يعد لها من ينجدها بعد أن خلعت طاعة الموحدين ، والحفصيين ، ولكن مع هذا فان احتلالها لم يكن بالأمر السهل فهى محاطة بالقلاع والحصون المشحونة بالمقاتلين من مختلف جهاتها بالاضافة الى خصبها وكثرة خيراتها ، ووقوعها على نهر الوادى الكبير الذى يمكن بواسطته الاتصال بالمغرب . لذا فقد فزع فرناندو الى البابا يطلب المساعده ، فأصدر البابا قرارا يقضى بتخصيص ثلث ايرادات الكنيسة القشتاليه والليونيه للمساهمة فى الحرب (١) . وفى سنة أربع وأربعين وستمائه جمع فرناند و حشودا ضخمه وسار بهم نحو اشبيليه فاصطدم بحصن قرمونه المنيع (٢) فحاصره وأهلك ماحوله من الزروع ثم استوى عليه بعد ستة أشهر بمساعدة حليفه ابن الأحمر الذى وافاه بخمسمائة فارس وكان له دور كبير فى اقناع أهل الحصون بالتسليم كفعله مع أهل قلعة جابر حصن اشبيليه من الجنوب الشرقى (٣) ثم استمرت الجيوش المشتركه فى السير واحتلال القلاع حتى وصلت الى اشبيليه وحاصرتها برا وبحرا ، وضرب أهل اشبيليه أروع الأمثلة فى الصمود والدفاع المستميت عن بلدهم ، ولكن ضخامة النجدات النصرانيه التى كانت تأتى لتعزيز الحصار بقيادة الأساقفه والرهبان أفقدت المحاصرين كل أمل ، وبدأ شبح الجوع والضيق والارهاق يدب حثيثا الى المدينة

---

(١) عنان ، المرجع نفسه : ٢/٤٧٤ .

(٢) مدينة حصينه فى الشرق من اشبيليه ، تقع فى سفح جبل عال وتحيط بها الأسوار المنيعه التى تصعب على المحاربين وبها أسواق عامره ودار لصناعة السلاح ، فتحها الأمويون سنة ٣٠٥ هـ . / الروض المعطار : (قرمونه) .

(٣) انظر : ابن أبى زرع ، الذخيره السنيه : ٧٢ - ٧٣ .

فاضطر أهلها الى تسليمها بعد خمسة عشر شهرا من الحصار الخانق ، وخرج منها مايزيد على أربعمائه ألف نسمه بما لهم وسلاحهم وانتشروا فى مختلف الأقطار . ودخل فرناند و المدينة العظمى وجعل فيها مركز مطرانية ورفعت الصلبان والأجراس الضخمة على منارة جامع اشبيليه ، واستقر فيها واتخذها عاصمة له بدلا من طليطلة ، وذلك سنة ست وأربعين وستمائه . وقد صور الشعر محنة هذه المدينة الصامده بعواطف صادقه ملتهبه تتراوح بين الحزن والبكاء وطلب الغوث والنجده عندما اشتد الحصار وقربت النهاية ، ومن ذلك قول أبى موسى هارون بن هارون :- (١)

ياحمص أقصدك المقدور حين رمى * لم يرع فيك الردى الا ولا ذمما .

جرت عليك يد للدهر ظالمــة * لا يعدل الدهر فى شىء اذا حكما .

ماكنت أحسب أن الحادثات اذا * همت بك السوء لا تلقى لك السلما .

قد كان حسنك فتان الشباب فمذ * أصبت عوضت منه القبح والهرما .

ياجنة زجرتنا عن زخارفهــا * ذنوبنا فلزمنا البث والندما .

يقف الشاعر متأملا ومتعجبا من انقلاب حالة مدينته حيث أصابتها الحادثات التى لا ترعى الا ولا ذمه ، فحولت حسنها قبحا وشبابها هرما ، وصار أهلها الى الاخراج منها والابعاد . يتجرعون لذلك غصص الحزن والندم الذى لا يجدى من أضاع وفرط شيئا ، والشاعر يرجع سبب هذه المحنه الى صروف الدهر الجائرة فى حكمها . ومعركة الشعراء مع الدهر قديمه قدم الشعر نفسه فالشاعر دائما يحمل الدهر تبعه مايلاقى الاخفاق والآلام ويرى فيه

---

(١) عنان ، عصر المرابطين والموحدين : ٢ / ٤٨٢ وذكر أنه نقلها عن البيان المغرب : ٣ / ٣٨٢ - ٣٨٤ ولكنى لم أجدها فى الموجود منه بين أيدينا فى الموضع المشار اليه .

عدوا يقف له بالمرصاد ، وقيدا يخنق حياته . ثم يصف الشاعر زحف جيش الأعداء وما أحدثه باشبيليه من البلاء :

ويمموا حمص فى جمع يضيق به * ذرع الفضا بالمرهفات الماع فاكتتما .
واستوطنوا القبر فى الوادى وقام لهم جسر من الفلك لا تشكو به السأما .
فكم أسارى غدت فى القيد موثقة * تشكو من الذل أقداما لها حطما .
وكم صريخ رضيع ظل مختطفا * عن أمه فهو بالأمواج قد فطما .
وكم بطريانة (١) أبقى الأسى ندبا * فى القلب يبعث وجدا كلّما كلّما .
ياعين فابك على حمص وقل لها * منك البكاء اذا ماترسليه دما .
وقد أصيبت بها الدنيا وساكنها * حقا وأصبح ركن الدين قد ثلما .
سطا بها الكفر اذ قل النصير بها * فمن معز بها الاسلام ماسلما .

ان معانى الشاعر ليس فيها جديد فهو يصف ضخامة الجيش الغازى وحصاره البرى والبحرى للمدينة ثم يرسل دمعه حزنا وأسفا على أولئك الأطفال الذين ابتلعتهم الأمواج بعد أن خطفهم الأعداء من غير ذنب ، وعلى أولئك الأسرى الموثقين بقيود الذل . والأكبر من ذلك أن هذه المدينة من قواعد الاسلام العظمى الباقيه بيد المسلمين ، فبسقوطها وتحولها الى دار كفر حدثت فى الاسلام ثلمة تدمى لها القلوب ، لذلك نرى الشاعر يتلفت حوله مذعورا باحثا عن منجد ونصير يعيد للاسلام عزه ومجده ، ولا تطول حيرة الشاعر اذ سرعان مايوجه نداءه الى اخوان العقيدة فى

---

(١) حصن اشبيليه من الجنوب الغربى يفصلها عنها نهر الوادى الكبير وتصل بينهما قنطره ضخمه مقامه على ذلك النهر . الروض المعطار (بطريانه) .

عدوة المغرب قائــــلا :-

يا أهل وادى الحما بالعدوة انتعشوا * هذا الذماء فقد أشفى به سقما .

ماذا يبطئكم عنـــا وحولكـــــم * أن تبصروا دار قوم أصبحت رمما .

وحقنا واجب فالدين يجمعنــــا * مع الجوار الذى مازال منتظمـا .

وقد دعونا فأسمعنا علـى كتـب * بما قد استنفد القرطاس والقلما .

ولغة الشاعر فيها قوة لأنه يطالب بحق الاسلام الذى يجمع كل المسلمين ويجعلهم اخوة ووحدة متماسكه ، فهو يخص أهل العدوة على النجده ويعجب من تأخرهم فى ذلك رغم سماعهم صراخ جيرانهم أهل اشبيليه الذين أشرفوا على الهلاك ، وعلى الرغم من ذهاب صوت الشاعر أدراج الرياح ، ولم يستجب له أحد فانه يكون قد أدى واجبه بايجابية تراوحت بين الرثاء والحزن العميق على فقدان المدينة الاسلامية ، وبين السعى فى طلب المدد بأسلوب مؤثـر .

رثاء سهيل (١) :-

لا تمدنا المصادر التاريخيه بمعلومات دقيقه عن السنة التى سقطت فيهـا هذه القريه بيد النصارى ، وانما المؤكد أن ذلك حدث فى عصر الموحديـن (٢) حيث يقول ابن سعيد فى ترجمة الامام السهيلى الذى عاش من (٥٠٨ - ٥٨١) (٣)

---

(١) هى قرية بالقرب من مدينة مالقه ، سميت باسم الكوكب (سهيل) لأنه لا يرى فى جميع الأندلس الا من جبل مطل عليها ، ووادى سهيل معروف بالأندلس وفيه قرى كثيرة . / معجم البلدان : (سهيل) ، ابـن خلكان ، الوفيات : ١٤٤/٣ .

(٢) المغرب فى حلى المغرب : ٤٤٨/١ .

(٣) هو عبد الرحمن بن عبد الله الخثعمى السهيلى . كان عالما بالعربيـة واللغة والقراءات ، والتفسير والحديث ، حدث بما لقة فاشتهر بهـ صيته ، من تصانيفه ، الروض الأنف فى شرح السيرة النبويه ، التعريـف والاعلام بما فى القرآن من الأسماء والأعلام وغيرها . انظر : نكت الهيمان : ١٨٧ ، أبو البحر صفوان ، زاد المسافر : ٩٦ ، انباه الرواه : ١٦٢/٢ ، الروض الأنف : ٢٥/١ .

.... انه لما وقعت قريته (سهيل) بيد الفرنج وخربوها ، وقتلوا أهلها كان أهله وأقاربه ضمن من قتل ، وكان هو غائبا عنهم خارج القريه فاستأجر من أركبه دابة وأتى به الى سهيل فوقف بازائه وقال :-

يا دار أين البيض والآرام * أم أين جيران على كرام ؟
راب المحب من المنازل أنه * حيى فلم يرجع اليه سلام .
لما أجابنى الصدى عنهم ولم * يلج المسامع للحبيب كلام .
طارحت ورق حمامها مترنما * بمقال صب والدموع سجام .
" يا دار مافعلت بك الأيام * ضامتك والأيام ليس تضام " .

والأبيات - رغم قلتها - مفعمة بعاطفة الحزن الجياشه التى تنبعث من قلب مكلوم بفقد الوطن والأهل ولعل المدقق فى الأبيات وفى وقفة الشاعر بالمنازل يحس أن قائلها لا يبصر فهو يعتمد على السماع فقط ولا يأتى بوصف مشاهد للقرية المدمّره التى فعلت بها الأيام فعلها . فالصمت الموحش الذى لف المنازل وقضى على كل حركة فيها هو الذى فجر دمع الشاعر وجعله ينوح نوح الحمام .

رثاء صقلية ومدن المغرب :-

صقليه (١) :- كانت جزيرة صقليه تتبع للدولة البيزنطيه المتمركزه فى

---

(١) جزيره مثلثة الشكل من جزائر البحر الأبيض المتوسط ، قصبتها مدينة (بلرم) وفيها مايقرب من ١٣٠ بلدا بين مدينة وقلعه ، وتشتهر بخصوبتها ، وزراعاتها الكثيرة بالاضافة الى أنواع المعادن المتعدده / معجم البلدان : (صقليه) .

القسطنطينيه والتى اتخذت هذه الجزيرة مركزا للسيادة على البحر ، فمنها كانت تغزو أفريقيا وتخرب الثغور وتنهب الأرزاق وتأسر المسلمين (١) . وقد بدأ التفكير فى فتحها مبكرا عند المسلمين ، فقد غزاها موسى بن نصير فاتح الأندلس ودحر قوى الروم بها وغنم غنائم كثيرة ، ولكنه رجع ولم يتم فتحها وربما كان ذلك لطول المسافه البحريه بينها وبين تونس ، وصعوبة ارسال المدد اذا ماعبرت جيوش الفتح الاسلامى الى أوربا ، وتتابعت المحاولات بعد ذلك من ولاة الأمويين على افريقيا ولكنها انتهت بوقوع الصلح والرضا بالجزيه ، وبقى الحال على هذا الى أن جاءت الدولة العباسية ووضعت ابراهيم بن الأغلب واليا على افريقيه فاتخذ القيروان عاصمة له وأخذ يفاوض الخلافة العباسيه فى الانفصال ، فجاءته الموافقة على ذلك مقابل أن يعترف للعباسيين بالسياده ، ويدفع خراجا سنويا لخزينة الدولة يقدر بأربعين ألف دينار (٢) ، عندئذ أخذ ابن الأغلب يعمل بجد ونشاط عظيم لتكوين مملكة قويه ، وبالفعل تم له ماأراد حتى كانت القيروان من أزهى عواصم المسلمين وأقواها . ثم توفى ابراهيم وخلفه ولده زيادة الله سنة ١٩٨ هـ وفى عهده كانت جزيرة صقليه تمر بمرحلة صراع وانقسام نتيجة الظلم والفساد الذى كان يمارسه ولاة الروم البيزنطيين ضد شعب صقليه ، اضافة الى الخلاف المستحكم بين الأمراء والقواد أنفسهم ، حيث اضطر بعضهم الى الاستنجاد بزيادة الله وحثّه على احتلال الجزيره مبينا له ضعفها وسهولة فتحها فاستحسن زيادة الله بن الأغلب ذلك وجهز أسطولا ضخما شحنه بالرجال

---

(١) الكامل فى التاريخ : ٦/ ٣٣٤ .

(٢) أحمد المدنى ، المسلمون فى جزيرة صقليه : ٥١ .

والعتاد ووجهه الى صقليه تحت قيادة القاضي أسد بن الفرات (١) ، فوصل اليها سنة اثنتى عشرة ومائتين ، والتقى بجيش كثيف من الروم بلغ مائة ألف جندي فهزمه هزيمة شديدة وفر قائد الروم المسمى "بلاطه" وتحصن (بسرقوسه (٢)) حيث قتل هناك على يد أحد خصومه ، وزحف الجيش الاسلامي بقيادة ابن الفرات وحاصر سرقوسه برا وبحرا ، ووصلته النجدات والمعونات من القيروان فاشتد عزمه وبعث فرقه من جيشه لمحاصرة عاصمة الجزيرة (بلرم (٣)) ، وفي الوقت نفسه وصل أسطول الروم بقوة ضخمه ، ودارت بين الجانبين معارك ضاريه امتدت من سرقوسه شمال الجزيره الى بلرم في شمالها الغربي وكانت سجالا (٤) غير أن وباء شديدا وقع في معسكر

---

(١) هو أسد بن الفرات بن سنان ، يكنى أبا عبد الله . ولد بخراسان سنة ١٤٢ هـ ، رحل أبوه الى القيروان مع جيش ابن الأشعث وأخذه معه وهو طفل صغير ، فنشأ بتونس وتعلم بها ثم رحل الى المشرق وأخذ الحديث عن مالك بن أنس سنة ١٧٢ هـ ثم رجع الى القيروان وولي قضاءها سنة ٢٠٤ هـ ومن مصنفاته (الأسديه) في فقه المالكيه وتوفي مجاهدا سنة ٢١٣ هـ أثناء غزوته على صقليه / معالم الايمان : ٢/ ٢-٣ ، تراجم اسلاميه : ١٣٠ .

(٢) مدينة كبيرة بينها وبين صقليه مجاز لطيف ، والبحر محدق بها من جميع جهاتها ، وعليها ثلاثة أسوار بمدخل واحد في شمالها ، وتشتهر بأسواقها التجاريه ومبانيها الرائعه . / انظر : الروض المعطار : (سرقوسه) .

(٣) هي دار الملك بصقليه في عهد الروم والمسلمين ، وهي على ساحل البحر وتحدق بها الجبال ، ومنها كانت تخرج الأساطيل للغزو ، وبها جامعها المشهور الذي بلغ في القديم درجة عاليه من الهندسه والزخرفه / المصدر نفسه : (بلرم) .

(٤) عنان : تراجم اسلاميه : ١٢٤ .

المسلمين توفى على أثره عدد كبير ومنهم القائد البطل أسد بن الفرات سنة ثلاث عشره ومائتين ، وتولى القيادة بعده محمد بن أبى الجوارى الذى قرر الرجوع بالمسلمين الى افريقيا لما رأى ضعفهم وقوة الروم ، ولكن لم يتح له ذلك اذ أجبرهم الأسطول الرومى على خوض الحرب ، فماكان منهم الا أن احرقوا سفنهم وانطلقوا الى الجزيرة أسرابا يحاصرون قلاعها وقد عقدوا العزم على النصر أو الموت ، وساعدهم فى ذلك وصول الاسطول الأندلسى يحمل سرايا المجاهدين (١) ، وأصبح الجميع قوة واحدة فتحت على يدها معظم قواعد الجزيره ، ثم لم يلبث القائد ابن أبى الجوارى أن توفى ، ورجع الأسطول الأندلسى الى بلاده فرارا من الوباء الذى كان ينتشر بسبب عفونة الهواء (٢) ، وفساد المناخ ، فبعث زيادة الله زهير بن عوف مع ثلاثين ألف مقاتل لاكمال فتح الجزيره ، فاندفعوا نحو العاصمه (بلرم) وحاصروها بشده ، وواجهوا مقاومه عنيفه من الروم ولكنهم استسلموا فى النهاية وخرجوا منها ودخلها المسلمون واتخذوها مقرا لحكمهم فى الجزيره وانطلقوا فى مجال البناء والاصلاح ، فانتشرت فى أرجاء صقلية المساجد ، والقصور والحدائق ، وفاضت عليها أنوار الاسلام العلمية والحضاريه من المشرق والمغرب ، وبسقوط سرقوسه آخر معاقل الروم بالجزيره سنة أربع وستين ومائتين تكونت فيها دولة اسلاميه تتبع للأغالبه فى افريقيا ثم استقلت بعد زوالهم ، وكانت البعوث والحملات البحريه تخرج منها ، وتجوس خلال المياه الايطاليه ، وبقيت الجزيرة ترفل فى حلل الازدهار الى أن بسط

---

(١) المدنى : المسلمون فى جزيرة صقليه : ٦٤ .

(٢) انظر : معجم البلدان تحت كلمة (صقليه) .

الفاطميون نفوذهم على المغرب وافريقيا سنة سبع وتسعين ومائتين وأخذوا يرسلون الولاة من قبلهم الى صقليه ، فبدأ عهدهم بمذابح شنيعه بين مؤيدى حكم الأغالبه من العرب ومؤيدى الفاطميين من البربر وانحاز الولاة الى البربر وأوجدوا النعرات العنصريه التى مزقت الصف الاسلامى وحاولوا اجبار الناس على اعتناق المذهب الشيعى ، فقام أهل صقليه بثورة عارمة وقتلوا حاكمهم الفاطمى وخلعوا طاعة الفاطميين سنة احدى وثلثمائه ، فبعث اليهم عبيد الله المهدى الحاكم الفاطمى حملة قوية أهلكتهم وسبت حريمهم ، وارتكبت الفظائع أعظمها ماجعل الناس يفرون الى النصارى طلبا للحماية والنجاة (١) وفى هذا الوقت الذى يقتل فيه المسلمون بعضهم ، وتسبح فيه الجزيرة ببحر من الدم ، بدأ التحرك من قبل النصارى والنورمان نحو صقليه ، وأخذوا يغيرون وينهبون ويسلبون ، واستوطنت جماعة من النورمان ناحية من صقليه سنة سبع وعشرين وثلثمائه واتخذتها مركزا لقرصنتها البحريه ، وبهذا بدأ شبح القلق المرعب يسيطر على الجزيرة فاجتمع رأى أهلها على الاستنجاد بالمعز بن باديس الصنهاجى حاكم المغرب من قبل الفاطميين بعد انتقال عاصمتهم الى القاهره ، فأمدهم بأسطول من أربعمائة سفينه مثقلة بالرجال والخيل والسلاح ، ولكن عاصفة هوجاء أودت بالأسطول كله ، ولم ينج من أهله الا القليل (٢) ، عندها اشتد خطر النصارى الزاحفين فرأى أهل الرأى بالجزيره تقسيمها الى عدة نواحى على كل ناحية أمير ، وكان هذا من سوء تدبيرهم اذ سرعان مادب الخلاف بينهم وفر أحدهم ويدعى ابن الثمنة الى ملك النورمان رجار الأول واستغاث به على قومه

---

(١) المسلمون فى جزيرة صقليه : ١١٩ .

(٢) الكامل فى التاريخ : ٧/٣٢٣ .

فأقبل هذا بجيوش ضخمه وأخذ يلتهم الجزيرة شيئا فشيئا والمسلمون يقاومونه بكل عنف وشجاعه سنينا طوالا الى أن استسلم آخر معاقلها قلعة (قصريانه)(١) سنة أربع وثمانين وأربعمائه . وبهذا ينتهي الحكم الاسلامي لصقلية بعد أن نعمت في ظلاله زهاء سبعين ومائتي عام(٢) . وممن بكى الجزيرة الغاربه ابنها ابن حمديس الصقلي(٣) الذي كان دائم التذكار والشوق اليها يقول(٤) :

لأمر طويل الهم نزجي العرامسا * وتطوى بنا أخفافهن البسابسا(٥) .

وتذعر بالبيداء عينا شواردا * تذكر بالأحداق عينا أوانسا .

عذارى ترى الحسن البديع مطابقا * لأنواعها في خلقه ومجانسا .

بذكر البيداء والجمال المزجاة فيها يبدأ الشاعر قصيدته ، ثم يذكر بعد ذلك الآرام النافره التي أهاجت ذكرياته ، وهذه البداية التي يسير بها على هدى مطالع القصائد القديمه لها دلالة واضحه على الشعور بالغربة والقلق والاستعداد للرحيل والنزوح الذي يورث الهم والحزن الطويل . ونرى الشاعر

---

(١) من أكبر مدن الروم بصقليه ، وأعظمها خصبا ، افتتحها المسلمون أيام بني الأغلب سنة ٢٤٤ هـ وأخذوا منها غنائم كثيرة ، واستوطنوها لمناعتها / الروض المعطار : (قصريانه) .

(٢) اسماعيل شلبي : ابن حمديس الصقلي : ١٨ .

(٣) هو أبو محمد عبد الجبار بن أبي بكر بن محمد بن حمديس الأزدي ، ولد في سرقوسه سنة ٤٤٧ هـ ، شاعر مبدع مشهور رحل الى الأندلس سنة ٤٧١ هـ ومدح المعتمد بن عباد ونادمه ، ثم انتقل الى المغرب ومدح حكامها الصنهاجيين ، وتوفي سنة ٥٢٧ هـ في جزيرة ميورقه / انظر : الوفيات : ٢١٢/٣ ، الذخيره : ق٤ ، ج١ ، ص ٣٢٠ ، المطرب : ٥٤ .

(٤) ديوانه : ٢٧٤ - ٢٧٦ .

(٥) العرمس : الناقة الشديده ، البسبس : القفر . الصحاح (عرمس) ، (بسس) .

بعد ذلك يضيق بحزنه المكظوم فيطلق عبرته دون تحرج :-

أعاذل دعنى أطلق العبرة الــتى * عدمت لها من أجمل الصبر حابسا .
(١)
فانى امرؤ آوى الى الشجن الــذى * وجدت له فى حبة القلب ناخسا .

لقدرت أرضى أن تعود لقومهــا * فساءت ظنونى ثم أصبحت يائسا .

وعزيت فيها النفس لما رأيتهــا * تكابد داء قاتل السم ناحســا .

وكيف وقد سيمت هوانا وصــيرت * مساجدها أيدى النصارى كنائسا .

اذا شاءت الرهبان بالضرب أنطقت * مع الصبح والامساء فيها النواقسا .

ان الشاعر يطلق عبراته وزفراته قوية يغذيها قلبه الذى أصبح ديدنــه النبض بالشجن والألم ، عندما رأى موطنه يهوى تحت ضربات الأعــداء ويذهب الى غير رجعــه ، وينقطع كل أمل فى عودته اليه بعد أن ســامــه النصارى الخسخ وحولوا مساجده الشامخه الى كنائس ينبعث منهــا رنين الأجراس . الذى ينزل على نفس الشاعر سما ناقعا . ثم يأخذ فى وصف ماآلت اليه صقليه بعد السقوط مقارنا ذلك بما كانت عليه أيام المسلمين الأقويــاء ومن خلال ذلك تبدو المفارقه المرعبة المبكيــه :

صقلية كاد الزمــان بلادهــا * وكانت على أهل الزمان محارســا .

فكم أعين بالخوف أمست سواهــرا * وكانت بطيب الأمن منهم نواعســا .

أرى بلدى قد سامه الروم ذلــة * وكان بقومى عزة متقاعســا .

وكانت بلاد الكفر تلبس خوفــه * فأضحى لذاك الخوف منهن لابســا .

---

(١) النخس : الوخز ، ومنه نخس الدابه اذا غرز جنبها بعود أو نحــوه . / اللسان (نخس) .

عدمت أسودا منهم عربية * ترى بين أيديها العلوج فرائسا .

فلم ترعيني مثلهم في كتيبة * مضارب أبطال الحروب مداعسا .

ويارب براق النصال تخاله * من النقع ليلا مشرق الشهب دامسا .

وماخلت أن النار يبرد حرها * على سعف لاقته في القيظ يابسا .

أما ملئت غزوا قلوريه (١) بهم * وأردوا بطاريقا بها وأشاوسا .

هم فتحوا أغلاقها بسيوفهم * وهم تركوا الأنوار فيها حنادسا .

وساقوا بأيدى السبي بيضا حواسرا تخال عليهن الشعور برانسا .

يخوضون بحرا كل حين اليهم * ببحر يكون الموج فيه فوارسا .

وحربية ترمي بمحرق نفطها * فيغشى سعوط الموت فيها المعاطسا .

تراهن في حمر اللبود وصفرها * كمثل بنات الزنج زفت عرائسا .

اذا عثنت فيها التنانير خلتها * تفتح للبركان عنها منافسا .

لقد كانت صقليه أيام عزها الغابر تحرس بأيدى المسلمين الأبطال الذين طالما داسوا بلاد الكفار وخضبوا سيوفهم من دماء كماتهم في البر والبحر ، فنرى الشاعر يطيل تذكر تلك الأيام ويكرر -بلذه- كلمة (كان) الداله على الماضي ، أما حال الجزيرة بعد أولئك الحماه فقد انقلب الى ضيعة وهوان يقول :

أفي قصر بني رقعة (٢) يعمرونها * ورسم من الاسلام أصبح دارسا .

ومن عجب أن الشياطين صيرت * بروج النجوم المحرقات مجالسا .

---

(١) مدينة بجزيرة صقليه ، كان يتحصن بها الروم لمناعتها ، وقد احتلها المسلمون بعد خطة قويه بقيادة ابراهيم بن الأغلب حاكم القيروان . / الروض المعطار : (قلوريه) .

(٢) هي قصريانه التي تقدم ذكرها .

وأضحت لهم سرقوسة دار منعة * يزورون بالديرين فيها النواوسا .

مشوا فى بلاد أهلها تحت أرضها * وما مارسوا منهم أبيا ممارسا .

ولو شققت تلك القبور لأنهضت * اليهم من الأجداث أسد عوابسا .

ولكن رأيت الخيل ان غاب ليثه * تبختر فى أرجائه الذئب مائسا .

وهنا يتعجب الشاعر من فعل الزمان ، وتلونه بعد أن أقص ظل الاسلام من الجزيره ، وسكنت شياطين الكفرة بالبروج التى كانت تقذفهم بالنار المحرقه فيما مضى ، وقد استباحوا - أيضا - مدينة سرقوسه مسقط رأس الشاعر ، واستأسد حتبها الكلاب بعد غياب ليوثها .

وله فى بكائها من قصيدة أخرى (١) :-

ذكرت صقلية والأسى * يهيج للنفس تذكارها .

ومنزلة للتصابى خلت * وكان بنو الظرف عمارها .

فان كنت أخرجت من جنة * فانى أحدث أخبارها .

ولولا ملوحة ماء البكا * حسبت دموعى أنهارها .

ضحكت ابن عشرين من صبوة * بكيت ابن ستين أوزارها .

وهو فى هذه الأبيات يتذكر أيام شبابه التى قضاها مع أترابه فى موطنه الذى يمثل جنته التى أخرج منها ، لذا تراه يذرف الدمع بمواره كلما هاجته الذكرى ، وهزه الشوق . وأسلوب الشاعر فى رثائه قوى رصين مع ميل الى الصنعة والمحسنات ، وتبدو عنده قوة العبارة عندما يصف أفعال أسلافه الأبطال مجدا ومخلدا ، ولعل نشأته الأولى فى صقليه حيث الحروب التى ربما اشترك فى بعضها صقلت موهبته واكسبتها شيئا من اللحن الحماسى ، أما معانيه فليس فيها جديد ، الا أن عاطفته الجياشه ، هى محور جودة رثائه .

---

(١) ديوانه : ١٨٣ ، أعمال الأعلام : ٧٣/٣ .

رثاء القيروان :- (١)

بنى عقبة بن نافع - رضى الله عنه - مدينة القيروان عند فتحه لأفريقيا في عهد معاوية بن أبى سفيان ، وذلك ليتخذها مركزا للرباط والجهاد في سبيل الله . وتوالى عليها الأمراء من قبل الدولة الأموية أمثال حسان بن النعمان ، وموسى بن نصير ، وعبيد الله بن الحباحب الذين عربوا دواوينها ، وأنشأوا فيها دارا لبناء السفن . وعندما انتقلت الخلافة الى العباسيين تبعتهم افريقيا اسميا ، حيث استطاع بنو الأغلب أن يؤسسوا فيها دولة قوية جعلوا القيروان عاصمة لها الى أن بسط الفاطميون سلطانهم على المغرب - كما أوضحناه سابقا - وعندما استولى الفاطميون على مصر وانتقلوا اليها ، وضعوا على المغرب ولاة من البربر الصنهاجيين (٢) وأولهم يوسف بن بلكين الذى صرف همه الى توسيع رقعة دولته وتقويتها الى أن توفى ، وخلفه ولده باديس الذى سار على دربه ولكن عهده كان مشحونا بثورات البربر المتكرره بقيادة عمه حماد الذى كان ينازعه السلطان (٣) ، وظل الأمر كذلك الى أن توفى باديس سنة ست وأربعمائه وجاء بعده ولده المعز

---

(١) قاعدة بلاد أفريقيا ، وأم مدائنها ، عظيمة القدر ، كثيرة السكان والأموال يغلب على أهلها الصلاح والتفنن فى العلوم ، وفيها جامع عقبة المشهور بروعة بنائه ، واجتماع العلماء والطلاب فى فنائه ، وقد تم بناء القيروان سنة ٥٥ هـ / انظر : الروض المعطار (القيروان) ، - معجم ما استعجم : فصل القاف والياء .

(٢) أبو القاسم كرو ، عصر القيروان : ٢١ .

(٣) عبد الرحمن ياغي ، حياة القيروان : ٤٨ .

الذى استطاع أن يخمد الثورات ويزيل الخلافات ، وكانت ولايته فى عهد الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله الذى سير للمعز الهدايا والخلع ولقبه بشرف الدوله ، ولكن المعز كان يكره مذهب الشيعه فأخذ يفكر فى الاستقلال عنهم وقطع دعوتهم فى افريقيا ، فتخلى عن نصرة الشيعة فى الثورة التى قامت ضدهم سنة خمس وثلاثين وأربعمائه وذبح منهم فيها أعداد كبيرة (١) ، الأمر الذى أثار حفيظة الخلافة الفاطمية فأرسل الخليفة الفاطمى المستنصر بالله للمعز تهديدا وتوبيخا ، فما كان من المعز الا أن جاهر بخلع ولائه لهم وصرح بعدائهم ، ودعا للخليفة العباسى الذى وافاه بالتقليد والاعتراف باستقلاله فى افريقيا سنة أربعين وأربعمائه (٢) . وكانت الدولة الفاطمية فى ذلك الوقت قد بلغت من الضعف حدا جعلها تقف عاجزه عن بعث قوة عسكريه لمحاربة المعز فلجأ وزيرهم (اليازورى) الى الانتقام بواسطة الأعراب الذين كانوا يقطنون صعيد مصر ، فساعدهم بالأموال ، وجعل لهم جميع مايستولون عليه من الغنائم فانتشرت جموعهم فى البلاد كالجراد تسلب وتنهب كل ماتقدر عليه . ولم يعبأ بهم المعز فى بداية الأمر وقرب زعيمهم (مؤنس الرياحى) الذى أخلص الطاعة والنصح ، فعندما طلب منه المعز أن يدعو قومه ليتخذ منهم بطانة رفض ذلك موضحا عدم صلاحيتهم ، وقلة وفائهم ، فاعتبر المعز ذلك منه احتكارا للسيادة والقربى دونهم ، فرضخ لطلب المعز ودعاهم فعاثوا فى الأرض فسادا ، فطلب اليه اخراجهم فاعتذر بعدم قدرته ، فعاقبه المعز بحبس أرزاقه وأهله ، فكان ذلك سببا للزحفة الماحقة سنة أربع وأربعين وأربعمائه (٣) حيث انكسر جيش المعز كسرة شنيعة ، وحاول أن يصالحهم ويزوج بناته من بعض أمرائهم ، ولكن ذلك لم

---

(١) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ : ٩/٢٥٦ .

(٢) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام : ٣/٧٣ - ٧٤ .

(٣) محمد المرزوقى ، أبو الحسن الحصرى القيروانى : ١٢ .

يجد معهم نفعا فزحفت جموعهم الهائله على القيروان وخربوها تخريبا هائلا ، ودكوا حصونها وطمسوا معالمها ، فتشتت أهلها شرقا وغربا وتركوا مدينتهم نهبا للفوضى والخراب ، فلم يبق فيها دار الا دخلت عندئذ نادى المعز بالرحيل الى المهدية (١) ومكث فيها الى أن توفى سنة ثلاث وخمسين وأربعمائه . ولقد كانت القيروان أيام المعز فى أوج عزها العلمى والأدبى حيث كان هو شاعرا كبيرا ، وكان بلاطه عامرا بأهل الشعر والأدب بالاضافة الى العلوم الشرعية وغيرها ولقد صور شعراء القيروان نكبة بلادهم أروع تصوير وخلدوها بقصائد لاتبليها الأيام ومن ذلك قول ابن رشيق القيروانى (٢) يبكى ذوى الفضل من أهلها (٣) :-

كم كان فيها من كرام سادة * بيض الوجوه شوامخ الايمان .

متعاونين على الديانة والتقى * لله فى الاسرار والاعلان .

ومهذب جم الفضائل باذل * لنواله ولعرضه صوان .

---

(١) مدينة بساحل افريقيه بناها عبيد الله الشيعى الملقب بالمهدى سنة ٣٠٠هـ فسميت المهديه نسبة اليه . وبينها وبين القيروان ٦٠ ميلا ويحيط بها البحر من جهاتها الثلاث ومدخلها من جهة الغرب ، وهى محط سفن المشرق والأندلس . / الروض المعطار (المهديه) .

(٢) هو أبو على ، الحسن بن رشيق القيروانى ، كان أبوه من موالى الأزد ، ولد الحسن فى المسيله سنة ٣٩٠هـ ، فلما نبغ فى الشعر والأدب رحل الى القيروان قبلة الطلاب والتقى فيها بالعلماء والفصحاء . ثم غادرها الى المهدية ثم الى صقليه حيث توفى هناك سنة ٤٦٣هـ . ومن آثاره الهامه ، كتاب العمدة ، قراضة الذهب ، الشذوذ فى اللغة وغير ذلك . انظر / الوفيات : ٢/ ٨٥ ، العمدة : ١/ ١٠ .

(٣) القصيدة فى ديوانه : ٢٠٤ - ٢١٢ ، مختارات من الشعر الأندلسى : ٢١١ - ٢١٣ .

وأئمة جمعوا العلوم وهذبوا * سنن الحديث ومشكل القرآن .

علماء ان سالتهم كشفوا العمى * بفقاهة وفصاحة وبيان .

واذا الأمور استبهمت واستغلقت أبوابها وتنازع الخصمان .

حلوا غوامض كل أمر مشكل * بدليل حق واضح البرهان .

واذا دجا الليل البهيم رأيتهم * متبتلين تبتل الرهبان .

فى جنة الفردوس أكرم منزل * بين الحسان الحور والغلمان .

تجروا بها الفردوس من أرباحهم * نعم التجارة طاعة الرحمان .

وترى جبابرة الملوك لديهم * خضع الرقاب نواكس الأذقان .

لا يستطيعون الكلام مهابة * الا اشارة أعين وبنان .

خافوا الاله فخافهم كل الورى * حتى ضراء الأسد فى الغيلان .

تنسيك هيبتهم شماخة كل ذى * ملك وهيبة كل ذى سلطان .

أحلامهم تزن الجبال وفضلهم * كالشمس لا تخفى بكل مكان .

كانت تعد القيروان بهم اذا * عد المنابر زهرة البلدان .

وزهت على مصر وحق لها كما * تزهو بهم وغدت على بغدان .

يتأسف ابن رشيق على القمم الشامخه من العلماء الكرام الذين كانت تزخر بهم القيروان ثم بادوا بعد أن دمرت ، وهو لا يصرف همه بطول التأسف والتحسر بل يقوم برسم صورة واضحة مشرقه لأولئك الأبرار تشكل فى مجموعها المثالية المطلقه التى يمكن أن يصل اليها البشر . فهم قد جمعوا جلّ الفضائل بعلمهم القرآن والحديث مع الغوص فى مسائل الفقه والبيان . بحيث كانوا النور الذى يستضوء به الناس فيما أشكل عليهم ، وبالاضافة الى هذا العلم كانوا على جانب عظيم من التقوى والورع والعباده فأسبغ الله عليهم الهيبة والوقار التى لا تذكر معها هيبة ملك أو سلطان ، فحق للقيروان أن تفخر بهذا الذخر العظيم وأن تتيه به على أشهر مراكز العلم آنذاك بغداد ومصر .

والملاحظ على شعر ابن رشيق فى وصف هؤلاء العلماء ، الاحتواء على المعانى القرآنيه السامية التى تحث على العلم وتمتدح أهله وتحث أيضا على العبادة والتقى وارخاص النفس فى سبيل الله .

ثم ينتقل الى وصف الخراب والفتك الذى أصاب المدينة على يد الأعراب فيقول :-

حسنت فلما أن تكامل حسنها * وسما اليها كل طرف ران .

وتجمعت فيها الفضائل كلها * وغدت محل الأمن والايمان .

(١)
نظرت لها الأيام نظرة كاشح * ترنو بنظرة كاشح معيان .

حتى اذا الأقدار حم وقوعها * ودنا القضاء لمدة وأوان .

(٢)
أهدت لها فتنا كليل مظلم * وارادها كالناطح العيدان .

(٣)
بمصائب من فادع وأشائب * ممن تجمع من بنى دهمان .

فتكوا بأمة أحمد أتراهم * أمنوا عقاب الله فى رمضان .

نقضوا العهود المبرمات وأخفروا * ذمم الاله ولم يفوا بضمان .

فاستحسنوا غدر الجوار وآثروا * سبى الحريم وكشفة النسوان .

ساموهم سوء العذاب وأظهروا * متعسفين كوامن الأضغان .

ان هذه المدينه لما بلغت أوجها وغدت محط الأنظار والآمال رمتها الأيام بقوارعها وفتنها المظلمة فما بعد الارتفاع الا الهبوط ، وكان ذلك على يد أولئك الفاتكين المتوحشين الذين لا يعرفون عهدا ولا ميثاقا ، ولا يحترمون جوارا ، ولا يرحمون ضعاف المسلمين ، ونساءهم اللواتى أخذن أسيرات .

---

(١) الكاشح : الذى يضمر العداوه . الصحاح (كشح) ، معيان : يصيب بعينه وهنا للمبالغة فى الضرر .

(٢) الناطح : الخطب الشديد ، العيدان : طوال النخل ./ الصحاح : (نطح) ، (عود) .

(٣) بنو دهمان : قصد بهم الأعراب وهم قبائل هلال ، ورياح وزغبه وغيرهم .

وتشتد عاطفة الحزن عند الشاعر عندما يتحدث عما نال أهل القيروان من الأذى قائلا :-

والمسلمون مقسمون تنالهم * أيدى العصاة بذلة وهوان .
مابين مضطر وبين معذب * ومقتل ظلما وآخر عان .
يستصرخون فلايغاث صريخهم * حتى اذا سئموا من الارنان . (١)
خرجوا حفاة عائذين بربهم * من خوفهم ومصائب الألوان .
هربوا بكل وليدة وفطيمة * وبكل أرملة وكل حصان .

وبعد هذه الصورة الحيه النابضة بالحزن والأسى ، والتى نرى من خلالها مسلى القيروان وقد سيموا الذل فهم بين معذب حائر أسير يصرخ مستغيثا فلا يجاب وبين قتيل ذهب ضحية الظلم والبغى .

كما نشاهد فى الصورة تلك الفئه التى خرجت هائمه تحمل معها الأطفال الصغار والنساء خوفا من العار والبلاء . وهذه الصورة المجسمة هى أجود مافى قصيدة ابن رشيق على طولها ، وبعدها ينتقل الى رثاء المسجد الجامع وهو من أبرز معالم القيروان :-

والمسجد المعمور جامع عقبة * خرب المعاطن مظلم الأركان .
قفر فما تغشاه بعد جماعة * لصلاة خمس لا ، ولا لأذان .
بيت به عبد الاله وبطلت * بعد الغلو عبادة الأوثان .
بيت بوحى الله كان بناؤه * نعم البنا والمبتنى والبانى .

---

(١) الارنان : الصراخ ، ورفع الصوت . الصحاح (رنن) .

ثم يبين قيمة مدينة القيروان بالنسبة للعالم الاسلامي كله من خلال ذكر ما أصاب الأقطار من الأسف والنكد والتزعزع لأجلها :

أعظم بتلك مصيبة ماتنجلي * حسراتها أو ينقضي الملوان . (١)

لو أن ثهلانا أصيب بعشرها * لتدكدكت منها ذرا ثهلان . (٢)

حزنت لها كور العراق بأسرها * وقرى الشام ومصر والخرسان .

وتزعزعت لمصابها وتنكدت * أسفا بلاد الهند والسندان .

وعفا من الأقطار بعد خلائها * مابين أندلس الى حلوان .(٣)

وأرى النجوم طلعن غير زواهر * في أفقهن وأظلم القمران .

والأرض من وله بها قد أصبحت * بعد القرار شديدة الميلان .

وفي ختام القصيدة للشاعر رجاء مشوب بكثير من التوجس بأن يرجع عهد القيروان الزاهر ، وترجع اليها بشاشتها التي سلبتها الأيام الكاشحه .

أترى الليالي بعد ماصنعت بنا * تقضي لنا بتواصل وتدان ؟

وتعيد أرض القيروان كعهدها * فيما مضى من سالف الأزمان .

من بعد ماسلبت نضائر حسنها الـ أيام واختلفت بها فتتان .

وغدت كأن لم تغن قط ولم تكن * حرما عزيز النصر غير مهان .

أمست وقد لعب الزمان بأهلها * وتقطعت بهم عرا الأقران .

فتفرقوا أيدي سبا وتشتتوا * بعد اجتماعهم على الأوطان .

---

(١) الملوان : الليل والنهار / أساس البلاغه (ملو) .

(٢) ثهلان : جبل في اليمن ، يضرب به المثل في الثقل ./ المصدر نفسه (ثهلان) .

(٣) حلوان : مدينة سهلية جبلية على سفح الجبل المطل على العراق . / الروض المعطار (حلوان) .

أما أسلوب القصيدة فتغلب عليه السهولة فى الألفاظ والمعانى الى درجة تقربه من النثر فى كثير من المواضع ، والقصيدة تظهر مايتمتع به صاحبها من نفس طويل ، وشاعرية فذه ، وقد ركّز رثاءه ، وبكاءه على أهلها مطنبا فى مدحهم ، ثم مبينا حالهم بعد أن فتك بهم الأعراب . أما المدينة ذاتها ومانالها من دمار فلم يفصله الا ماكان من أمر المسجد الجامع الذى لفّه سكون الموت بعد ذهاب عماره . غير أنه أجاد فى وصف وقع خرابها لا على بقاع العالم الاسلامى فى المشرق والمغرب فحسب بل على النجوم التى لم تعد تزهر وتلمع، وعلى والقمرين اللذين انكسف ضياؤهما حزنا وغما ، أما الأرض فهى مضطربه مائده . وهذا العطف الرومنسى من جانب الكواكب ،والطبيعة على تلك المدينه البائسه يدل على مدى الحزن العميق الذى شف نفس الشاعر فجعله يتخيل مشاركة كل شئ له فى آلامه التى لا نهاية لها .

ومن رثى القيروان - وأطال فى ذلك - شاعرها ابن شرف القيروانى (١) اذ يقول فى اذلال أهل سوسه (٢) جالية القيروان (٣) :-

---

(١) هو أبو عبد الله محمد بن أبى سعيد بن شرف الجذامى القيروانى . شاعر رقيق ، وكاتب مترسل ، وناقد بارع . ولد بالقيروان سنة ٣٩٠ وتعلم فيها علوم المعقول والمنقول حتى برع . ألحقه المعز بن باديس حاكم القيروان بديوانه وخاصته ثم رحل الى الأندلس عند خراب القيروان حيث توفى باشبيليه سنة ٤٦١هـ وكانت بينه وبين ابن رشيق منافسه ومهاجاه . انظر : الخريده : ق٤ ، ج٢ ص ١١٠ - ١١١ ، كرد على ، رسائل البلغاء : ٣٠٢ ، المطرب : ٦٦ ، فوات الوفيات : ٢/ ٢٠٤ .

(٢) مدينة قديمه على ساحل البحر ، كثيرة السكان والمساجد ، عامرة الأسواق وتشتهر بصناعة الثياب الرقيقه التى تنسب اليها . ويحيط بها سور حصين ، ومنها تحرك أسد بن الفرات لغزو صقليه ./ الروض المعطار (سوسه) .

(٣) الذخيره : ق٤ ، ج١ ، ص ٢٢٧ - ٢٢٩ .

آه للقيروان أنة شجـــو * عن فؤاد بجاحم الحـزن يصلـى .
حين عادت به الديار قبورا * بل أقتول الديار منهن أخلـى .
ثم لا شمعة سوى أنجم تخـ * ـبو على أفقها نواعس كسلـى .
بعد زهر الشماع توقد وقدا * ومتان الذبال تفتل فتـــلا .
والوجوه الحسان أشرق منهن * ن ويفضلنهن معنى وشكـــلا .
لو رأيت الذين كان لهم سهـ * لك وعرا قد صيروا الوعر سهـــلا .

يطلق ابن شرف زفراته الحزينه المعبره عما فى قلبه المعذب من الألـــم المبرح نتيجة ماحل بأحبابه من البأس فهلك من هلك ، وتشرد الباقـون فـــى الأرض حتى عادت منازلهم منهم خلاء هى أشبه بالمقابر التى يخيم عليها شبـح الموت المظلم . ثم ينتقل الى مشهد آخر يرسم صورة رحيل أهل البلاد عنهـا فيقـــول :-

بعد يوم كأنما حشـر الخلـــ * ـق حفاة به عوارى رجلـــى .
ولهم زحمة هنا لك تحكـــــى * زحمة الحشر والصحائف تتلـى .
وعجيج وضجة كعجيــج الـــ * ـخلق يبكون والسرائر تبلـــى .
من أيامى وراءهن يتامــــى * ملئوا حسرة وشجوا وثكـــلا .
وثكالى أراملا حـامــــلات * طفلة تحمل الرضاع وطفـــلا .
وحصان كأنها الشمس حســـنا * كفنتها الأطمار نجـلاء كحـلا .
بات كرسيها الجـلاء فأضحت * فى ثياب الجلاء للناس تجلـى .
جار فيهم زمانهم وأولــــو الأمـ * ـر فقروا يرجون فى الأرض عدلا .
تركوا الربح والأثاث ومايثـــــ * ـقل لا حامل من الناس ثقـــلا .
لبسوا الباليات من خشن الصـــو * ف وعاد النبيه فى الناس غفـلا .
نادبات ، عفراء تسعد سعــدى * وسعاد تجيب بالنوح جمـــلا .
ليس منهن من يودع جــــارا * لا ، ولا حرمة تشيع أهـــلا .

انها صورة رهيبة قوامها الحس والحركه والتجسيم الملون لتفاصيل المشهد الذى يشبهه الشاعر بمشهد الحشر يوم القيامة مستعينا بمعانى الآيات القرآنية ، والأحاديث النبويه الوارده فى أهوال ذلك اليوم . فالقوم حفاة عراة ، خرجوا من بلادهم هائمين على وجوههم ، قد غصت بهم الطرق والمسالك ، وكأنهم فى زحمة الحشر عند انتشار صحف الأعمال ، وقد اختلط ضجيجهم بالبكاء والنوح المنبعث من الثكالى واليتامى الذين مزقهم الحزن وملأت قلوبهم الحسرة فلم يعودوا يهتدون سبيلا ، ومن المحصنات اللواتى كشفن للعيان بعد الحجاب والستر .

ويلتقى الشاعر تبعة ماحصل لهؤلاء الناس من الذل والهوان على الزمان وعلى الحكام الظلمة الذين من جورهم هرب الناس من بلادهم رجاء أن يصيبوا عدلا فى أرض أخرى . وفى سبيل ذلك تركوا العيش الرغيد لاختلاطه بالمرارة والقهر ، ولبسوا البالى ، وسيطر عليهم الذهول ، فلا جار يودع جاره ، ولا امرأة تعرف أهلها ، ولكن هل وصل هؤلاء المهاجرون الى بر الأمان الذى ينشدونه ؟ كلا فلقد عرض لهم الأعراب ونهبوهم ، ومزقوهم كل ممزق ، والى ذلك يشير قائلا :-

فاذا القفر ضمهم فوق الدهـ * ـر لهم غير ذلك النبل نبلا (١) .

من ثعابين حاطين نهوبا * عصلا : ذابلا ونهلا ونصلا .

وشياطين رامحين يلاقو * ن بجون الفلا ساكين عزلا .

فترى للظهور تعتل عتلا * وتشق البطون تغسل غسلا .

فاذا مطمع أصابوه فى أحـ * ـشاء قوم عموا بذلك كلا .

---

(١) الفوق : موضع الوتر من السهم ، وأفقت السهم ، أى وضعت فوقه فى الوتر لأرمى به انظر الصحاح (فوق) .

ان ابن شرف قد تفاعل مع هذه الصور - التى يرسمها بمهارة - تفاعلا حيويا نتج عن تجربة صادقة مرّ بها وعاشها فلقد كان بين المشردين الذين هجروا وطنهم (القيروان) واتجه الى الأندلس ، لذلك نراه يصدر عن عاطفة جياشة تلون شعره بالحزن والشحوب . فبعد أن عدت تلك الثعابين والشياطين على المساكين العزّل ، وضرستهم بأنيابها وشقت بطونهم بحثا عن المغانم المخبأة فيها . بعد هذا يعود ليبين حال من بقى حيا يتجرع غصص المذلة أينما اتجه فيقول :

فاذا نجت المقادير منهم ✱ راحلا بالخلاص يحمل رحلا .

لقى الهون فى المذلة أنسى ✱ كان من سائر البلاد وحلا .

ليس يلقى الا امرأ مستطيلا ✱ طالبا عنده حقودا وذحلا (١) .

فترى أشرف البرية نفسا ✱ ناكسا رأسه يلاطف نذلا .

فهم كلما نبت بهم أر ✱ ض مطايا الفراق خيلا ورجلا .

مزقوا فى البلاد شرقا وغربا ✱ يسكبون الدموع هطلا ووبلا .

لا يلاقى النسيب منهم نسيبا ✱ يتعزى به ولا الخل خلا .

ليت شعرى هل عودة لى فى الغيب الى ماأطال شجوى أم لا ؟

والشاعر هنا يتحدث عن مرارة الاغتراب التى ذاقها مع غيره من الناس ، فهو يشعر بالقلق الدائم والتوجس من الناس الذين لا يرى فيهم الا أعداء حاقدين يطلبون ثأرهم ، عند أولئك الغرباء ومن ثم اضطر الغرباء أولو الشرف والكرامة الى تملق الأنذال والتلطف اليهم فى سبيل العيش معهم ، بعد

---

(١) الذحل : الثأر . اللسان (ذحل) .

أن تمزق شملهم شرقا وغربا . أما تمنى الشاعر فى البيت الأخير فلم يتحقق فقد ظل يقاسى آلام الغربة حتى مات بعيدا عن وطنه .

وفى قصيدته الثانيه يصف خلاء القيروان وايحاشها فيقول :- (١)

كأن الديار الخاليات عرائس * كواسد قد أزرت بهن الضرائر .

اذا أقبل الليل البهيم تمكنت * بها وحشة منها القلوب نوافر .

ولا سرج الا النجوم وبعدها * تغطت فسدت جانبيها الدياجر .

ويمتد عمر الصوت فيها وربما * تجوب مرارا بالكلام المقابر .

فلو نطقت ماكان أكثر نطقها * سوى قولها أين الخليط المعاشر .

ألا منزل فيه أنيس مخالط * ألا منزل فيه أنيس مجاور .

لقد كانت نكبة القيروان عامة طامّة ، فانطفأت بخرابها وهدمها مصابيح حضارتها الزاهره وتغيرت صورتها المشرقه فغدت أطلالا موحشه تنفر منها القلوب لظلمتها ، وتتجاوب فى نواحيها الأصداء وتعوى بها الرياح حيث لاساكن ولا أنيس . ولكن ياترى ماسبب هذا البلاء الذى حلّ بهذه المدينه ؟ هذا مايتساءل عنه الشاعر :

ترى سيئات القيروان تعاظمت * فجلت عن الغفران والله غافر ؟

تراها أصيبت بالكبائر وحدها * ألم تك قدما فى البلاد الكبائر ؟

هل كان سبب محنتها ذنوبها الكثيرة التى لم يتجاوز عنها الله -سبحانه- ؟ ثم لماذا أصيبت وحدها بالمحن بالرغم من وقوع الكبائر والأوزار فى غيرها من البلدان الكثيرة ، ولعل هذا الاستفهام الذى خرج الى التعجب من قدر الله قادت اليه عاطفة الحزن الشديده التى لم يستطع الشاعر ضبطها ، والا ليس

---

(١) القصيده فى الذخيره : ق٤ ، ج١ ، ص ٢٣٥ .

لأحد أن يعترض على حكم الله فالله الخلق والأمر يعذب من يشاء ، ويرحم من يشاء . ثم يعود الشاعر لوصف حال أهل القيروان ومالاقوه من المشاق في رحيلهم على نحو مافعل في القصيدة السابقة :-

ترحّل عنها قاطنوها فلا ترى * سوى سائر أو قاطن وهو سائر .

تكشفت الأستار عنهم وربما * أقيمت ستور دونهم وستائر .

اذا جاذبت أستارها تبتغى بها * لاقدامها سترا تبدت غدائر .

تبيت على فرش الحصى وغطاؤها * دوارس أسمال زوار حقائر .

ثم يتمنى أن يعود الى مدينته التى قضى فيها ليالى السرور أيام اجتماع الشمل : (١)

فياليت شعر القيروان مواطنى * أعائدة فيها الليالى القصائر ؟

وياروحتى بالقيروان وبكرتى * أراجعة روحاتنا والبواكر ؟

كأن لم تكن أيامنا منك طلقة * وأوجه أيام السرور سوافر .

كأن لم يكن كل ولا كان بعضه * سيمضى به عصر ويمضى المعاصر .

ويزداد الشوق عند ابن شرف لرؤية موطنه القيروان ، وتهيجه الذكريات فيطلق آهاته من بعيد من وراء البحر ، ويود لو كان طائرا لكى يطيل التحليق فى سمائها متأملا يقول :- (٢)

ياقيروان وددت أنى طائر * فأراك رؤية باحث متأمل .

آها وأية آهة تشفى جوى * قلب بنيران الصبابة مصطلى .

أبدت مفاتيح الخطوب عجائبا * كانت كوامن تحت غيب مقفل .

زعموا ابن آوى فيك يعوى والصدى بذراك يصرخ كالحزين المثكل .

---

(١) هكذا جاء البيت فى المصدر السابق ص ٢٢٥ ولعل الصواب : فياليت شعرى ......

(٢) المصدر السابق : ١٨١ - ١٨٢ ، ص ٢٢٣ .

ان الشاعر مهما بعد وطالت غربته ، ومهما لقى من الاحسان والتقدير فانه لن ينسى وطنه الأول يقول :

يالو شهدت م اذ رأيتك فى الكرى * كيف ارتجاع صباى بعد تكهل .

لا كثرة الاحسان تنسى حسرة * هيهات تذهب علة بتعلل .

واذا تجدد لى أخ ومنادم * جددت ذكر اخاء خل أول .

انه دائم الذكر لها والتشوق اليها ، فلما أسعده الحظ مرة برؤيتها فى المنام شعر بانتعاش وقوه وكأنه رجع الى طور الشباب بعد أن أكتهل ، وهى صورة جميلة لمدى التعلق بالوطن الذى انغرس حبه فى نفس الشاعر فمهما وجد من الخير والتكريم خارج هذا الوطن الغابر فان ذلك لا يعدو كونه تعلة وتسلية . أماكوا من الأحزان والحسرات فلم تبرح قلبه ، واذا ما اتخذ خلا جديدا فى غربته فان ذلك يذكّره باخوانه السابقين فهو بذلك يعيش فى الحاضر مستلهما ذكريات الماضى التى لا تنمحى .

وفى قصيدة أخرى يكرر الشاعر نفس الصوره وهى رؤية القيروان فى الكرى ومدى سعادته فى تلك اللحظه القصيره التى أورثته حزنا طويلا اذ حرم من رؤيتها حقيقة بسبب أولئك الأعراب الذين تملكوها يقول :- (١)

اذا كان للأحباب رسل فرسلنا * بروق الى أحبابنا ورياح .

ومن دون تلك الرسل أخضر زاخر * أجاج ومهجور الفجاج فياح .

وللسهم دون القيروان تسهم * وماشوكه الا ظبى ورماح .

(٢)
وقرة قد قرت هناك عيونها * وزغبة ريشت زغبها ورياح .

---

(١) الذخيره : ق ٤ ، ج ١ ، ص ١٨٤ ، ، ص ٢٣٦ .

(٢) قره وزغبه ورياح هى قبائل الأعراب التى تولت خراب القيروان .

كأن لم يكن لى أمس فى عرصاتها * من العيش جد طيب ومزاح .
يخيلها زور الكرى لى فى الدجى * فأرغب فى ألا يلوح صباح .
كسيت قناع الشيب قبل أوانه * وجسمى طيه للشباب وشاح .

ان الشاعر هنا يستشعر الغربة والبعد المكانى بينه وبين أحبابه من أهل القيروان حيث بينهما البحار والقفار ، لذا فهو يزجى تحياته لهم فى طيات الرياح ولمعان البروق . كما أنه لا ينسى البعد النفسى الذى يمنعه من الرجوع الى بلده ، وهو أولئك الأعراب الذين زرعوا أرض القيروان شوكا وخناجر ودماء .

وبعد فمن جملة هذه القصائد الرثائية يتضح لنا أسلوب الشاعر الذى تميز بالوضوح ودقة التصوير مع البعد عن التكلف ، فقد جاء رثاؤه نابعا من قرارة نفسه ووجدانه ، ولعب احساسه الواقعى بالمأساة دورا بارزا فى جيشان عاطفته والهابها فترجم ذلك الحزن والألم الى صور شعرية نابضة بالحركة تتحلى بالخيال أحيانا . ولعله فى هذا الجانب فاق زميله ومعاصره ابن رشيق القيروانى فى رثائه المتقدم . ومن ناحية أخرى فان شعر ابن شرف فى رثاء القيروان قد خلا تماما من الألفاظ والمعانى الحماسيه ومن الاستصراخ وطلب النجدة لانقاذ البلاد . فقد كان تفاعله مع النكبة ذاتيا فى حدود نفسه فتفنن فى استعمال معجم ألفاظ الحزن ، فنجد التأوه والزفرات الحاره ، والحسرات المؤلمه ، والقلب الذى اصطلى بنار الشوق والبعد .... الخ . ولعل الشاعر سلك هذا السبيل لأنه لم يجد من يستنصره ، فقد كان يعيش فى الأندلس فى عصر ملوك الطوائف حيث الفوضى والصراع الداخلى بينهم ، والخارجى مع النصارى على أشده وكانوا جميعا أضعف من أن تمد اليهم الأيدى أو يرجى منهم خير . والخلافة العباسية قد

دب فيها الضعف بالاضافة الى بعد الشقة ، ووقوف الدولة الفاطمية في مصر حائلا بينها وبين القيروان .

ولأبى الحسن الحصرى (١) قصيدة فى رثاء القيروان وأهلها يقول فيها (٢) :-

موت الكرام حياة فى مواطنهم * فان هم اغتربوا ماتوا وماتوا .

ياأهل ودى لا والله ماانتكثت * عندى عهود ولا ضاقت مودات .

لئن بعدتم وحال البحر دونكم * لبين أرواحنا فى النوم زورات .

مانمت الا لكى ألقى خيالكم * وأين من نازح الأوطان نومات . ؟

اذا اعتللنا تعللنا بذكركم * لو أحسنت برء علات تعلات .

ماذا على الريح لو أهدت تحيتها اليكم مثل ماتهدى التحيات . ؟

يفتتح الحصرى قصيدته بهذا المطلع الذى يحوى حكمة من مارس تجربة الاغتراب المريره وناله فيها ماناله من الضيم والأذى ، فقد كان أحد الذين هاجروا عند خراب القيروان الى المغرب ثم الى الأندلس حيث جال فى عدد كبير من نواحيها يمتدح ويتكسب . لذا نراه يعتبر الموت الكريم فى الوطن خيرا من الغربة التى تضيع فيها الهويه وينسى ذوى الفضل . ونراه - أيضا - يؤكد على صدق مودته لأهل بلده مهما طال الزمان وبعدت الشقة ، فهو لا ينام الا لكى يلقى خيال الأحبة فى المنام وتمتزج الأرواح فيشفى ذلك مابه من العلل . والملاحظ على هذه الأبيات أنها تحمل نفس الأفكار والمعانى التى

---

(١) هو على بن عبد الغنى الفهرى الضرير المعروف بالحصرى . شاعر أديب ، رخيم الشعر ، حديد الهجو ، كان عالما بالقراءات . رحل الى الأندلس عند خراب القيروان فلقى حظوة عند ملوك الطوائف ولما زالوا استقر بطنجة ومات فيها سنة ٤٨٨ هـ وهو ابن خاله أبى اسحاق الحصرى صاحب " زهر الآداب " / انظر ترجمته : الوفيات : ٣ / ٣٣١ ، الحلة السيراء : ٢ / ٥٤ ، جذوة المقتبس : ٣١٤ .

(٢) الذخيره : ق ٤ ، ج ١ ، ص ٢٧٧ .

جاءت في شعر ابن شرف السابق ذكره بل ان الأمر قد يصل الى الألفاظ .
ألم يقل ابن شرف " هيهات تذهب علة بتعلل " وقال الحصرى " لو أحسنت بمز* علات تعلات " ومثل هذا كثير عند تأمله . فكلاهما يبعث تحياته مع الرياح وكلاهما يرى أطياف الأحبه فى الكرى وما الى ذلك . ولعل كونهما متعاصرين والشعر قيل فى موضوع واحد هو الذى جعل الحافر يقع على الحافر ، أو ربما هو التأثر والتأثير فى موقف معين .

ثم يبكى الشاعر أسفا عندما تهيج أشجانه ذكرياته الماضيه فى القيروان :-

أصبحت فى غربتى لولا مكاتمتى * بكتنى الأرض فيها والسموات .
كأننى لم أذق بالقيروان جنى * ولم أقل ها لأحبابى ولا هاتوا .
أبعد أيامنا البيض التى سلفت * تروقنى غدوات أو عشيات . ؟
أمرّ بالبحر مرتاحا الى بلد * تموت نفسى وفيها منه حاجات .
وأسأل السفن عن أخباره طمعا * وأنثنى وبقلبى منه لوعات .
هل من رسالة حب أستعين بها * على سقامى فقد تشفى الرسالات ؟

ان الشاعر يعيش فى قلق دائم ، وبؤس مستمر فلم تعد تروقه لذائذ العيش بعد أن ولت أيامه الجميله فى بلده الأول ، وانما همه الآن أن يسمع شيئا من أخبار القيروان ، فهو يناشد السفن القادمه من تلك الديار لعلها تحمل اليه مايشفى فؤاده السقيم المعذب . ثم ينتقل بعد ذلك الى وصف مدينته الخربه - أيام عزها ، فيجعلها جنة ترابها المسك ، وحصاها الجوهر ، ويشبهها بالشمس التى لا يخفى نورها على أحد ومع ذلك يصيبها الكسوف فى بعض الأوقات :-

ألا سقى الله أرض القيروان حيا * كأنه عبراتى المستهلات . (١)

---

(١) الحيا : المطر الذى يحيى الأرض ويخصبها . الصحاح : (حيا) .

فانها لدة الجنات تربتهـــا * مسكيـه وحصاهـا جوهـريـــات .

الا تكن فى رباها روضة أنـف (١) * فانما أوجه الأحبـاب روضــات .

أولا يكن نهر عذب يسيل بهـا * فان أنهارها أيد كريمـــات .

أرض أريضة (٢) أقطار مباركـــة * لله فيها براهين وآيـــات .

لا يشمتن بها الأعداء ان رزئت * ان الكسوف له فى الشمس أوقـات .

ولم يزل قابض الدنيا وباسطها * فيمايشاء له محو واثبـــات .

وفى ختام القصيدة نرى الحصرى الغريب وقد تجسمت مأساته فأصبح ليله زفرات وأنات ونهاره حسرات يقـول :-

ماان سجا الليل الا زادنى شجنـا * فأتبعت زفراتى فيه أنـات .

ولا تنفست أنفا فى الرياض ضحـى * الا بدت حسراتى المستكنات .

هذا ولم تشج قلبى للرباب ربـى * ولا تقضته من لبنى لبانـات .

وكم دعيت لبستان فجدد لـى * وجدا وان كان فى معناه سلوات .

ولو ترانى اذا غنت بلابلـه * أشكو البلابل لو تغنى الشكيات .

انى لأظمأ والأنهار جاريـة * حولى وأضحى (٣) ودون الشمس دوحات .

ما أرى الموت الا باسطا يـده * من قبل أن يمكن المأسور افلات .

---

(١) الروض الأنف : الذى لم يرعه أحد . المصدر نفسه (أنف) .

(٢) أرض أريضه : زكيـه . اللسان (أرض) .

(٣) أضحى : أبرز للشمس . الصحاح (ضحى) .

ان حب القيروان قد سكن قلب الشاعر ، فهو لا يتكلم الا عنه ، وكلما رأى منظرا جميلا فان وجده يثور أو يضطرم صبابة اذا ماسمع غناء بلابل الدوح فيذهب ليبثها مايجد ، فلاتسمع شكايته حتى ضاقت به السبل واضطرب حاله وتأكد لديه أن الموت سيدركه قبل أن يعود الى وطنه ويروى ظمأه .

وهناك قصص مرثية القيروان لعبد الكريم بن فضال (١) القيروانى منها (٢) :-

ليت شعرى وليت حرف تمن * ربما علل الفؤاد السقيما .

كيف ياقيروان حالك لما * نثر البين سلكك المنظوما .

كنت أم البلاد شرقا وغربا * فمحا الدهر وشيك المرقوما .

نحن أبناؤها ولكن عققنا * بعد ان لم نطق بها أن نقيما .

دمن كانت البروج وكنا * أقمرا فى فنائها ونجوما .

وله أيضا :- (٣)

لله منزلنا بالقيروان محا * آياتها البين لا الأيام والقدم .

شققت ثوب شبابى بعد فرقتها * حزنا عليها ولا شيب ولا هرم .

---

(١) هو أبو الحسن عبد الكريم بن فضال القيروانى . كان يعرف بالحلوانى .
قال فيه ابن بسام : له كلام فى النسيب رائق ، ومتأخر سابق ، ومديحه أيضا عليه طلاوة ، وبالجملة ففى ألفاظ الحلوانى حلاوة .
انظر / الذخيرة : ق٤ ، ج ١ ، ص ٢٨٤ ، المطرب : ٥٩ .

(٢) الدباغ : معالم الايمان فى معرفة أهل القيروان : ١/ ١٤ .

(٣) المصدر نفسه : ١٣ .

ان الحزن والانكسار هو أبرز مايغلف هذه الأبيات فالشاعر يستفتح سؤاله عن القيروان بالتمنى المشرب باليأس ، لأنه على علم بحالها المتردى بعد أن كانت أم البلاد شرقا وغربا . ثم نراه يصف أبناءها بالعقوق لأنهم تمتعوا بخيراتها أيام الرخاء فلما جاءت الشدائد ودهمتها الخطوب فرّوا منها وتركوها تواجه مصيرها بمعزل عنهم ، والأبيات تنم عن عاطفة شفافة صادقة تجلت عند الشاعر بشكل حزن عميق أخلق منه شبابه وهو لا يزال بعيدا عن سن الشيخوخة والهرم .

وبعد فهذا الوفاء من شعراء القيروان لمدينتهم جعلها تحظى بهذا العدد الوافر من قصائد الرثاء التى ربما لم تحظ به غيرها من المدن والدول على مر عصور الأدب العربى . وربما كان لهذا الأمر دلالة أخرى وهى قوة الحركة الأدبية والازدهار الثقافى فى القيروان قبيل نكبتها .

رثاء مراكش (١) :-

عندما تولى يوسف بن تاشفين زمام الأمور فى الدولة المرابطيه صرف همه الى الجهاد فى سبيل الله وفتح نواحى المغرب ونشر الاسلام بين قبائل البربر فأعد لذلك جيوشا ضخمه ، قاد بعضها بنفسه ، ولم تمض بضعة أشهر حتى سيطر على معظم نواحى المغرب الجنوبيه والوسطى وعاد الى عاصمته أغمات (٢) وقد عظم أمره وذاع صيته ، وفكر عندئذ فى اقامة مدينة تكون قاعدة

---

(١) أكبر مدن المغرب الأقصى ، تقع فى سهل من الأرض ليس حولها الا جبل صغير يسمى ايجليز ، وعلى ثلاثة أميال منها نهر صغير يسمى تانسيفت ، وهى كثيرة البساتين والجنات ، وذات أسواق تجاريه ضخمه / الروض المعطار (مراكش) .

(٢) مدينة بأرض المغرب بينها وبين مراكش ثلاثون ميلا ، سكانها من البربر ، وأغمات مدينتان أحدهما تسمى أغمات وريكه والأخرى أغمات هيلانه ، فى الأولى تسكن الأعيان وتنزل التجار ، وتخترقها المياه يمينا وشمالا مما ساعد فى خصوبتها وكثرة زراعاتها . وباغمات هيلانه يسكن اليهود لمنع المرابطين اياهم من دخول مراكش / المصدر نفسه (أغمات) .

لجيوشه ومركزا لادارة حكمه فاختط سنة أربع وخمسين وأربعمائه مدينة مراكش (١)
وأقيمت فيها المساجد والقصور والأبنيه وأصبحت هى عاصمة الدوله المرابطيه
وقد وسّعها على بن يوسف الذى تولى الحكم بعد أبيه ، وبنى سورها
العظيم سنة ست وعشرين وخمسمائه ورحل اليها العلماء والفقهاء حتى
ازدان بلاط على بن يوسف بعدد وافر منهم وبقيت كذلك الى أن سقط حكم
المرابطين ودخلها الموحدون سنة احدى وأربعين وخمسمائه واتخذوها (٢)
عاصمة لهم - أيضا - واهتموا بشأنها واصلاحها اهتماما كبيرا جعلها تغدو
درة مدن المغرب ، وأعظم قاعدة لدولة مترامية الأطراف . ثم أقام بنو مرين
دولة فى فاس ، واستغلوا مرحلة الضعف التى تمر بها الدولة الموحدية
فجهز أبو يوسف المرينى جيشا قويا وسار به الى مراكش والتقى بجيش الموحدين
فهزمه هزيمة منكرة ، وقبض على آخر الخلفاء الموحدين وهو المعروف بأبى
دبوس واحتز رأسه وعلقه على سور مدينة فاس ، ودخل مراكش سنة ثمان
وستين وستمائه واستقبله أهلها وبايعوه بالطاعه فأمنهم ، وطمأنهم ومكث (٣)
فيها بضعة أشهر رجع بعدها الى حاضرته فاس ، وعلى أثر ذلك بدأت أهمية
مراكش تقل شيئا فشيئا وأهمل المرينيون أمرها ، فسرى اليها الخراب ،

---

(١) ابن أبى زرع : روض القرطاس : ٨٩ .
(٢) الكامل فى التاريخ : ٢٩٩/٨ .
(٣) عنان : عصر المرابطين والموحدين : ٥٧٠/٢ .

وغزاها الدمار ، فقد دخل اليها ابن الخطيب فى هذا العهد واعتبر بما (١) صارت اليه من الاهمال فقال يرثيها :- (٢)

بلد قد غزاها صرف الليالى * وأباح الحريم منه مبيح .
فالذى خرّ من بناه قتيل * والذى خرّ منه بعض جريح .
وكأن الذى يزور طبيب * قد تأتى له به التشريح .
أعجمت منه أربع وطلول * طال قدما بها اللسان الفصيح .
كم معان غبت بتلك المغانى * وجمال أخفاه ذاك الضريح .
وملوك تعبدوا الدهر حتى * أصبح الدهر وهو عبد صريح .
دوخوا ثانى البسيطة حتى * نال ماشاء ذابل وصفيح .
حين شبت لهم من البأس نار * ثم هبت لهم من النصر ريح .
أثر يندب المؤثر لما * طال بعد الدنو منه النزوح .
فقلوب النجوم تخفق وجدا * وعيون السحاب حزنا تفوح .
ساكن الدار روحها كيف يبقى * جسد بعد ما تطيح الروح .

---

(١) هو ذو الوزارتين ، محمد بن عبد الله بن سعيد السلمانى ، الغرناطى الأندلسى ، والمشهور بلسان الدين بن الخطيب . ولد بغرناطة سنة ٧١٣ هـ ونشأ بها ، وهو وزير وشاعر وأديب لا يجارى . تولى الوزارة لأبى الحجاج سلطان غرناطة ثم لابنه الغنى بالله حتى ثار عليه أخوه سنة ٧٦٠ هـ وفر ابن الخطيب الى المغرب وحدثت بعد ذلك أمور يطول ذكرها أرجع بعدها ابن الخطيب الى غرناطه ، واتهم بالزندقه ، وأفتى بعض حساده من العلماء بقتله فدس عليه فى السجن من خنقه سنة ٧٧٦ هـ ودفن بفاس . وقد خلف لنا من الآثار مايقرب من ستين كتابا .
انظر : الاحاطه فى اخبار غرناطه : ١٨/١ - ٢٥ ، عنان ، لسان الدين ابن الخطيب : ص ١٠ ومابعدها ، جذوة الاقتباس : ١٨٤/٢ ، الدرر الكامنه : ٤٦٩/٣ .

(٢) لسان الدين بن الخطيب ، ديوان الصيب والجهام : ٣٧٦ . وانظر نفاضة الجراب فى علالة الاغتراب : ٣٨٠/٢ .

ان حال مراكش جدير بالتأمل وأخذ العبرة ، فقد كانت هذه المدينة قصبة منيعة لأكبر دولتين عرفهما المغرب الاسلامى عبر تاريخه ، وكانت قبلة أنظار المهاجرين ومأوى اللاجئين تزهو برونق الملك ، وتختال فى أثواب العز المنشورة فوق بلاط المرابطين ومن بعدهم الموحدين . ولكن هذه الدنيا لا يبقى فيها شئ على حاله ، وصروف الليالى كفيلة بتحطيم أمنع الأشياء فالشاعر يقف بمراكش وسط أكوام من البناء المتهدم والمتصدع وكأنه بين قتيل وجريح . وقد لف تلك الأطلال صمت رهيب بعد أن كانت مرتعا خصبا يجول به العلماء والأدباء . ثم يرجع الشاعر بذكراته الى الوراء قليلا ليتذكر الملوك العظام الذين كانوا بهذه البلاد ، والذين خضعت لصولتهم الممالك والدول ، وان التاريخ ليسطر بحروف من نور جهاد المرابطين والموحدين ودفاعهم المجيد عن الأندلس الاسلامية ضد ممالك الأسبان الصليبيه ومن ورائها أوربا قاطبه . ثم ذهب هؤلاء الملوك ، وطواهم الردى وثكلتهم مراكش فهى تندبهم بخفقان نجومها وتبكيهم بماء سحابها ،فهم روحها وحياتها حيث أصبحت بعد ذهاب هذه الروح جسدا مهملا متداعيا .

ومن الجدير بالذكر أننا لا نجد شعرا فى رثاء دولة المرابطين أو الموحدين على سعة بلاطهم وكثرة شعرائهم وانما هناك شعر فى رثاء بعض الحكام والخلفاء وتخليد مآثرهم . ولعل ذلك راجع لأمور سياسيه تكمن فى العداء بين الدولة الجديده والدولة الغاربة ، وحرص الأولى على طمس أى فضيلة أو ذكر للثانيه .